أجاثا كريستي

الأصابع المتحركة

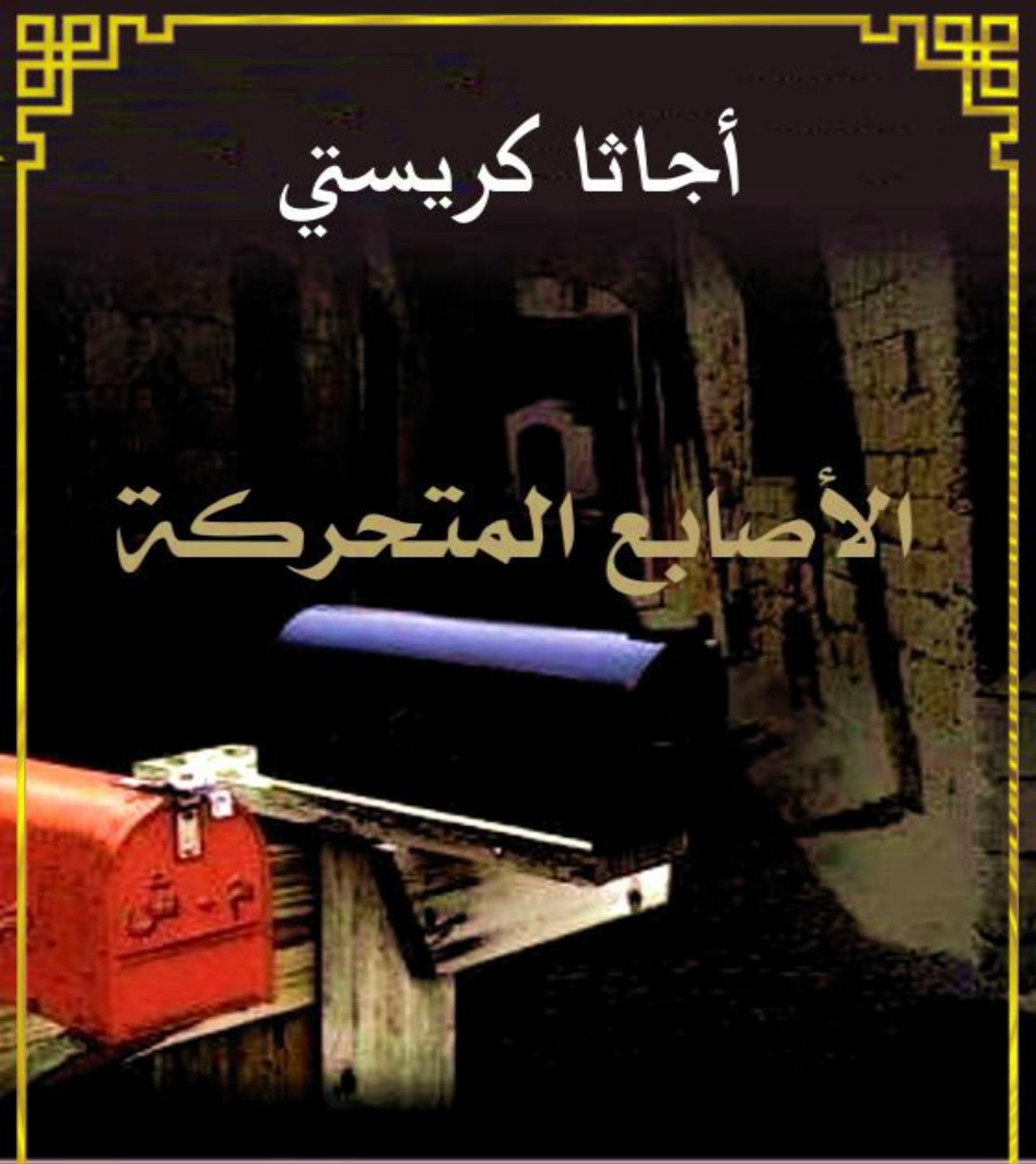

مكتبة على بن صالح الرقمية

أجاثا كريستي

الأصابع المتحركة

رواية بوليسية

1942

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الفصل الأول

1

فك الأطباء الجص عنى أخيرًا، ونظروا إلى بشفقة، وحاولت الممرضات استدراجى إلى تحريك أطرافى بحذر، وقد ضايقنى حديثهن معى كما لو كنت طف:لاً رضيعًا، وقال ماركوس إننى يجب أن أعيش فى الريف .

هواء نظيف، حياة هادئة، الامتناع عن فعل أى شىء ـ هذا هو علاجك . وسوف تعتنى بك أختك، فكل ما عليك أن تأكل وتنام وتقلد مملكة النباتات قدر الإمكان .

لم أسأله ما إذا كنت سأستطيع الطيران مرة أخرى أم لا . فهناك أسئلة يخشى المرء طرحها خوفًا من الإجابة . لذلك، لم أسأله فى الشهور الخمسة الأخيرة ما إذا كان قد حُكم على أن أعيش طريح الفراش للأبد . كنت خائفًا من عبارات الطمأنة البراقة التى تفوح منها رائحة النفاق كقول الممرضة لى:"ما هذا السؤال الذى تطرحه؟ إننا لا نسمح لمرضانا بالتحدث بهذه الطريقة أبدًا!".

لذا، لم أسأل ـ وسارت الأمور على ما يرام . فلم يكن مقدرًا لى أن أظل عاجزًا إلى الأبد . حيث أستطيع تحريك ساقىّ، والوقوف عليهما، وأخيرًا أستطيع المشى لبضع خطوات ـ وإن كنت أشعر بأننى طفل مغامر يتعلم المشى، بركبتين مرتعشتين ولفائف من القطن والصوف تلتف حول قدمىّ ـ حسنًا، إن هذا مجرد ضعف سرعان ما سيزول .

وقد أجاب الدكتور ماركوس كِنت ـ وهو طبيب قدير ـ عما أطرحه من أسئلة .

قال:"سوف تتعافى تمامًا . لم نكن متأكدين من ذلك حتى الثلاثاء الماضى عندما أجرينا لك ذلك الفحص، ولكن بوسعى إخبارك الآن بذلك وأنا مطمئن ـ غير أن ذلك سيستغرق وقتًا طوي:لاً . ستكون رحلة طويلة، وإن جاز لى القول، فستكون شاقة بعض الشىء . فعندما يتعلق الأمر بشفاء الأعصاب والعضلات، فيجب أن يقوم العقل بمساعدة الجسم . وأى استعجال سوف يتسبب فى انتكاسة، وأيًا ما كنت تمارسه من قبل، فعليك التوقف عنه الآن، حاول أن تساعد نفسك على الشفاء بسرعة. إذا فعلت أى شىء من هذا القبيل، فسوف تعود إلى دار الرعاية مجدداً . يجب عليك مراعاة البطء والتمهل، فلكى تشفى بسرعة عليك التمهل . فليس جسدك وحده هو الذى يحتاج إلى الشفاء، بل إن أعصابك قد أصابها الضعف أيضًا نتيجة لإخضاعك للأدوية لفترة طويلة من الزمن .

لذا أنصحك بالعيش فى الريف، استأجر منزلاً، واهتم بالسياسة المحلية، والفضائح المحلية، وبالقيل والقال فى القرية، اهتم بجيرانك بشكل فضولى، وإذا كان لى أن أقترح عليك اقتراحاً، فاذهب إلى جزء من العالم ليس لك فيه أصدقاء".

أومأت برأسى، قائلاً:"هذا ما فكرت فيه بالفعل".

لا أعتقد أن ثمة شيئاً أفظع من زيارات الأصدقاء والأقارب، وإبداء تعاطفهم، والتحدث عن شئونهم الشخصية .

سيقولون:"ولكن جيرى يبدو رائعاً ـ أليس كذلك؟ يجب أن أخبرك يا عزيزى ـ خمن ما الذى فعله باستر؟".

كلا، لا أريد شيئاً كهذا يحدث معى . إن الكلاب تتمتع بالحكمة، فهى تنزوى بعيداً فى أحد الأركان الهادئة وتلعق جراحها، ولا تعود للعالم من حولها حتى تبرأ تماماً مرة أخرى .

لذا فقد قمت أنا وجوانا ـ بعد طول بحث من خلال وكلاء العقارات فى جميع أنحاء بريطانيا ـ باختيار"ليتل فيرز"بقرية لايمستوك، كأحد المنازل التى يمكن رؤيتها . وخاصة أننا لم نذهب إلى لايمستوك أبداً ولا نعرف أى أحد هناك".

وعندما رأت جوانا ليتل فيرز قررت أنه المنزل الذى نبحث عنه .

إنه يقع على بعد نصف ميل تقريباً من لايمستوك على الطريق المؤدى إلى المستنقعات . وهو منزل أنيق أبيض اللون غير مرتفع، به شرفة على الطراز الفيكتورى بلون أخضر باهت، ويطل على منحدر مغطى بنبات الخلج .

ويمتلك المنزل أسرة تتكون من سيدات عوانس، من عائلة بارتون، واللاتى لم يبق منهن إلا واحدة فقط، وهى أصغرهن، الآنسة إيميلى .

كانت الآنسة إيميلى سيدة ضئيلة الحجم، كبيرة السن وكانت تتناغم مع منزلها بشكل غريب . شرحت لجوانا بصوت ناعم وبه رنة أسف أنها لم تترك المنزل من قبل، ولم تفكر فى ذلك أص:لاً ."ولكنك ترين يا عزيزتى، فإن الظروف قد تغيرت هذه الأيام ـ الضرائب . بالطبع، وهناك أسهمى الآمنة، كما كنت أتخيل دائماً، والتى قد أوصانى مدير البنك نفسه بشرائها، ولكن يبدو أنها لا تدر عائداً هذه الأيام ـ ما أقوله لا علاقة له بموضوعنا، بالطبع! لقد صارت الأمور صعبة جداً . إن المرء لا يحب (أنا متأكدة من أنك ستفهمينني يا عزيزتى ولن تأخذى كلامى على محمل الإساءة، فأنت تبدين لطيفة جداً) فكرة ترك المرء بيته للغرباء ـ ولكن يجب فعل شىء ما، وبعدما رأيتكما ؛ فإننى سعيدة لوجودكما هنا ـ إن المنزل بحاجة لوجود شباب . ويجب أن أعترف بأننى أتجنب فكرة وجود رجال هنا!".

عند هذه النقطة، كان على جوانا أن تخبرها بحالتى .

وكان رد فعل الآنسة إيميلى رقيقًا .

"أوه يا عزيزتى، لقد فهمت . حادث طيران؟ إن هؤلاء الشباب يتمتعون بقدر هائل من الشجاعة . ولكن هل سيبقى شقيقك عاجزًا عمليًا ـ".

يبدو أن الفكرة قد هدأت السيدة الرقيقة . فمن الواضح أننى لن أستطيع ممارسة تلك الأنشطة الذكورية التى تخشاها إيميلى بارتون وسألت باستحياء إن كنت أدخن .

قالت جوانا:"كالمدخنة". ثم أوضحت قائلة:"ولكننى أنا أدخن أيضًا".

"بالطبع، بالطبع . يالغبائى . أخشى أننى لم أتغير مع الزمن . فقد كانت شقيقاتى أكبر منى سنًا ؛ وقد عاشت أمى العزيزة حتى بلغت التاسعة والسبعين ـ تخيلوا ـ وكانت صارمة إلى أبعد الحدود . نعم، نعم، إن الجميع يدخنون الآن بيد أنه لا توجد حتى منفضة واحدة للسجائر فى هذا البيت".

قالت جوانا إننا سوف نحضر الكثير منها، وأضافت ابتسامة:"لن نقوم بإطفاء السجائر فى أثاث المنزل الفخم . فلا شىء يضايقنى بقدر رؤية بعض الناس يفعلون ذلك".

وهكذا تم تسوية الأمر واستأجرنا ليتل فيرز لمدة ستة أشهر، مع إمكانية مدها لثلاثة أشهر أخرى، وأوضحت إيميلى بارتون لجوانا أنها تشعر بالراحة لأنها ستقيم عند خادمتنا العجوز المخلصة فلورنسا، والتى تزوجت بعد أن قضت معنا خمسة عشر عامًا ."إنها فتاة لطيفة، وزوجها يعمل فى مجال العقارات . إن لديهما منز:لاً جمي:لاً فى شارع هاى ستريت وحجرتين جميلتين بالطابق العلوى حيث سأكون أكثر راحة هناك، وستسر فلورنسا كثيرًا بوجودى معها".

إذن، يبدو أن كل شىء يسير على ما يرام، فقد تم توقيع العقد، ووصلنا أنا وجوانا فى الوقت المناسب، ورحبت بارتريدج ـ خادمة إيميلى بارتون ـ بفكرة بقائها معنا . كان يتم الاعتناء بشئوننا بفضل مساعدة"فتاة"كانت تأتى كل صباح والتى كان ذكاؤها محدودًا ولكنها لطيفة .

كانت بارتريدج ـ سيدة فى منتصف العمر نحيلة وقاسية الملامح ـ تجيد الطهى، وعلى الرغم من رفضها تأخير وجبة العشاء (كان من عادات الآنسة إيملى تناول عشاء خفيف يتكون من بيض مسلوق) إلا أنها كيفت نفسها على أسلوبنا، حتى أنها اعترفت بأننى يجب أن أستعيد قوتى .

بعدما استقر بنا الحال وقضينا فى ليتل فيرز أسبوعًا، جاءت الآنسة إيميلى بارتون وتركت بعض البطاقات، وهكذا فعلت السيدة سيمنتجون . زوجة المحامى، والآنسة جريفيث، أخت الطبيب، والسيد باى رئيس"برايرز إند".

لقد ترك ذلك انطباعًا جمي:لاً فى نفس جوانا .

قالت جوانا بصوت يعبر عن انبهارها:"لم أكن أعلم أن هؤلاء الناس مهووسون فع:لاً

ـ بالبطاقات".

قلت:"هذا يا عزيزتى لأنك لا تعرفين شيئًا عن الريف".

"هراء . لقد قضيت الكثير من عطلات نهاية الأسبوع فى الريف".

إننى أكبر من جوانا بخمس سنوات . وأتذكر ذلك البيت المطلى باللون الأبيض الباهت، وغير المتهالك والمنظم الذى كنا نعيش فيه أيام طفولتى، حيث كانت تمتد الحقول حتى النهر . وبوسعى تذكر قيامى بالزحف تحت أشجار التوت المتشابكة دون أن يرانى البستانى، ورائحة التراب الأبيض فى الإسطبل، وقطة برتقالية تعبره، وسماع صوت حوافر الحصان وهى تضرب أرض الإسطبل .

ولكن عندما بلغت السابعة وكانت جوانا فى الثانية، ذهبنا للعيش فى لندن مع عمتى، ومنذ ذلك الحين نقضى جميع الأعياد والعطلات فى دور السينما والمسرح، حيث كنا نخرج للتنزه فى حديقة كنجستون جاردنز ونركب القوارب، ثم مؤخراً أصبحنا نمارس رياضة التزلج . وفى شهر أغسطس كنا نحجز غرفة فى أحد الفنادق المطلة على البحر .

وبينما كنت أشرد بذهنى هكذا، قلت لجوانا متأم:لاً، وبإحساس من وخز الضمير وبعد أن أدركت كم أصبحت أنانيًا وعاجزاً فى نفس الوقت .

"أنا آسف، سيكون ذلك فظيعًا بالنسبة لك . سوف تفتقدين كل شىء".

قلت ذلك لأن جوانا جميلة جداً ومليئة بالحيوية، وتحب الرقص والحفلات وقيادة السيارات بسرعة جنونية .

ضحكت جوانا وقالت إنها لا تبالى بذلك إطلاقًا .

"فى الحقيقة، أنا سعيدة بالابتعاد عن ذلك كله . فقد مللت من الزحام، وعلى الرغم من أنك لن تبدى تعاطفك، فقد تأثرت كثيراً لفراق باول، وسوف يستغرق منى الأمر وقتًا طوي:لاً حتى أتناساه".

كنت أشك فى هذا، فقصص الحب الخاصة بجوانا دائمًا ما تسير على هذا النحو . فهى تفتتن بشاب ضعيف الشخصية، وتعتقد أنه عبقرى لا يستطيع الناس فهمه، وتنصت إلى شكواه التى لا تنتهى وتفعل أى شىء لتحوز تقديره، وعندما يجحد مجهوداتها، فإنها تتأثر بشدة وتقول إن قلبها قد جرح ـ حتى يأتى شاب آخر، وعادة ما يأتى بعد ثلاثة أسابيع!

لذا لم آخذ مسألة جرح قلب جوانا على محمل الجد . ولكن بدا لى أن العيش فى الريف لعبة جديدة لشقيقتى الجذابة .

قالت:"على كل حال، فإن مظهرى جيد، أليس كذلك؟".

تفحصتها بنظرة كلها نقد ولم أستطع الاتفاق معها .

كانت جوانا ترتدى ملابس رياضية ؛ كانت ترتدى تنورة قصيرة وضيقة، وعلى نصفها العلوى كانت ترتدى قميصاً قصيراً يدعو للسخرية .كانت تلبس جوربين من الحرير الشفاف، وحذاء لا غبار عليه، وكله يعد من علامات الموضة .

قلت:"كلا، إن مظهرك غير مناسب على الإطلاق، بل وبه الكثير من الخطأ، ينبغى أن ترتدى تنورة ذات لون أخضر أو بنى باهت، وحرى بك ارتداء سترة من الكشمير تناسبها، وربما معطف صوفى، ويمكنك أن تلبسى قبعة من اللباد وجوربين من قماش سميك وحذاء قديم . فقط، عندئذ، يمكنك السير عبر شارع هاى ستريت بلايمستوك دون أن تبدى شاذة عن الآخرين كما أنت الآن . وبالمناسبة فإن وجهك كله أخطاء أيضاً".

"ما الخطأ فيه؟ لقد وضعت مساحيق من الدرجة الثانية تناسب الريف".

"نعم، إذا أردت العيش فى لايمستوك، فلا تضعى إلا قلي:لاً من المساحيق حتى لا تلفتى النظر إلى أنفك، وربما يجب عليك وضع القليل من أحمر الشفاة ـ مع عدم توخى الدقة الشديدة ـ وعليك وضع كل رموشك تقريباً بد:لاً من ربعها".

صاحت جوانا وبدت أنها وجدت المزيد من ضروب التسلية .

قالت:"أتعتقد أنهم سيظنوننى فظيعة؟".

قلت:"كلا، بل شاذة".

استأنفت جوانا قراءتها للبطاقات التى تركها زوارنا؟ زوجة رجل الدين هى الوحيدة التى أسعدها، أو ربما ساءها، الحظ بأن تستضيف جوانا فى بيتها .

تمتمت جوانا، قائلة:

"تبدو الأسر هنا سعيدة، أليس كذلك؟ فهذه زوجة محام، وتلك أخت طبيب ... إلخ "، ثم أضافت بحماس:"أعتقد أن هذا المكان لطيف يا جيرى! عالم قديم جميل جداً . لا يمكنك التفكير فى أن شيئاً شريراً يحدث هنا، أليس كذلك؟".

وعلى الرغم من أننى كنت أعرف أن ما تقوله محض هراء، إلا أننى وافقتها الرأى . ففى مكان مثل لايمستوك لا يمكن أن يحدث شىء شرير، والغريب أننا تلقينا أول خطاباتنا بعد أسبوع واحد فقط .

أعرف أننى بدأت بشكل سيىء، فلم أعط وصفًا لقرية لايمستوك، وبدون فهم أوصاف لايمستوك يستحيل فهم قصتى .

بادئ ذى بدء، فإن لايمستوك لها جذور ضاربة فى الماضى . ففى أيام الغزو النورماندى، كانت لايمستوك على قدر كبير من الأهمية، وتنبع أهميتها تلك من كونها مركزًا دينيًا حينذاك . فقد كان فى لايمستوك دير للرهبان وتعاقب عليه الكثير من الرهبان الطموحين وذوى النفوذ . وكان اللوردات والبارونات الذين يعيشون فى الريف المحيط به يتركون جزءًا من أراضيهم تحت تصرف الدير . وازداد ثراء وأهمية الدير واكتسب نفوذًا لقرون عدة . بيد أنه بمرور الزمن قام هنرى الثامن بإلغاء كل تلك الامتيازات ولحق بالدير ما لحق بأقرانه . ومنذ ذلك الحين هيمنت قلعت البلدة . كانت لا تزال مهمة وآلت لها الحقوق والمميزات والثروات .

وثم، فى حوالى القرن الثامن عشر، جاء المد التقدمى ليطيح بنفوذ لايمستوك ويتركها فى غياهب التخلف . حيث انهارت القلعة، ولم يتم إنشاء طرق رئيسية ولا سكك حديدية بالقرب من لايمستوك، التى تحولت إلى سوق محلى غير ذى أهمية تمتد بها المستنقعات والمزارع وتحيط بها الحقول الهادئة .

كان يقام بها سوق مرة كل أسبوع، وفى ذلك اليوم يصادف المرء قطعان الماشية فى الأزقة والطرقات . وكان يقام بها سباق للخيل مرتين فى السنة لا يتبارى فيه إلا الخيول الضعيفة .

وكان بها شارع رئيسى خلاب، تصطف على جانبيه المنازل التى تقف فى شموخ، والتى كانت تبدو غريبة بعض الشىء بنوافذها المتواجدة فى الطابق الأرضى والتى كان دائمًا ما يوجد عليها الفطائر أو الفاكهة أو الخضروات . وكان بالشارع أيضًا متجر ضخم لتجارة الألبسة والجوخ يمتد على نحو متسق مع الشارع، وهناك أيضًا تجد متجرًا هائ:لاً للحدادة، ومكتبًا للبريد له أهمية كبيرة فى هذا المكان .

وكذلك هناك فى ذات الشارع مجموعة من المتاجر والمحال المتنوعة، فهناك متجران يتنافسان لبيع اللحوم، وكان بالشارع لافتة لعيادة طبيب ومؤسسة قانونية يديرها السيدان جالبريث والسيد سيمنجتون، وكان بالشارع أيضًا إحدى دور العبادة والتى يرجع تاريخها إلى سنة 1420، ولا يزال يفوح منها رائحة العصر الساكسونى . وهناك أيضًا مدرسة أنشئت حديثًا وحانتين .

هذه هى لايمستوك، وبدافع إيميلى بارتون، حضر جميع من فى البلدة لكى يتعرفوا علينا، ومن أجل هذا اضطرت جوانا لأن تبتاع زوجًا من القفازات وقلنسوة مخملية، بد:لاً من ملابسها التى تفتقر إلى الذوق، حتى تتمكن من رد زيارتهم .

بالنسبة لنا كان كل شيئًا جديدًا ومسليًا، فنحن لم نذهب إلى هناك للإقامة الدائمة . لقد كانت بالنسبة لنا شيئًا مؤقتًا . وقد استعددت لإطاعة تعليمات طبيبى والاهتمام

بجيرانى .

لقد وجدت أنا وجوانا الأمر ممتعًا للغاية .

أعتقد أننى تذكرت تعليمات ماركوس كنت بالاستمتاع بالفضائح المحلية . بالقطع كنت أشك فى كيفية معرفتى بهذه الفضائح .

والشىء الغريب أن مجىء ذلك الخطاب كان لنا بمثابة متعة وتسلية أكثر من أى شىء آخر .

أذكر أنه قد وصل بينما نحن نتناول الإفطار . قلبته فى يدى، بتلك الطريقة الكسولة التى يتبعها المرء عندما يمر الوقت ببطء ويجب الغوص فى كل حدث حتى نهايته . لقد كان مرس:لاً من داخل البلدة وقد كتب عنوانه على آلة كاتبة .

فتحته قبل الخطابين الآخرين اللذين يحملان طوابع بريد لندن، حيث إن أحدهما كان يحوى فاتورة والآخر كان من أحد أبناء عمومتى المضجرين .

وبداخله كانت هناك كلمات وحروف مطبوعة، وقد لصقت على ورقة بيضاء . أخذت أحدق لدقيقة أو دقيقتين إلى الكلمات دون أن استوعبها، ثم شهقت .

نظرت إلىّ جوانا، التى كانت تطالع بعض الفواتير مقطبة جبينها .

وقالت:"مرحبًا، ما هذا؟ تبدو مروعًا".

لقد عبر الخطاب، الذى يستخدم مصطلحات بذيئة، عن رأى الكاتب بأننى أنا وجوانا لسنا أخوين .

قلت:"إنه خطاب قذر من مجهول ".

كنت لا أزال أعانى من آثار الصدمة . فلم أتوقع مثل ذلك الشىء فى بقعة هادئة مثل لايمستوك .

وفجأة أبدت جوانا اهتمامها .

"حقًا؟ ماذا يقول؟".

كنت قد قرأت فى الروايات أن الخطابات البذيئة والمثيرة للاشمئزاز لا ينبغى أن تطلع عليها النساء، ما أمكن ذلك . حيث يجب تجنيب المرأة الصدمة التى قد يتعرض لها جهازها العصبى الحساس .

ويؤسفى القول إنه لم يتراء لى أبدًا ألا أطلع جوانا على الخطاب، لذا فقد أعطيته لها فورًا .

وقد أثبتت إيمانى بصلابتها حينما لم تظهر أى انفعالات سوى الشعور بالإثارة .

"ياله من خطاب قذر! لقد سمعت كثيراً عن الخطابات المجهولة، لكننى لم يسبق لى أن رأيت أحدها من قبل . هل هى دائماً هكذا؟".

قلت:"لا أستطيع الجزم بذلك . فهذه أول مرة أرى فيها مثل هذه الخطابات أيضاً".

شرعت جوانا فى الضحك .

"لابد أنك كنت محقاً فيما يخص مساحيق التجميل التى كنت أضعها، يا جيرى . أعتقد أنهم يحسبوننى فتاة هاربة من أهلها!".

قلت:"إضافة إلى حقيقة أن أبانا كان رج:لاً طوي:لاً ذا فكين طويلين أسودين وأمنا كانت امرأة شقراء الشعر زرقاء العينين قصيرة القامة، وقد ورثت أنا صفات أبى، أما أنت فقد ورثت صفات أمك".

أومأت جوانا برأسها مفكرة .

"نعم، نحن لسنا متشابهين إلى حدٍ ما، ولن يظن المرء أننا أخوان".

قلت:"لابد أن أحدهم قد لاحظ ذلك".

قالت جوانا إنها تعتقد أن الأمر ممتع .

أمسكت الخطاب من إحدى زواياه وتركته يتدلى، ثم سألتنى عما ينبغى فعله به .

قلت:"أعتقد أن الإجراء الصحيح هو إلقاؤه فى النار مع صيحة اشمئزاز عالية".

نفذت ما قلته عملياً، وصفقت جوانا بيديها .

أضافت:"لقد فعلتها بشكل جميل، كان ينبغى أن تكون ممث:لاً . من حسن حظنا أن النار متقدة، أليس كذلك؟".

وافقتها، قائ:لاً:"عندئذٍ كانت سلة المهملات ستصبح ح:لاً أقل إثارة . كان بوسعى بالطبع أن أشعل فيه النار بعود ثقاب وأشاهده بينما يحترق ببطء".

قالت جوانا:"إن الأشياء لا تحترق عندما تريدها أن تحترق، بل إنها تسلم من النيران، وربما كان عليك إشعال عود ثقاب بعد آخر".

نهضت واتجهت نحو النافذة، وعندما وصلت إلى هناك التفتت فجأة .

وقالت:"إننى أتساءل، من الذى كتبه؟".

قلت:"لن نعرف أبداً على الأرجح".

"نعم ـ لا أعتقد أننا قد نتمكن من ذلك"صمتت لبرهة، ثم قالت:"يراودنى إحساس أحياناً بأن الأمر ليس ممتعاً . أتعلم؟ لقد حسبت ـ حسبت أنهم أحبونا هنا".

قلت:"هذه هى الحقيقة فإنهم يحبوننا بالفعل، أما مرسل هذا الخطاب فما هو إلا شخص مخبول يعيش على أطراف القرية".

"أظن ذلك؟ أوه ـــ ياله من عمل شرير!".

عندما خرجت لتستمتع بالشمس المشرقة، فكرت بينى وبين نفسى أثناء تدخينى لسيجارتى بأنها كانت محقة تماماً . إنه عمل شرير . لقد استاء أحدهم من مجيئنا إلى هنا، وكان مستاءً من جمال جوانا الخاطف، لقد أراد إيذاءنا . ربما كانت مقابلة مثل هذا الأمر بالضحك أفضل طريقة ـ ولكن فى أعماق نفوسنا لم يكن أمراً ممتعاً أبداً ...

جاء الدكتور جريفيث هذا الصباح . لقد اتفقت معه على إجراء فحص أسبوعى . وقد أحببت أوين جريفيث، لقد كان ذا بشرة سمراء، ضئيل الحجم، يتحرك فى رشاقة وخفة، ويداه ماهرتان فى الفحص، وكان يتلعثم فى حديثه قلي:لاً، وكان خجو:لاً إلى حد كبير .

أشار إلى تقدمى فى العلاج حتى يشجعنى، ثم أضاف:

"إنك تشعر بالتحسن، أليس كذلك؟ يبدو أنك متعكر المزاج هذا الصباح، أم هذا وهم منى؟".

قلت:"فع:لاً، لقد تسلمت هذا الصباح خطاباً بذيئاً من مجهول، وقد شعرت ببعض الضيق والمرارة بعد قراءته".

ألقى بحقيبته على الأرض، واعترى وجهه النحيف الأسمر شعور بالإثارة .

"هل تعنى أنك تسلمت واحداً منها؟".

شعرت بالاهتمام والإثارة .

"فإنه أمر شائع إذن؟".

"منذ فترة من الوقت".

قلت:"أوه، فهمت . لقد حسبت أن وجودنا هنا كغرباء أمر غير مرغوب فيه".

"كلا، كلا، الأمر لا علاقة له بذلك . إنه مجرد ـ ". توقف ثم سألنى:"ماذا كان محتوى الخطاب؟ على الأقل ـ"احمر وجهه فجأة وشعر بالحرج:"ربما لم يكن لى أن أسأل هذا السؤال".

قلت:"سأخبرك بكل سرور، لقد قال إن الفتاة التى أحضرتها معى ليست أختى ـ ويمكننى القول إن هذا يعتبر ملخصاً لما ورد بالخطاب بعد تنقيحه من البذاءات".

احمر وجهه غضباً .

"اللعنة! لعل أختك ـ إنها ليست مستاءة، أليس كذلك؟".

قلت:"إن جوانا تبدو كملاك طاهر، ولكنها فتاة عصرية وصلبة جداً . لقد وجدت أن الأمر مسلٍ للغاية . فهى لم تصادف مثل هذه الأشياء من قبل".

قال جريفيث بحرارة:"أتمنى لو لم تصادفها فى الحقيقة".

قلت بحزم:"على أية حال، فإن هذا هو الأسلوب الأنسب لمواجهة مثل هذه السخافات على ما أعتقد".

قال أوين جريفيث:"نعم، لكن ـــــ".

توقف عنت الحديث، فسارعت قائ:لاً:

"ولكن ماذا، ماذا تقصد؟".

قال:"المشكلة أن مثل هذه الأفعال إذا ما بدأت، فإنها تتفشى وتنتشر بشكل كبير".

"علىّ أن أتوقع هذا".

"إنها حالة مرضية بالطبع".

أومأت برأسى ثم سألته:"ولكن هل من ثمة فكرة عمن يكون وراء إرسال مثل هذه الخطابات؟".

قال:"ليتنى كنت أعرف . أتدرى إن الخطابات المجهولة نوعان، إما إنها خاصة ـ أى موجهة لشخص بعينه، أو مجموعة من الأشخاص، أى تستطيع ان تقول إن هناك دافعاً لذلك، حيث إن الشخص الذى يقوم بإرسالها يحمل ضغينة (أو يعتقد أنه كذلك) ضد أحد الأشخاص، ثم يختار أسلوباً قذراً ومنحطاً ليعبر به عن كراهيته إنه أسلوب دنىء، ومثير للاشمئزاز ولكنه لا ينم عن جنون صاحبه، وفى تلك الحالة يكون من السهل معرفة من وراء الخطاب المرسل ـ خادمة تم طردها ـ امراة غيورة ـ وهكذا . ولكن إذا كانت عامة وليست خاصة، فإنها تمسى أكثر خطورة . حيث ترسل الخطابات دونما تفرقة وبطريقة عشوائية، وتؤدى الغرض بالتنفيس عن إحباط ما فى ذهن الكاتب . وكما قلت فإنه أمر مرضى . وتزداد إصابة الشخص بالجنون . وفى النهاية تتعقب الشخص محل الشبهة ـ غالباً ما يكون شخصاً مكروهاً من الجميع، وهذا كل ما فى الأمر . لقد حدث شىء مثل هذا على الجانب الآخر من المقاطعة فى العام الماضى ـ وتبين أن رئيسة قسم القبعات بمؤسسة كبيرة لصناعة الملابس هى التى تقف وراء ذلك . كانت امرأة رقيقة جداً ـ عملت هناك لسنوات . أذكر أن ذلك حدث فى آخر سنة لى هناك عندما كنت أقضى فترة التكليف ـ ولكن تبين أن ضغينة شخصية هى السبب . وكما أقول فإننى رأيت شيئاً من هذا القبيل، وبصراحة فإنه يخيفنى!

سألته:"هل يحدث ذلك منذ فترة طويلة؟".

"لا أعتقد، وإن كان يصعب الجزم بذلك، بالطبع، لأن من يتلقون هذه الرسائل لا

يعلنون عنها، وإنما يكتفون بإحراقها".

توقف للحظة .

"لقد تلقيت واحدة منها، كما أن سيمنجتون، المحامى، تلقى واحدة، وكذلك اثنان من مرضاى المساكين أخبرانى بتلقيهما رسائل من هذا النوع".

"كلها من نفس العينة".

"أوه، نعم، كلها تعزف على وتر الجنس . هذه هى الخاصية الرئيسية المشتركة بينها"ثم ابتسم وأضاف:"لقد اتهم سيمنجتون بإقامة علاقة غير شرعية مع كاتبته ـ السيدة جنش المسكينة، التى تبلغ من العمر بضعة وأربعين عاماً على الأقل، وترتدى نظارة سميكة وأسنانها تشبه أسنان الأرنب . ولقد أخذ سيمنجتون الرسالة وتوجه بها إلى الشرطة . أما الرسائل التى تلقيتها أنا، فإنها تتهمنى بانتهاك آداب المهنة مع مرضاى من النساء . لقد كتبت بأسلوب طفولى وسخيف، ولكنها سامة للغاية". تغير وجهه، وبدت عليه أمارات الحزن وهو يقول:"ولكن مع ذلك أشعر بالخوف، فهذه الأشياء يمكن أن تكون فى غاية الخطورة، كما تعلم".

"أعتقد ذلك".

"لعلك ترى أنه على الرغم من سخافة وتفاهة هذه النكات، فإن إحدى هذه الرسائل سوف تصيب الهدف إن عاج:لاً أو آج:لاً . والله وحده يعلم ماذا سيحدث حينذاك! إننى خائف أيضاً من تأثيرها على أصحاب العقول الضعيفة الشكاكة الخالية من الثقافة والعلم . فإذا ما رأى أحدهم شيئاً مكتوباً، فسوف يعتقد بصحته، وعندئذٍ قد تظهر كل أنواع العقد".

قلت متأم:لاً:"إنها تنم عن جهل كاتبها، إذ يبدو لى أنه شخص أمى".

قال أوين:"أهى كذلك فع:لاً؟"ثم خرج .

بينما كنت أفكر فيها فيما بعد وجدت أن عبارة"أهى كذلك فع:لاً؟"محيرة لى .

الفصل الثانى

1

لن أدعى أن وصول رسالتنا الخالية من التوقيع لم تترك أثراً مراً فى الفم . فهذا هو ما حدث بالفعل ولكن فى الوقت نفسه نسيت أمرها سريعاً، ولم آخذها حتى عند هذه النقطة على محمل الجد . وأعتقد أننى أتذكر ما كنت أقوله لنفسى بأن هذه الأشياء تحدث كثيراً فى القرى النائية . لابد أن امرأة مخبولة تريد تسلية نفسها هى التى تقف وراءها . على أية حال، مادامت هذه الرسائل مكتوبة بأسلوب طفولى كمثل التى تلقيناها، فإنه لا ضرر منها على الإطلاق .

كانت الحادثة التالية ـ إذا جاز لى القول ـ بعد أسبوع، عندما أخبرتنى بارتريدج وهى تزم على شفتيها أن بياترس، الخادمة اليومية، لن تأتى اليوم .

قالت بارتريدج:"أحسب يا سيدى أن الفتاة مستاءة".

لم أكن متأكداً تماماً مما تعنيه بارتريدج بكلامها هذا، ولكنى خمنت (خطأ) أن بياترس تعانى من بعض المتاعب فى المعدة ولا تستطيع بارتريدج الإشارة إلى ذلك بشكل مباشر، لذا عبرت لها عن أسفى وتمنيت لها الشفاء العاجل .

قالت بارتريدج:"إن صحة الفتاة على ما يرام يا سيدى، إن مشاعرها هى المعتلة".

قلت متشككاً:"أوه".

واصلت بارتريدج قائلة:"بسبب رسالة تلقتها . وأحسب أنها تعرض بها".

كانت نظرة الاشمئزاز فى عينى بارتريدج، إضافة إلى تشديدها على كلمة (تعرض) قد جعلنى أدرك أن هذا التعريض له علاقة بى . وحيث إننى ما كنت لأميز بياترس بصعوبة لو قابلتها فى البلدة، فإننى لم أدرك مغزى تشديدها على هذه الكلمة ـ فقد شعرت بأنه استياء غير مبرر . كما أن رجلاً يسير على عكازين ليس من شأنه أن يفتن بنات القرية . لذا قلت بتوتر:

"يا لهذه السخافات!".

قالت بارتريدج:"هذا ما قلته بالحرف لأمها يا سيدى فقد قالت لها:"لم ولن يحدث

شىء من هذا القبيل فى هذا البيت ما دمت أنا المسئولة عنه . وبالنسبة لبياترس"فقد قلت لها:"إن الفتيات مختلفات هذه الأيام ولا أعرف شيئًا عما يحدث بالخارج "، ولكن الحقيقة يا سيدى أن صديق بياترس الذى يعمل فى المرآب قد تلقى رسائل شريرة أيضًا وهو لا يتصرف بحكمة على الإطلاق".

قلت بغضب:"لم أسمع أبدًا شيئًا بهذه الوقاحة". قالت:"فى رأيى أن نتخلص من هذه الفتاة، فما كانت لتستاء هكذا بشدة، وتسلك هذا السلوك . لو لم يكن هناك شىء تخشى افتضاحه . لا دخان بدون نار، هذا ما أقوله".

لم يكن لدى فكرة عما ستسببه لى تلك العبارة من متاعب .

2

اعتزمت هذا الصباح ـ على سبيل المغامرة ـ التجول عبر شوارع القرية . (كنت أنا وجوانا نطلق عليها دائمًا القرية، وإن كان اسمًا غير صحيح علميًا، وكان من شأن سكان لايمستوك أن ينزعجوا لو سمعونا نقول هذا) .

كانت الشمس ساطعة، والهواء باردًا تتخلله نسمات الربيع الحلوة . اتكأت على عكازى وبدأت السير رافضًا بحزم مرافقة جوانا لى .

قلت:"كلا، لن اصطحب معى حارسًا يسير الهوينى بجوارى ويمطرنى بعبارات التشجيع، وتذكرى أن الرجل الأسرع هو من يسير بمفرده . كما أن لدى الكثير من الأعمال التى أريد قضاءها، فسوف أذهب إلى جالبريث وسيمنجتون، وأوقع عقد تحويل الأسهم، وسوف أذهب إلى الخباز وأشكو له من رغيف الزبيب، ثم سأعيد ذلك الكتاب الذى استعرته . ويجب أن أذهب إلى البنك أيضًا . دعينى بمفردى يا امرأة فهذا الصباح قصير جدًا".

اتفقنا على أن تصطحبنى جوانا بالسيارة وتعود لتعيدنى وقت الغداء .

"إن هذا سيتيح لك الفرصة لقضاء بعض الوقت مع الجميع فى لايمستوك".

قلت:"لا أشك فى أنه كان ينبغى على رؤية كل شخص ذى شأن منذ أن جئنا إلى هنا".

كان الصباح فى الشارع الرئيسى يعتبر مكانًا لتلاقى المولعين بالتسوق وتبادل الأخبار .

وعلى أية حال، لم أسر دون صحبة، فما كدت أسير لمائتى ياردة تقريبًا حتى سمعت جرس دراجة يرن خلفى، ثم صوت احتكاك الكوابح، ثم ميجان هنتر وهى تسقط أرضًا

عند قدمى".

قالت"مرحبًا "، وهى تلهث بينما تنهض من على الأرض وتنفض عن نفسها التراب .

لقد كنت أحب ميجان، وشعرت بالأسف لما أصابها .

كانت ابنة زوجة سيمنجتون المحامى، ابنة السيدة سيمنجتون من زوجها السابق . لم يتحدث أحد كثيراً عن السيد هنتر، وفهمت أنه كان يعتبر من الأفضل تناسيه . ويقال إنه كان يعامل السيدة سيمنتجون بشكل بالغ السوء . وقد طلقها بعد عام أو عامين من زواجهما . لقد كان لديها مواردها المالية الخاصة وسكنت لايمستوك لكى"تنسى "، وفى النهاية تزوجت من الأعزب الوحيد المؤهل فى القرية، ريتشارد سيمنجتون . وقد أثمر الزواج الثانى عن ولدين، وقد كرس والدهما نفسيهما لرعايتهما، وأعتقد أن ميجان تشعر بأنها شاذة فى هذه الأسرة، فهى لم تكن تشبه أمها، والتى كانت امرأة ضئيلة الحجم، وذات جمال باهت وتتحدث بصوت ضعيف تكسوه نبرة الكآبة بسبب متاعب الخدم وصحتها المعتلة .

أما ميجان فقد كانت فتاة طويلة القامة، خجولة بعض الشىء . وعلى الرغم من أنها كانت فعلياً فى العشرين من عمرها، فقد بدت مثل فتاة فى السادسة عشرة من عمرها لا تزال فى المدرسة . كان شعرها البنى غير مصفف بالمرة، وعيناها ذات أخضر بندقى، وكان وجهها نحيفاً بارز العظام، وابتسامتها خلابة بشكل غير متوقع . وكانت ملابسها قذرة وغير جذابة، وتلبس عادة جوربين بهما ثقوب .

لقد بدت، كما تراءى لى هذا الصباح، أشبه بحصان أكثر منها إنسان . فى الواقع، كان من شأنها أن تكون حصاناً جميلاً جداً ببعض التهذيب .

وكعادتها كانت تتكلم باندفاع .

"لقد كنت متوجهة إلى المزرعة ـ مزرعة لاشر كما تعلم ـ لأرى ما إذا كان لديهم بيض بط . فلديهم عدد كبير من الخراف الصغيرة الجميلة . إنها لطيفة! هل تحب الخراف؟ أنا أحبها، حتى أننى أحب رائحتها".

قلت:"إن الخراف التى يتم رعايتها جيداً لا تكون رائحتها سيئة".

"أليس كذلك؟ إنها فى كل مكان هنا . هل أنت ذاهب إلى البلدة؟ لقد رأيتك وحدك، لذا فكرت فى التوقف والسير معك، غير أننى توقفت فجأة".

قلت:"لقد مزقت جواربك".

نظرت ميجان بحزن إلى رجلها اليمنى .

"نعم، ولكن كان به ثقوب بالفعل، لذا فإنه لا يهم كثيراً، أليس كذلك؟".

"هل أصلحت جواربك من قبل، ميجان؟".

"أحيانًا، عندما تلاحظها أمى، ولكنها لا تهتم كثيراً بما أفعله ـ وهذا من حسن حظى، أليس كذلك؟".

قلت:"يبدو أنك لا تدركين أنك قد كبرت".

"أتعنى أننى يجب أن أشبه الدمية مثل أختك؟".

شعرت بالاستياء لوصف جوانا بهذا الوصف .

قلت:"إنها تبدو نظيفة ـ وأنيقة ورؤيتها محببة إلى العين".

قالت ميجان:"إنها جميلة جداً، إنها لا تشبهك كثيراً، أليس كذلك؟ ما السبب يا ترى؟".

"لا يشترط أن يكون الإخوة متشابهين دائماً".

"نعم، بالطبع، فأنا لا أشبه بريان وكولين، كما أن بريان لا يشبه كولين"توقفت للحظة ثم قالت:"إنه أمر عجيب، أليس كذلك؟".

"ما هو؟".

أجابت ميجان باختصار، قائلة:"الأسر".

قلت متأملاً:"أعتقد ذلك".

تساءلت عما يدور فى ذهنها . سرنا فى صمت لدقيقة أو دقيقتين، ثم قالت ميجان بصوت خجل:

"إنك طيار، أليس كذلك؟".

"بلى".

"وهذا هو سبب إصابتك؟".

"نعم، لقد تحطمت طائرتى".

قالت ميجان:""لا أحد يمارس الطيران هنا".

قلت:"كلا، لا أعتقد ذلك . هل تحبين الطيران يا ميجان؟".

بدت وكأنها فوجئت، فقالت:"أنا؟ يا إلهى! كلا سوف أصاب بالدوار، إننى أصاب بالدوار حتى عند ركوب القطار".

توقفت لبرهة ثم سألت بطريقة مباشرة كالأطفال .

"هل ستستطيع الطيران مرة أخرى، أم ستظل عاجزاً إلى الأبد؟".

"يقول طبيبى إننى سوف أتعافى وأسترد صحتى".

"نعم، ولكن هل هو من نوعية الرجال الكذابين؟".

أجبت:"لا أعتقد ذلك . فى الحقيقة، أنا متأكد من ذلك تمامًا، إننى أثق فيه".

"إذا كان الأمر كذلك فلا بأس، ولكن الكثير من الناس يكذبون".

تقبلت هذه العبارة التى لا يمكن إنكارها بصمت .

قالت ميجان بطريقة حكيمة .

"إننى سعيدة . كنت أخشى أن تكون غاضبًا بسبب عجزك ـ ولكن إن كان ذلك طبيعيًا، إلا إنه مختلف".

قلت ببرود:"إننى لست غاضبًا".

"أنت سريع الانفعال إذن".

"أنا سريع الانفعال لأننى أتعجل الشفاء مرة أخرى ـ وهذه الأشياء لا يمكن استعجالها".

"إذن، لماذا أنت قلق؟".

بدأت أضحك .

"عزيزتى، ألم تتعجلى حدوث شىء أبدًا؟".

فكرت ميجان فى السؤال، ثم قالت:

"كلا، وما الذى يدعونى لذلك؟ ليس هناك شىء يدعونى للعجلة . فلا شىء يحدث أبدًا".

صدمت بنبرة اليأس فى كلامها هذا، فقلت بلطف:"ماذا تفعلين هنا؟".

هوت كتفاها .

"ما الذى يمكن فعله هنا؟".

"أليس لديك أية هوايات؟ أتمارسين ألعابًا؟ ألك أصدقاء هنا؟".

"إننى غبية فى الألعاب، ولا أحبها كثيرًا، ولا يوجد الكثير من الفتيات هنا، الفتيات الموجودات لا أحبهن . فهن يحسبننى فظيعة".

"هراء! لماذا يعتقدن ذلك؟".

هزت ميجان رأسها .

"ألم تذهبى إلى المدرسة إطلاقًا؟".

"نعم، ولقد عدت من هناك منذ عام".

"هل استمتعت بالمدرسة؟".

"لم تكن سيئة، وإن كانوا قد علمونى الأشياء بطريقة سخيفة للغاية".

"ماذا تعنين؟".

"حسنًا ـ مجرد قشور من هنا وهناك . ينحتون ويغيرون من شىء لآخر . لقد كانت مدرسة رخيصة، كما تعلم، ولم يكن المدرسون على درجة عالية من الكفاءة، فلم يكن بوسعهم الإجابة عن الأسئلة بشكل لائق".

قلت:"القليل من المدرسين من يستطيع ذلك".

"لِمَ لا؟ من المفترض أن يكونوا أكفاء".

وافقتها .

قالت ميجان:"بالطبع، أنا غبية جدًا . ومثل هذه الأشياء تبدو لى متعفنة . التاريخ مثلاً، لماذا يختلف باختلاف الكتب؟!".

قلت:"لأن كُتّابها مختلفون".

واصلت ميجان حديثها، قائلة:"والقواعد اللغوية، وموضوعات الإنشاء التافهة، وكل هذه السخافات التى كتبها شيلى متغزلاً فى جمال القبرات، ووردس ورث الذى أذهب شعره على نباتات النرجس البرى . وشكسبير".

تساءلت باهتمام:"وما العيب فى شكسبير؟".

"إنه يتحذلق ويتحاذق ليقول أشياء بطرق غاية فى الصعوبة، بحيث لا تستطيع فهم ما يعنيه ومع ذلك، فإننى أحب بعض أعماله".

قلت:"إننى متأكد من أن ذلك يسعده كثيرًا".

يبدو أن ميجان لم تشك فى نبرة السخرية التى تكسو كلامى، حيث قالت متهللة الأسارير:"فأنا أحب مثلاً شخصيتى جونريل وريجان".

"لماذا هاتان بالذات؟".

"أوه لا أدرى، إنهما تشعرانى بالرضا إلى حد ما . لماذا كانتا كذلك فى رأيك؟".

"ماذا كانتا؟".

"كانتا كما هما، شريرتين فى الرواية . أعنى أنه لابد أن هناك شيئًا جعلهما كذلك؟".

لأول مرة يطرح علىّ هذا السؤال، فقد كانت مستقرة فى وجدانى دائمًا فكرة أن ابنتى الملك لير فتاتان شريرتان، وهذا ما ارتضيته لنفسى، ولكن تساؤل ميجان عن السبب جعلنى اهتم .

قلت:"سأفكر فى ذلك".

"أوه، إن الموضوع ليس ذا أهمية، وإنما كنت أتساءل فقط . فهذا هو الأدب الإنجليزى على أية حال، أليس كذلك؟".

"تمامًا، تمامًا . ألم تعجبك أية مادة أخرى؟".

"الرياضيات فقط".

تساءلت مندهشًا:"الرياضيات؟".

تهللت أسارير ميجان .

"لقد أحببت الرياضيات، ولكنها لم تكن تُدرس على الوجه الأمثل، لكم تمنيت لو تعلمتها بشكل جيد حقًا إنها مادة ساحرة . أعتقد أن الأرقام فيها نوع من السحر، أليس كذلك؟".

قلت بصدق:"لم أشعر بذلك مطلقًا".

كنا الآن على وشك دخول شارع هاى ستريت .

قالت ميجان بحدة:

"هاهى الآنسة جريفيث . يالها من امرأة كريهة".

"ألا تحبينها؟".

"إننى أمقتها . فهى تلح على دائمًا حتى أنضم إلى جماعتها من فريق الكشافة المثيرات للاشمئزاز . إننى أكره فتيات الكشافة . ما الذى يدعو الواحدة منا إلى ارتداء أزياء خاصة والسير فى مجموعات ووضع شارات على ملابسها من أجل شىء لم تتعلم فعله بطريقة صحيحة؟ أعتقد أنه مجرد هراء".

كنت ـ بصفة عامة ـ متفقًا مع ميجان، غير أن الآنسة جريفيث هبطت علينا قبل أصارحها بموقفى .

كانت أخت الطبيب التى تحمل اسم إيمى تتمتع بقدر من الثقة بنفسها يفوق ما يتمتع به شقيقها . وقد كانت امرأة جميلة، ذات وجه أشهب نتيجة التعرض للشمس . وكان صوتها عميقًا ويحمل نبرة ودودة .

أشارت إلينا قائلة:"مرحبًا بكما، إنه صباح لطيف، أليس كذلك؟ ميجان إنك من أردت رؤيته . أريد مساعدتك فى كتابة عناوين المظاريف إلى جمعية المحافظين".

تمتمت ميجان بشىء مراوغ، ثم ألقت بدراجتها على حافة الطريق، واختفت بطريقة عمدية داخل المتجر الدولى .

قالت الآنسة جريفيث:"طفلة غريبة، إنها كسولة للغاية . فهى تقضى وقتها فى التسكع . لابد أنها تمثل مشكلة للمسكينة السيدة"سيمنجتون". أعرف أن أمها حاولت أكثر من مرة أن تشجعها على امتهان مهنة ما ـ الكتابة على الآلة الكاتبة، أو الطهى، أو تربية الأرانب . إنها بحاجة لشىء تهتم به فى الحياة .

كنت أعتقد أن ذلك صحيح إلى حدٍ بعيد، غير أنى شعرت بأننى لو كنت مكان ميجان لرفضت بحزم مقترحات الآنسة جريفيث وما ذلك إلا بسبب شخصيتها العدوانية التى كانت لتحيل حياتى إلى جحيم .

الفصل الثالث

1

فى عصر ذلك اليوم ذهبنا لتناول الشاى مع السيد باى .

وكان السيد باى رجلاً فى غاية البدانة، ذا مظهر أنثوى، وكان يقضى كل وقته فى العناية بمقتنياته من الأثاث البرجوازى الطراز، وتماثيل راعيات الأغنام ومجموعة أخرى من التحف . وكان يعيش فى منزل برايولودج والذى كان يقع فى أرض كانت فى الماضى تابعة لدار عبادة قديم .

وبكل تأكيد كان لطبيعة السيد باى فى الاهتمام بالمنزل بكل عناية أثرها فى إضفاء جمال عليه، فقد كان هذا المنزل منزلاً فى غاية الروعة، وكانت كل قطعة أثاث فيه تبدو لامعة وبراقة وموضوعة فى المكان الذى يناسبها تماماً . وكانت الستائر تتناغم تناغماً لونياً بديعياً مع الأثاث الذى كان يكسوه أغلى أنواع الحرير .

ولقد كان من الصعب تصديق أن هذا المنزل يعيش فيه رجل بمفرده، فلقد أصابتنى الدهشة لأننى وجدت أن من يعيش فى هذا المنزل سوف يكون كمن يعيش فى متحف . وكانت متعة السيد باى الكبرى هى أن يجول بضيوفه فى أرجاء المنزل . وعندها لن يكون بوسع أى أحد أن يهرب من هذه الجولة، حتى أولئك الذين يدركون قيمة ما فى المنزل من أثاث فخم وتحف ثمينة . فحتى لو كان مفهومك عن متطلبات المعيشة يقتصر على الأشياء الأساسية والتى هى المذياع والمائدة والمغطس والفراش وما يحيط بهذه الأشياء من جدران، فلن يألو السيد باى جهداً فى أن يدلك على أشياء أفضل .

وكانت يداه الصغيرتان المكتنزتان ترتعشان عندما كان يصف لنا ثرواته، وكان صوته يرتفع بحدة عندما كان يروى لنا الملابسات التى استطاع من خلالها إحضار هيكل فراشه الإيطالى هذا من فيرونا .

ولأننى وجوانا كنا نعشق التحف والأثاث ذات الطراز العتيق فقد لقينا استحساناً لديه .

وقال السيد باى:"إننى لسعيد أيما سعادة بصحبتكما هذه . إن هؤلاء الناس الأعزاء الذين يعيشون حولنا ـ كما تعلمون ـ هم بكل أسف مجموعة من القرويين السذج ـ لا أريد أن أقول إنهم أجلاف . إنهم لا يدركوا أى شىء . ما هم إلا مجموعة من الجهلة ـ

جهلة تمامًا! والوضع فى داخل منازلهم قد يدفعك للبكاء يا سيدتى العزيزة، أؤكد لك أنه سيدفعك للبكاء، أو ربما قد تكونين بكيتى بالفعل إذا رأيت منازلهم "، ولكن جوانا قالت إن الأمر لم يصل معها إلى هذا الحد .

تذمر السيد باى، وارتجف قليلاً ثم غمغم فى حزن:"إلا أنك تتفهمين ما أقول، أليس كذلك؟ إنهم يضعون الأشياء المتنافرة بجانب بعضها البعض بشكل مريع! لقد رأيت ذلك بأم عينى . قطعة أثاث من طراز شيراتون ـ قطعة فى غاية الجمال ـ لابد أنهم اشتروها من جامع تحف بلاستيك، ورأيت بجانبها مائدة مناسبات فيكتورية الطراز، أو لعلها كانت مصنوعة من خشب البلوط المدخن الذى يستخدم فى صنع حافظات الكتب ـ نعم بلوط مدخن .

ثم استطرد قائلاً:"لماذا يتصف الناس بهذا القدر من الجهل؟ إنكم توافقوننى . أنا واثق من أنكم توافقوننى على أن الجمال هو الشىء الوحيد الذى يستحق أن نحيا من أجله".

أجابته جوانا وهى مأخوذة بمدى صراحته:"نعم، نعم كما تقول"فتساءل السيد باى:"إذن فلماذا يملأ الناس حياتهم بالقبح؟".

قالت جوانا:"إن هذا شىء غريب".

صاح السيد باى:"شىء غريب؟ إنها جريمة نكراء! إن هذا هو ما أسمية بالجريمة النكراء! فلا يستطيع هؤلاء أن يسوقوا إلى مبررات لما يفعلون إلا أن يقولوا إن هذا يشعرهم بالارتياح . أو إنه جذاب وفريد من نوعه، فريد من نوعه يا له من قول فظيع".

ثم استطرد السيد باى قائلاً:"إن ذلك المنزل الذى أخذتماه، هو منزل الآنسة إيميلى بارتون . وهو أمر رائع، فهى تمتلك بعض التحف الجميلة، إنها رائعة للغاية . ولعل واحدة أو اثنتين من هذه التحف هى تحف من الدرجة الأولى . ولديها أيضًا حس جمالى عال ـ على الرغم من أننى حاليًا لست على يقين من هذا كما كنت فى السابق . فأحيانًا يراودنى إحساس بأن سبب هذا هو الألفة لا أكثر . أنها تحب أن تحفظ هذه الأشياء على الصورة التى كانت دائمًا عليها، ولكنها لا تفعل هذا للدافع الصحيح ـ إنها لا تحافظ على تناسق هذه القطع بدافع من حسها الجمالى، وإنما لأن أمها تعودت أن تضع هذه التحف على هذا النسق".

ثم تحول باهتمامه إلى وتغيرت نبرة صوته . من نبرة صوت فنان حالم إلى نبرة صوت أب ناصح:"إنكما لم تتعرفا على أحد من أفراد العائلة، أليس كذلك؟ نعم، بالقطع تعرفتما عليهم من خلال السماسرة . ولكن يا أعزائى لابد أن تتعرفا على أفراد العائلة! عندما حضرت إلى هذا المكان لأول مرة كانت الأم الكبيرة لا تزال على قيد الحياة . لقد كانت إنسانة فوق العادة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ! لقد كانت وحشًا إذا كنتما تدركان ما أقول، وحش بكل تأكيد . كانت تشبه وحشًا كلاسيكيًا من العصر

الفيكتورى وهى تلتهم صغارها . نعم هذا هو ما أقصده . لقد كانت إنسانة عتيقة الطراز ـ لقد كان لها ثقل ومكانة، وكانت بناتها الخمس جميعاً يدرن فى فلكها . كانت دائماً تشير إليهن بكلمة"البنات "! فى حين أن كبراهن كانت قد جاوزت الستين من عمرها فى ذلك الحين . وأحياناً كانت تناديهن"بالبنات الحمقاوات"كنّ كالإماء، وكنّ دائماً يطعنها، ويحضرن لها ما تريد ويحملن لها ما تشاء . وكان عليهن أن يخلدن إلى النوم مع دقات الساعة العاشرة مساءً، ولم يكن يسمح لهن بأن يوقدن ناراً فى مخادعهن، ولم تكن إحداهن تجرؤ على أن تدعو صديقة لها للمنزل . تعلمون أنها قد حرمتهن من الزواج، وقامت بتخطيط حياتهن بشكل لا يتمكنّ به عملياً من مقابلة أى إنسان . أعتقد أن إيميلى، قد دخلت فى علاقة قصيرة الأجل مع أحد رعاة الأبرشية . ولكن عائلته لم تكن عريقة بما فيه الكفاية، وسرعان ما وضعت الأم حداً لهذه العلاقة .

قالت جوانا:"إن هذا يبدو ككلام الروايات".

قال السيد باى:"نعم عزيزتى، هذا صحيح . ثم حدث أن ماتت تلك السيدة الفظيعة المسنة، ولكن بالطبع بعد أن فات الأوان كثيراً . لقد ظلت البنات يعشن فى ذات المكان، ويتكلمن بأصوات هامسة عما كانت ستتمناه الأم المسكينة . حتى أنهن لم يجرؤن على تغيير ورق الحائط فى غرفة نومهن . إلا أنهن مع هذا استطعن أن ينلن بعض التسلية فى الأبرشية بوسيلة أو بأخرى ... إلا أنه سرعان ما توفيت إحداهن تلو الأخرى لأنهن لم يستطعن مواصلة الحياة من دون أمهن . فماتت إيديث بمرض الأنفلونزا، وماتت مينى من جراء عملية جراحية لم تتعاف منها، أما مايبل المسكينة فأصيبت بسكتة دماغية ـ وتولت إيميلى رعايتها بكل إخلاص وتفان . وبالفعل لم تفعل تلك المرأة المسكينة شيئاً فى العشر سنوات الماضية إلا رعاية أختها . يا لها من إنسانة رائعة، ألا توافقاننى . إنها تشبه تحفة ثمينة . إنه لشىء مؤسف أن تعانى من هذه الأزمات المالية . إلا أنه من المعروف أن جميع الاستثمارات قد عانت هذا الكساد قالت جوانا:"إننا نشعر بالضيق لأننا سوف نسكن فى منزلها".

قال السيد باى وهو ينحنى بعض الشىء:"كلا، كلا يا عزيزتى . ليس عليك أن تفكرى بهذه الطريقة . لقد أخبرتنى صديقتها العزيزة فلورنسا ـ والتى تقوم على خدمتها ـ بأنها فى غاية السعادة لأنها حظيت بمستأجرين على هذا القدر من اللطف مثلكما، لقد رأت هذا من يمن طالعها".

قلت:"إن ذلك المنزل يتمتع بجو باعث على الاسترخاء". وعندئذ نظر لى باى نظرة خاطفة وقال:"حقاً؟ هل تشعر بذلك حقاً . إن هذا شىء مشوق لقد كنت أتعجب كما تعلمان، نعم لقد كنت أتعجب".

سألت جوانا:"ماذا تعنى يا سيد باى؟".

قال السيد باى وهو يفرق كفيه المكتنزتين:"لا شىء، لا شىء . إن الإنسان ليعجب أحياناً، هذا هو كل ما فى الأمر . إننى أومن بفكرة الجو المحيط هذه . إننى أومن بأن

أفكار الناس وأحاسيسهم تنطبع على الجدران والأثاث".

ولم أنبس بعدها بكلمة لدقيقة أو دقيقتين . كنت أنظر فى المكان من حولى وأتساءل كيف يمكننى أن أصف جو منزل برايولودج . لقد كان أكثر ما لفت انتباهى أنه منزل ليس به أثر لأى روح! لقد كان شيئًا عجيبًا بالفعل .

لقد استولت علىّ هذه الفكرة تمامًا لدرجة أننى لم أسمع حرفًا من المحادثة الدائرة بين جوانا ومضيفها . إلا أننى انتبهت لنفسى عندما سمعت جوانا تقول بعض العبارات التى تدل على مغادرتنا، فاستيقظت من أحلام اليقظة وأدليت بدلوى فى هذه العبارات .

وخرجنا جميعًا إلى الردهة . وعندما وصلنا إلى باب المنزل، وجدنا أن هناك خطابًا كان قد وصل عبر البريد، وكان ساقطًا على ممسحة الأقدام أمام الباب .

غمغم السيد باى وهو يلتقط الخطاب:"بريد بعد الظهيرة . والآن يا أعزائى، إنكما سوف تكررا الزيارة، أليس كذلك؟ لقد حظيت بسعادة بالغة لصحبة شخصين مثلكما ذوى عقول متفتحة، عقول تقدر الفن بالفعل، فأنتما تعلمان أن كل هؤلاء الناس الذين يعيشون فى هذه المنطقة لا يمتلكون أى حس فنى على الإطلاق، فمثلاً إذا ما ذكرت أمامهم كلمة باليه فكل ما تعنيه هذه الكلمة لديهم هو مجرد الرقص على أصابع القدم، والتنورات الحريرية والسادة المهذبين ذوى عوينات الأوبرا الزجاجية الذين تبلغ أعمارهم تسعين عامًا . هذا بالفعل هو كل ما تعنيه هذه الكلمة لهم . إننى أراهم أناسًا يتخلفون عن وقتنا هذا بنصف قرن على الأقل . إن انجلترا لبلد بديع، وبه كما تعلمان مناطق معزولة . وبلدة لايمستوك هى واحدة من تلك المناطق المعزولة . إننى من خلال خبرتى كجامع للتحف أراها بلدة مثيرة للاهتمام ـ فعندما أكون هنا أشعر كما لو أننى فى داخل واجهة زجاجية ينظر الناس من خلالها . إننى أشعر كما لو أننى أعيش فى مياه راكدة، حيث لا شىء يكسر نمط الحياة الرتيب".

وبعد أن صافحنا السيد باى مرتين، ساعدنى بعناية مبالغ فيها على الصعود إلى العربة . واتخذت جوانا مكانها خلف عجلة القيادة، ودارت بحرص حول مساحة من الأرض مغطاة بعشب مشذب، ثم مضت فى خط مستقيم، ورفعت يدها ملوحة لمضيفنا الذى وقف على درجات مدخل البيت . وملت بجسدى للأمام مودعًا أياه بدورى أيضًا .

إلا أنه لم يلاحظ إشاراتنا المودعة تلك . فقد كان مستغرقًا فى قراءة الخطاب الذى وصله .

كانت جوانا قد وصفته ذات مرة بأنه ملاك مكتنز وردى اللون . لقد كان فى هذه اللحظة لايزال مكتنزًا، ولكنه كان يبدو أبعد ما يكون عن شكل الملاك . فلقد انقلب وجهه الملائكى إلى وجه تكسوه الحمرة من فرط الغضب وشدة الصدمة .

وفى تلك اللحظة . لاحظت أن مظهر هذا الخطاب يبدو مألوفًا . لم أكن قد لاحظت هذا سابقًا ـ لقد كان هذا من الأشياء التى تشعر بأنها مألوفة حينما تقع عليها عيناك

دون أن تدرك أنك قد رأيتها بالفعل من قبل ولكن أين ومتى لا تعلم .

قالت جوانا:"يا إلهى، ما الذى أزعج هذا المسكين؟".

قلت:"إننى أتعجب أنا أيضاً، ترى هل هى الأيدى الخفية مرة أخرى؟ .

نظرت لى بدهشة ؛ فانحرفت السيارة عن مسارها .

قلت لها:"احترسى يا فتاة".

عادت جوانا تنتبه للطريق . وقالت لى بوجه متجهم:"أتعنى أن ذلك الخطاب مثل الخطاب الذى تلقيته أنت".

قلت لها:"هذا ما أظن".

تساءلت جوانا:"ما هذا المكان؟ إنه يبدو كأكثر مكان هادئ فى إنجلترا كلها".

قاطعتها قائلاً وكما قال السيد باى، لا شىء يكسر نمط الحياة الرتيب، لقد اختار الوقت الأسوأ لهذا القول فهناك شىء قد كسر نمط الحياة الرتيب .

قالت جوانا:"ولكن من الذى يكتب مثل هذه الخطابات يا جيرى؟ ".

هززت كتفىّ قائلاً:

"وكيف لى أن أعرف يا عزيزتى؟ لابد أنه أحد القرويين ذوى العقول غير الناضجة".

قالت:"ولكن لماذا؟ إن هذا لتصرف فى غاية الحمق".

قلت لها:"إذا قرأت لفرويد أو لـ يونج فستجدين إجابة عن سؤالك، أو يمكنك أن تسألى د . أوين". هزت جوانا رأسها قائلة:"إننى لا أروق له".

قلت لها:"ولكنه لم يرك إلا قليلاً".

قالت:"لكن من الواضح أنه رآنى بدرجة تكفى لأن يغير طريقه إذا تصادف ورآنى قادمة من نفس الطريق".

قلت لها بتعاطف:"إنه رد فعل غير اعتيادى، ولا يبدو أنك معتادة عليه".

عبست جوانا مرة أخرى وقالت:"كلا، ولكن حقاً لماذا يكتب الناس رسائل مجهولة كهذه؟".

قلت لها:"كما قلت لك، لأن عقولهم غير ناضجة . أعتقد أن هذا يعوض نقصاً فى نفوسهم . فمثلاً إذا كنت مهملة أو منبوذة أو محبطة، وتشعرين بالسأم والخواء، فسوف تحسين ببعض القوة عندما تطعنين الآخرين فى الظلام، هؤلاء الآخرون الذين يحيون فى سعادة ورفاهية".

ارتجفت جوانا قائلة:"إن هذا ليس جميلاً على الإطلاق، هكذا يكون علىّ أن أتخيل أناس هذه البلدة كأناس بدائيين يقومون بتصرفات شاذة، أعتقد أن من قام بهذا شخص أمى، أعتقد أنه لو كان متعلماً لـ ...".

توقفت جوانا ولم تكمل جملتها، ولم أعلق أنا بكلمة . فلم أكن قادرًا أبدًا على أن أتقبل الاعتقاد القائل بأن التعليم هو دواء كل داء .

وبينما كانت السيارة تنطلق عبر الطريق المرتفع، وقبل أن نمضى صاعدين ذاك الطريق الرئيسى، أخذت أختلس النظر بفضول إلى معالم الطريق السريع . ورأيت إحدى النساء الريفيات ذوات الأجساد الممشوقة القوام وكانت عيناها تحملان الكثير من الحقد والخبث، وربما كانت تخطط للمزيد من التصرفات الحاقدة .

ولكننى مع هذا لم أستطع أن آخذ هذا على محمل الجد .

2

بعد انقضاء يومين، ذهبنا إلى إحدى الحفلات التى كان يقيمها آل سيمنجتون .

لقد كان هذا فى عصر يوم سبت ـ فآل سيمنجتون دائمًا ما يقيمون حفلاتهم فى أيام السبت، لأنهم فى هذا اليوم يغلقون مكاتبهم .

لقد كانت هناك طاولتان للعب الورق . وكان اللاعبون هم آل سيمنجتون، ونحن، والآنسة جريفيث، والسيد باى والآنسة بارتون، والكولونيل أبلتون والذى لم نكن قد التقيناه من قبل، والذى كان يعيش فى بلدة كومبياكر وهى بلدة تبعد عن بلدتنا حوالى سبعة أميال . لقد كان نموذجًا للشخص الساذج شديد المحافظة فى نظرته إلى شئون البلاد العامة، وكان فى الستينيات من عمره، وكان يحب أن يلعب بأسلوب يسمى بـ"اللعب الهجومى"(والذى كان دائمًا ما ينتهى بإحراز خصمه لمكاسب كبيرة على حسابه) ولقد كان معجبًا للغاية بـ"جوانا "، لدرجة أنه لم يرفع عينيه عنها طوال الأمسية .

ولهذا السبب كنت مضطرًا لأن أوافقه على أن أختى هى أكثر شىء جذاب شوهد فى لايمستوك منذ زمن بعيد .

وعندما وصلنا إلى الحفل كانت إليسى هولاند مربية الأطفال تحاول تجميع أوراق اللعب وإحراز المزيد من النقاط، وكانت تقوم باللعب على منضدة مزينة بأسلوب جذاب . كانت تختال فى رشاقة وخفة، بنفس الطريقة البديعة الخلابة التى رأيتها تسير بها لأول مرة . ولكن لم أشعر بنفس تأثير سحرها، كما شعرت به من قبل ـ وهذا ما يبعث

على الحنق والغيظ ـ لقد كانت آية فى الرشاقة والجمال، ولكننى لاحظت لها أسنانًا بيضاء عريضة بشكل غير طبيعى، وكانت عندما تضحك وتظهر لثتها تبدو كإحدى الفتيات الثرثارات .

وسمعتها تقول:"هل هذه هى أوراق اللعب الصحيحة يا سيدة سيمنجتون؟ إننى دائمًا أكون على قدر من الحماقة بحيث لا أذكر أبدًا أين وضعتها . إنه خطئى . لقد كانت فى يدى آخر مرة عندما نادى علىّ برايان قائلاً أن محرك سيارته قد أصابه عطب ؛ فهرعت إليه وانشغلت معه، ولابد أننى ألقيت بها فى أى مكان بحماقة . وهذه الأوراق ليست هى الأوراق الصحيحة، لقد أدركت هذا الآن، إنها تميل إلى الإصفرار بعض الشىء عند حوافها، هل علىّ أن أخبر آجنس بأن ميعاد تناول الشاى فى الساعة الخامسة؟ سوف اصطحب الأطفال إلى لونج بارو حتى لا يسببوا الضوضاء".

يا لها من فتاة لطيفة وحنونة وذات شخصية براقة . والتقت عيناى بعينى جوانا . لقد كانت تضحك . نظرت إليها ببرود ؛ فقد كانت جوانا على الدوام تستطيع أن تعرف ما يجول بذهنى، عليها اللعنة .

ثم جلسنا أمام طاولة اللعب .

وبدأت أتعرف على قدرات أهل لايمستوك فى لعب الورق . فالسيدة سيمنجتون كانت على قدر كبير من البراعة فى اللعب، وكانت توجه كامل اهتمامها للعبة . وكانت كباقى النساء غير المتعلمات لا تنقصها الفطنة والفراسة، وكانت حادة الطباع بعض الشىء . وكان زوجها كذلك لاعبًا ماهرًا إلا أنه كان مبالغًا فى حذره . أما السيد باى فقد كان مبهرًا فى طريقة لعبه . لقد كان تأثيره النفسى على الحاضرين طاغيًا . ولما كان هذا الحفل على شرفنا ؛ فقد لعبنا على ذات الطاولة مع السيدة سيمنجتون والسيد باى . لقد كان السيد سيمنجتون يضطلع بمهمة تهدئة المنافسة إذا ما حمى وطيسها بين اللاعبين، وأن يصفى أى خلافات قد تنشب بينهم وهم على الطاولة . وكما ذكرت سابقًا كان الكولونيل أبلتون مولعًا بالأسلوب الهجومى فى اللعب . ولقد كانت الآنسة بارتون بكل تأكيد أسوأ لاعبة رأيتها فى حياتى، إلا أنها كانت تستمتع باللعب كثيرًا . ولقد استطاعت أن تحفظ دروسًا فى اللعب، إلا أنها لم تستطع أن تفهم كيفية إحراز النقاط فى هذه اللعبة، وكانت دائمًا ما تختلط عليها الأوراق فلم تلق بورقة صحيحة واحدة طوال مدة اللعبة . أما عن أسلوب لعب إيمى جريفيث فيمكن تلخيصه فى كلماتها التى قالتها عن نفسها وهى:"إننى أفضل لعب"الورق"عندما لا يتخلل اللعبة الكثير من الهراء ؛ فأنا لا أحب تلك الطرق المخادعة بتمرير المعلومات خلسة إلى شركاء اللعب . وإننى أعنى ما أقول وكذلك لا أحب أن ننخرط فى نقد وتحليل اللعبة عقب انتهائها، ففى نهاية الأمر ما هى إلا مجرد لعبة!"وهو الأمر الذى لم يجعل من مهمة السيد سيمنجتون مهمة يسيرة .

وهكذا بدأ اللعب، وقد نسى الكولونيل أبلتون عدة مرات أن يلعب فى دوره لأنه كان

يواصل التحديق إلى جوانا .

ثم تم تقديم الشاى، وقد وضع على طاولة ضخمة مستديرة . وبعد أن انتهينا من اللعب، دلف إلى الغرفة طفلان صغيران وقامت السيدة سيمنجتون بتقديمهما إلينا وهى فى غاية الفخر، وكذلك كان والدهما .

وبينما نحن نستعد للرحيل، لاح لى ظل أثار انتباهى فنظرت وإذا بميجان واقفة عند الشرفة .

قالت الأم:"آوه، ميجان".

كانت نبرة صوتها تحمل قدراً من المفاجأة وكأنها كانت قد نسيت وجود ميجان .

ودلفت الفتاة إلى المنزل، وصافحتنا بأسلوب خال من أى لياقة .

قالت السيدة سيمنجتون بصوت يحمل بنبرة اعتذار:"أخشى أننى نسيت أن أعد لك الشاى يا عزيزتى، فقد أخذت الآنسة هولاند قدح الشاى الخاص بها معها وكذلك فعل الأولاد، ولم يتبق شىء من شاى الأطفال اليوم، لقد نسيت تماماً أنك لم تذهبى معهم ".

أومأت ميجان برأسها قائلة:"لا بأس، سوف أذهب إلى المطبخ".

ثم خرجت من الغرفة وهى تمشى الهوينى . وكانت كعادتها مهلهلة الملابس . وترتدى الجوارب المثقوبة عند الكعبين .

قالت السيدة سيمنجتون وهى تضحك بأسلوب ينم عن بعض الاعتذار:"يا لميجان المسكينة، إنها الآن تمر بتلك السن الحرجة كما تعلمون، تلك السن التى تكون الفتيات فيها خجولات ومرتبكات لأنهن قد تركن المدرسة قبل أن يتم نضجهن ويصبحن سيدات بحق".

نظرت إلى جوانا، فوجدتها تميل برأسها إلى الوراء وهى بادرة عنف أعرفها جيداً، وقالت:"ولكن ميجان فى العشرين من عمرها، أليس كذلك؟".

"بلى بالفعل، إلا أنها متأخرة ذهنياً عن عمرها الفعلى ؛ فهى لا تزال طفلة . إنه لشىء لطيف ألا يكبر أطفالنا بسرعة "، ثم ضحكت مرة أخرى وقالت:"أراهن على أن كل الأمهات يحببن أن يظل أطفالهن رضعاً".

قالت جوانا:"لا أستطيع أن أدرك السبب فى هذا فلا بد أنه أمر مخزٍ أن يكون العمر العقلى للإنسان لا يتجاوز السادسة، بينما جسده جسد شخص فى العشرين من عمره".

قالت السيدة سيمنجتون:"هذه الأمور لا تؤخذ على علاتها يا آنسة بيرتون .

أحسست فى تلك اللحظة أننى لا أميل كثيراً للسيدة سيمنجتون . لقد أحسست أن خلف هيئتها النحيفة ذات الجمال الباهت تلك طبيعة أنانية مسيطرة . ثم بدأت تتكلم

كلاماً زاد من كراهيتى لها:"يا لميجان المسكينة، إنها لطفلة صعبة المراس، لقد كنت أبحث لها عن أمر تنشغل به ـ أعتقد أن هناك أشياء كثيرة يمكن للمرء أن يتعلمها من خلال المراسلة . كتصميم وتفصيل الثياب ـ أو يمكنها أن تتعلم الكتابة الاختزالية".

وكان لايزال تطل من عينى جوانا نظرة حنق . وقالت عندما جلستا ثانية قبالة طاولة اللعب:"أعتقد أنها تستطيع أن تحضر بعض الحفلات وما شابه ذلك . ألا تفكرين فى إقامة حفلة راقصة على شرفها؟".

قالت السيدة سيمنجتون بمنتهى الدهشة:"حفلة راقصة؟ كلا بالطبع، إننا لم نعتد القيام بهذه الأمور هنا".

"فهمت، إنكم لا تقيمون إلا حفلات التنس وما شابه ذلك".

"إن ملعب التنس الخاص بنا ـ لم يمارس عليه أحد اللعب منذ سنين . وإننى لا أمارس التنس ولا ريتشارد أيضاً . ولكن ربما عندما يشب الولدان ـ سوف تجد ميجان الكثير من الأمور لكى تفعلها . إنها الآن تجد سعادتها فى التجول فى الأنحاء القريبة . ترى هل نسيت أن أوزع الورق؟".

بينما كنا فى طريق عودتنا بسيارتنا، قالت جوانا وهى تضغط على دواسة البنزين بقوة جعلت السيارة تندفع بسرعة".

"إننى أرثى لحال هذه الفتاة بشدة".

"أتعنين ميجان؟".

نعم، إن أمها لا تحبها".

"لا يا جوانا، الأمر ليس بهذا السوء".

"بل هو بهذا السوء، هناك الكثير من الأمهات لا يحببن أطفالهن . إننى أستطيع أن أتخيل هذا الأمر: فميجان هى مصدر للإحراج فى هذه العائلة . إنها تفسد الصورة المثالية لعائلة سيمنجتون، فبدونها تبدو هذه العائلة كياناً متكاملاً لا يعيبه شىء ـ وهذا الأمر يسبب لهذه المخلوقة الحساسة ضرراً نفسياً لا يفوقه ضرر".

قلت لها:

"نعم، إننى أراها إنسانة حساسة للغاية".

ران علينا الصمت للحظة .

"إن الحظ لم يحالفك مع مربية الأطفال تلك".

قلت لها بكبرياء:"لا أدرى ماذا تعنين".

"كفاك من هذا الهراء، إنك تعلم جيداً ما أعنى، لقد كسا وجهك حنق ذو طابع

ذكورى عندما كنت تنظر إليها، إننى أوافقك أنها خسارة".

"لا أعرف عمّ تتحدثين".

"إلا أننى مع هذا سعيدة . إنها إشارة جيدة على أنك عدت للحياة من جديد . لقد كنت فى غاية القلق عليك عندما كنت فى المصحة ؛ فهناك لم تكن حتى تلقى بالاً لتلك الممرضة الحسناء التى كانت تقوم على رعايتك، رغم أنها كانت آية فى الحسن".

"إننى أجد فى كلامك ابتذالاً يا جوانا".

إلا أنها واصلت حديثها كأنها لم تسمعنى وقالت:"ولهذا شعرت براحة كبيرة عندما رأيتك تبدى اهتماماً بفتاة حسناء . إنها بالفعل حسناء ولكن الغريب أنها ليست جذابة . هناك شىء لا أعرفه يجعل بعض النساء جذابات والبعض لا . ما الذى يجعل الرجال يفتنون ببعض النساء حتى وإن لم يقلن إلا كلاماً عادياً على شاكلة:"يا لهذا الطقس السيئ". وهناك نساء يملكن وجوهاً آية فى الحسن والجمال"أفروديت"ولكنهن غير جذابات على الإطلاق . وتجد أن النساء الأقل جمالاً يملكن هذا السحر وهو الأمر الذى يقود النساء الآخريات إلى الجنون ويقلن: لا أعرف ماذا يرى الرجال فى تلك المرأة، إنها غير جميلة على الإطلاق!".

"هل انتهيت يا جوانا؟".

"ألا توافقنى الرأى؟ "

ابتسمت قليلاً وقلت:

"أعترف أننى أصبت بشىء من خيبة الأمل".

"وإنى لا أرى لك بديلاً غيرها وقد تضطر إلى أن تحول اهتمامك إلى إيمى جريفيث!".

لا سمح الله .

"إنها فتاة حسناء كما تعلم".

"إنها تبدو لى كواحدة من مقاتلات الأمازون".

قالت جوانا:"يبدو لى أنها تستمتع بحياتها جيداً . وهى طيبة القلب أيضاً . إننى لن أندهش لو علمت أنها تستحم بماء بارد كل صباح".

سألتها:"وماذا أنت فاعلة فى نفسك".

فى نفسى؟".

"نعم إنك تحتاجين لأن تشغلى نفسك بأمر ما، فأنا أعرفك جيداً".

تنهدت جوانا بعمق وقالت:

"من الذى يتحدث بابتذال الآن؟ وغير هذا أنك نسيت بول".

"إننى لن أنساه بأسرع مما تنسيه أنت، إنك خلال عشرة أيام سوف تقولين: بول؟ بول من؟ إننى لا أعرف أحداً يدعى بول".

قالت جوانا:"إنك تظننى امرأة متقلبة المزاج".

"عندما يتعلق الأمر بأناس مثل بول فإننى أكون سعيداً لتقلب مزاجك هذا".

"إنك لم تحبه يوماً، إلا أنه كان على درجة شديدة من العبقرية".

"ربما، مع أننى أشك فى هذا . على أى حال لقد سمعت أن العباقرة هم أناس لا يطاقون . والجيد فى الأمر أنك لن تستيطعى أن تجدى عبقرياً هنا".

فكرت جوانا لبعض الوقت وهى تحنى رأسها ثم قالت بنبرة نادمة:"أخشى أن يكون هذا صحيحاً".

قلت لها:"على أى حال ليس لديك إلا أوين جريفيث . إنه هو الأعزب الوحيد فى هذه البلدة . إلا إذا كنت تفكرين فى الكولونيل أبلتون ؛ فلقد كان ينظر إليك كالكلب الجائع طوال جلستنا".

ضحكت جوانا قائلة:"نعم لقد كان يحدق إلىّ بشدة أليس كذلك؟ لقد كان هذا الأمر محرجاً للغاية ".

"كفِّى عن التظاهر، إنك لم تشعرى بالإحراج للحظة".

مضت جوانا فى القيادة وتجاوزت البوابة إلى المرآب .

ثم قالت:

"ربما تكون محقاً إلى حد ما فى فكرتك تلك".

"أية فكرة؟".

"لا أفهم لماذا يقدم رجل ما على أن يغير من طريقه لكى يتجنبنى، إن هذا لتصرف وقح ـ بصرف النظر عن أى شىء".

قلت لها:"فهمت، إنك تنوين اصطياد الرجل بدم بارد".

"إننى لا أحب أن يتجنبنى أحد".

خرجت من السيارة بحذر، وتوكأت على عكازى ثم قدمت لأختى نصيحة ..

"دعينى أقول لك هذا يا فتاة . أوين جريفيث ليس كأى من رفاقك الخاملين ذوى

الطبيعة المحبة للفن . وإذا لم تأخذى حذرك فسوف تفتحين عش الدبابير . إنه لرجل خطير ".

قالت جوانا وبدا أنها تستمتع بهذا الأمر:"هل تعتقد هذا؟".

قلت لها بإصرار:"هلا تركت ذاك الرجل لحاله".

"كيف يجرؤ على تغيير طريقه ليتجنبنى؟".

"إن النساء لهن ذات الطبع . كلكن تعزفن على نفس النغمة . وإذا لم أكن مخطئًا فسوف تجدين أخته إيمى تشتكى منك".

قالت جوانا:"إنها من البداية تكرهنى". كانت تتحدث وهى فى حالة من التأمل ولكن بشىء من الرضا .

قلت لها مصرًا:"إننا قد جئنا إلى هذا المكان طلبًا للهدوء وراحة البال، وإننى حريص على أن أجدهما".

إلا أن الهدوء وراحة البال كانا أبعد ما يكونان عنا .

الفصل الرابع

1

كان قد مضى أسبوع كما أذكر عندما أبلغتنى بارتريدج أن السيدة بيكر ترغب فى التحدث إلى قليلاً .

لم يبد لى اسم السيدة بيكر مألوفًا على الإطلاق

تساءلت فى تحير:"من السيدة بيكر، ألا يمكنها أن تتحدث مع الآنسة جوانا؟

ولكن علمت أنها لا تريد إلا أن تتحدث معى أنا بالذات، ثم علمت فيما بعد أن السيدة بيكر هى والدة الفتاة بياترس .

كانت بياتريس قد غابت عن ذهنى تمامًا، ولم أنتبه لهذا إلا عندما رأيت تلك المرأة التى تجاوزت الأربعين عامًا، ونال الشيب من بعض خصلات شعرها، والتى كانت جاثية على ركبتيها تغسل أرضية الحمام والسلالم والردهات . ولقد أدركت أنها الخادمة الجديدة . ولولا تلك المرأة لما خطرت بياترس بذهنى أبدًا .

ولم أستطع أن أرفض مقابلة والدة بياترس، خاصة بعد أن علمت بأن جوانا ليست موجودة بالمنزل،ولكننى أعترف بأننى كنت أشعر ببعض الضيق حيال هذا الأمر . ولقد كنت آمل بشدة ألا أتهم بالتلاعب بعواطف بياترس . وأخذت ألعن فى داخلى تلك التصرفات السخيفة التى يقوم بها كاتب هذه الرسائل المجهولة، ولكننى لم أفعل شيئًا إلا أن أطلب من بارتريدج أن تحضر والدة بياترس لمقابلتى .

وكانت السيدة بيكر امرأة ضخمة الجثة طويلة القامة، وكانت تتحدث بسرعة شديدة . ولكننى شعرت بكثير من الراحة عندما لم ألمح فى صوتها أى نبرة غضب أو اتهام .

بدأت السيدة بيكر الحديث ما أن انغلق باب الغرفة خلف بارتريدج قائلة:"أرجو يا سيدى أن تغفر لى جرأتى فى طلب مقابلتك . ولكننى ظننت يا سيدى أنك الشخص المناسب الذى ينبغى أن آتى إليه، ولسوف أكون شاكرة إذا ما كنت ستنصحنى بما ينبغى عمله فى ظل هذه الظروف الراهنة، لأنه فى رأيى يا سيدى لابد من القيام بشىء ما فى هذا الصدد، وإننى لست من هؤلاء الناس الذين يتركون الأمور تتفاقم، وما أقوله

هنا هو أنه لا فائدة من الشكوى والتذمر، وإنما لابد من ترك الكلام والبدء فى الفعل كما قال رجل الدين الأسبوع قبل الماضى".

شعرت ببعض الحيرة لأننى أحسست كأن هناك شيئًا أساسيًا فاتنى أن أفهمه فى هذه المحادثة .

قلت لها:"بكل سرور، ألن تتفضلى بالجلوس يا سيدة بيكر؟ إننى سوف أسعد بتقديم العون لك".

ثم صمت للحظة منتظرًا منها أن تجلس .

وجلست السيدة بيكر على حافة مقعدها بعد أن قالت:"أشكرك يا سيدى، إن هذا تصرف غاية فى الكرم من جانبك يا سيدى . وإننى فى غاية السعادة لأننى أتيت لمقابلتك ولقد قلت هذا لـ بياترس عندما كانت تبكى فى فراشها، لقد قلت لها إن السيد بيرتون سوف يعرف ما ينبغى عمله ؛ فهو سيد مهذب قادم من لندن . ولابد بالفعل من عمل شىء ما، ما بال هؤلاء الشباب المندفعين الذين لا يصغون إلى صوت العقل، ولا يصغون إلى أى كلمة تقولها الفتاة؟ وعلى أية حال لقد قلت لـ بياترس إننى لو كنت مكانها لفعلت كل ما فى وسعى لكى أنتقم منه، وماذا عن تلك الفتاة فى الطاحونة؟"وازدادت حيرتى مع كلامها .

قلت لها:"معذرة، ولكننى لا أفهم، ماذا حدث؟".

"إنها الخطابات يا سيدى . خطابات بذيئة . وغير لائقة كذلك . وبها كلمات سيئة ومثيرة للاشمئزاز بشدة".

وهنا استرجعت شريط الأحداث فى ذهنى وتكشفت لى الأمور ؛ فقلت لها بيأس:"هل تلقت ابنتك المزيد من الرسائل؟".

"ليست هى يا سيدى، هى لم تتلق إلا رسالة واحدة . تلك الرسالة التى كانت سببًا فى رحيلها من هذا المنزل".

قلت لها:"لم يكن هناك ما يدعو لأن ـــ! "، إلا أن السيدة بيكر قاطعتنى بأسلوب حازم ولكنه مهذب وقالت:

"لا داعى لأن تكمل يا سيدى، إن كل ما جاء فى هذه الخطابات لا يعدو كونه بعض الأكاذيب الدنيئة إنك يا سيدى لست من هذا النوع من الرجال، لقد أكدت لى الآنسة بارتريدج هذا ـ ولقد لمست هذا بنفسى . ما هى إلا أكاذيب حقيرة، ولكنى قلت إنه من الأفضل أن تغادر بياتريس المنزل لأنك تعرف جيدًا ما يُقال يا سيدى، إن الناس سيقولون لا دخان بلا نار، ولقد انزعجت الفتاة بشدة، لقد وافقت بياترس عندما رفضت المجىء إلى هنا ثانية، رغم أن كلينا قد شعر بالأسف للارتباك الذى سببناه لكم بهذا".

توقفت السيدة بيكر قليلاً وأخذت نفسًا عميقًا ثم قالت بعد جهد: ولقد كنت آمل أن

يوقف هذا التصرف هذه الشائعات الحقيرة . ولكنّ جورج عامل المرآب، وهو خطيب بياترس، قد تلقى واحدة من هذه الرسائل التى تفترى على ابنتى بياترس افتراء فظيعاً، وكيف أنها على علاقة آثمة مع توم ابن فريد ليد بيترز ... وأؤكد لك يا سيدى أن ابنتى لم تقترف أبداً شيئاً ينافى الذوق والأخلاق".

وهنا بدأ رأسى يطن، فلقد زاد الأمر تعقيداً بظهور قصة توم ليد بيترز هذا .

قلت لها امنحينى فرصة لكى أستوعب هذا الأمر جيداً، لقد تلقى خطيب بياترس رسالة مجهولة المصدر تتهم بياترس بتورطها فى علاقة مع شاب آخر، أليس كذلك؟

"هذا صحيح يا سيدى ـ ولقد كانت رسالة بعيدة كل البعد عن التهذيب، ولقد كانت مليئة بألفاظ بذيئة أثارت جنون جورج، فجاء مسرعاً إلى بياترس وقال لها إنه لا يقبل أبداً هذا التصرف من جانبها، ويرفض بأن تواعد رجالاً آخرين من وراء ظهره ... وعندما أخبرته أن هذا كذب حقير، قال لها:"لا دخان بلا نار "، واندفع خارجاً من المنزل فى غاية الغضب، وبدت التعاسة على بياترس المسكينة . وعندها قلت لها إننى سوف أرتدى قبعتى وأذهب لمقابلتك يا سيدى ...".

صمتت السيدة بيكر متوقعة منى أن أرد عليها تماماً كما يتوقع الكلب الحصول على جائزة بعد أن يؤدى حركة جيدة . ولكننى سألتها:"ولكن لماذا أتيت لى أنا بالذات؟".

"لقد علمت يا سيدى أنك أيضاً تلقيت واحدة من تلك الرسائل الدنيئة، ولقد فكرت فى أنك تعرف ـ وأنت القادم من لندن ـ ما الذى يتوجب فعله لعلاج هذا الأمر".

قلت لها:"لو كنت مكانك لذهبت إلى الشرطة ؛ فلابد من وضع حد لهذا الأمر".

نظرت لى السيدة بيكر وعلى وجهها أمارات الصدمة وقالت:"كلا يا سيدى، لا أستطيع أن أذهب للشرطة".

"ولم لا؟".

"لم يسبق لى أن تعاملت مع الشرطة، ولا أى أحد من عائلتى كذلك".

"قد يكون هذا صحيحاً، ولكن الشرطة فقط هى من تستطيع أن تضع حداً لهذا الأمر، فهم موكلون بهذا".

"هل أذهب إلى بيرت راندل؟".

كنت قد علمت أن بيرت راندل هو أحد رجال الشرطة .

"لابد أن هناك رقيباً أو مفتشاً فى قسم الشرطة".

"أنا أذهب إلى قسم الشرطة".

قالتها السيدة بيكر بصوت خافت جعلنى أشعر بالضيق"هذه هى النصيحة الوحيدة

التى يمكننى أن أسديها لك".

صمتت السيدة بيكر وكان واضحًا أنها لم تقتنع بكلامى . ثم قالت بحزم وصرامة:

"لابد لهذه الرسائل أن تتوقف يا سيدى، يجب أن تتوقف، وإلا سوف تحدث مصيبة آجلاً أو عاجلاً".

قلت لها:"أعتقد أن المصيبة قد وقعت بالفعل؟".

"إننى أعنى العنف يا سيدى، هؤلاء الشباب تنتابهم المشاعر العنيفة ـ وكذلك الرجال الكبار".

سألتها:

"هل هناك كثير من الرسائل من هذا النوع وصلت إلى الناس فى هذه البلدة؟".

أومأت السيدة بيكر برأسها بالإيجاب .

"إن الأمر يزداد سوءًا على سوء يا سيدى . فمثلاً، السيد بيدل وزوجته، اللذان كانا يعيشان فى سعادة وهناء فى منطقة بلوبور ـ والآن بعد أن تلقى السيد بيدل هذه الرسائل بدأ يفكر فى أمور سيئة يا سيدى".

ملت بجسدى للأمام وقلت لها:

"سيدة بيكر هل لديك أية فكرة عن هوية كاتب هذه الرسائل المجهولة؟".

ولدهشتى الشديدة أومأت برأسها بالإيجاب .

"كلنا لديه فكرة يا سيدى، كلنا يعرف بالضبط من يفعل هذا، من هو ذلك الآثم "

فكرت أنها تتردد فى ذكر اسم معين، ولكنها أجابت بصراحة:

"إنها السيدة كليت ـ هذا هو ما نحن جميعًا متأكدون منه ـ إنها كليت ولا شك ".

لقد سمعت الكثير من الأسماء الغريبة هذا الصباح .

ولقد اكتشفت أن السيدة كليت هى زوجة لكهل يعمل بستانيًا . وكانت تعيش فى كوخ على طريق الطاحونة . إلا أننى لم أجد أى إجابات مرضية عنها . وعندما سألتها لماذا تقدم السيدة كليت على فعل هذا أجابتنى قائلة:"لأن هذا هو من صفاتها الشخصية".

وفى النهاية تركتها تذهب بعد أن كررت لها نصيحتى بأن تذهب إلى الشرطة، والتى كنت متأكدًا من أنها لن تأخذ بها . ولقد تركتنى وأنا أشعر بأننى خذلتها بشكل ما .

وفكرت مليًا فيما قالته . فرغم غموض هذا الدليل الذى ساقته السيدة بيكر، أحسست

بقبول فكرة أنه إذا ما اتفقت البلدة كلها على أن السيدة كليت هى كاتبة هذه الخطابات فلابد أنهم محقون: وقررت أن أستشير جريفيث فى هذا الأمر . فلابد أنه يعرف هذه المرأة المدعوة كليت، وإذا قبل نصيحتى فسأستطيع أنا أو هو أن نخبر الشرطة بأن هذه المرأة هى سبب كل الإزعاج الشديد الذى نشعر به .

وذهبت إلى جريفيث فى الوقت الذى افترضت فيه أنه سيكون قد انتهى من عملياته الجراحية . وعندما خرج المريض الأخير من عنده، دلفت إلى غرفة الجراحة .

"مرحبًا، أهذا أنت يا بيرتون؟".

"نعم . أريد أن أتحدث إليك".

ولخصت له محادثتى مع السيدة بيكر إلى أن انتهيت إلى اتهامها للسيدة كليت بأنها السبب فى هذا الأمر .

إلا أننى أصبت بالإحباط عندما هز جريفيث رأسه قائلاً:

"ليس الأمر بهذه البساطة".

"ألا تظن أن تلك المرأة المدعوة كليت هى السبب فى هذا كله؟".

"ربما كانت بالفعل، ولكننى أستبعد هذا الاحتمال".

"إذن لماذا يتهمها الجميع بهذا؟".

ابتسم قائلاً:

"إنك لا تفهم . إن السيدة كليت تعتبر الساحرة الشريرة فى هذه المنطقة".

صحت متعجبًا:

"يا إلهى الرحيم!".

"نعم، هذا الكلام يبدو غريبًا فى وقتنا هذا، إلا أن هذا هو الواقع بالفعل . هناك اعتقادات راسخة تقول إن هناك بعض الأشخاص الذين ليس من الحكمة أن تهينهم . إن السيدة كليت تنتمى إلى أسرة من"النساء الحكيمات "، ولقد بذلت جهدًا كبيرًا كى تنشر هذه الأسطورة وتنميها . إنها امرأة شاذة الطباع وذات روح دعابة عالية . إنها قد لا تظهر أى قدر من التعاطف إذا ما حدث على سبيل المثال أن قطع طفل إصبعه أو سقط بشدة على الأرض أو أصيب بداء النكاف، فكل ما قد تفعله هو أن تهز رأسها قائلة:"هذا أفضل، فقد سرق تفاحاتى الأسبوع الماضى، أو"لقد جذب ذيل قطتى". ومع الوقت بدأت الأمهات فى إبعاد أطفالهن عنها، وبعضهن بدأن فى إهدائها العسل والكعك حتى يأمن ألا تتمنى المرض لأطفالهن . إنه لأمر خرافى وسخيف ولكنه حقيقى . ولهذا فمن الطبيعى أن يعتقد أنها سبب كل هذا".

"ولكن أليست هى كذلك؟".

"كلا ـ إنها ليست من هذا النوع ... ليس الأمر بهذه البساطة".

نظرت له بفضول وقلت له:"أليس لديك أية فكرة؟".

أخذ يهز رأسه ولكنّ عينيه كانتا شاردتين وقال:

"كلا ليس لدى أية فكرة . ولكن هذا الأمر لا يروقنى يا بيرتون ـــ هناك سوء كبير سوف ينجم عن هذا الأمر ".

2

عندما عدت إلى المنزل وجدت ميجان جالسة على درجات الشرفة، وكانت تسند ذقنها إلى ركبتيها .

حيتنى بدون حرارة كالمعتاد قائلة:

"مرحبًا، هل تعتقد أنه يمكننى أن آتى إلى مأدبة الغداء؟".

قلت لها:"بكل تأكيد".

"إذا كان الغداء هو أضلاع اللحم أو أى شىء معقد آخر ولن يكفى، فقط أخبرنى "، صاحت ميجان بهذا بينما كنت ذاهبًا لأخبر بارتريدج بأن ثلاثة أشخاص سيكونون على الغداء اليوم .

واندهشت عندما رأيت ردة فعل بارتريدج . لقد أبدت لى دون أن تنبس ببنت شفة أنها لا تبالى على الإطلاق بالآنسة ميجان .

وعدت إلى الشرفة مرة أخرى .

سألتنى ميجان بقلق:"هل كل شىء على ما يرام؟".

قلت لها:"نعم، كل شىء على ما يرام، سيكون غداؤنا اليخنة الأيرلندية".

"حسنًا إنها لا تختلف كثيراً عن غذاء الكلاب، أليس كذلك؟ أعنى أنها لا تزيد على البطاطس والدقيق".

قلت لها:"نعم بالضبط".

أخرجت علبة سجائرى، ومددت يدى بها إلى ميجان إلا أن الحمرة كست وجهها وقالت:

"لكم كان هذا لطيفًا منك".

"ألن تأخذى واحدة؟".

"كلا، لا أدخن، ولكننى أراه تصرفًا غاية فى اللطف أن تعرض على هذا ـ تمامًا كما لو أننى كنت شخصًا حقيقيًا".

قلت لها بتعجب:"ألست شخصًا حقيقيًا؟".

هزت رأسها وحاولت تغيير الموضوع بأن مدت ساقها الطويلة التى يغطيها التراب أمام ناظرى وقالت بفخر:"لقد قمت برتق جواربى".

أنا لا أعلم الكثير عن رتق الجوارب، إلا أننى حدثت نفسى أن حياكة بعض قطع الصوف المفتوحة ليس بإنجاز يستحق أن يفخر المرء به .

قالت ميجان:» ولكننى أشعر بأن جواربى كانت مريحة أكثر وهى مثقوبة".

قلت لها:"نعم هذا ما يبدو".

"هل أختك بارعة فى رتق الجوارب؟".

حاولت أن أتذكر إذا ما كانت جوانا لها أى خبرة فى مجال الأعمال اليدوية من هذا النوع .

واضطررت إلى أن أقر لها قائلاً:"لا أدرى".

"إذن ماذا تفعل هى عندما يُثقب أحد جواربها؟".

قلت لها مترددًا:"أعتقد أنها تتخلص منه وتبتاع زوجًا جديدًا".

قالت ميجان:"هذا شىء جميل، ولكننى لا يمكن أن أفعل هذا . فإن كل مصروف جيبى الذى أحصل عليه لا يتعدى الأربعين جنيهًا سنويًا . وهو مبلغ لا يستطيع المرء أن يفعل به الكثير".

وافقتها على ذلك .

قالت ميجان بحزن:"لو أننى أمتلك جوارب سوداء، لكان بإمكانى أن أطلى قدمى بالحبر الأسود لكى لا تظهر الثقوب . وهذا هو ما كنت أفعله فى أيام المدرسة . فقد كانت الآنسة باتورثى ناظرة المدرسة، والتى كانت تولى اهتمامها لمظهرنا العام، كانت تمامًا كاسمها كالخفاش الأعمى . وكنا نستغل هذا بشكل كبير".

قلت لها:"لابد أنها كانت كذلك بالفعل".

ران علينا الصمت بينما كنت أدخن غليونى . لقد كان صمتًا طبقًا .

ولكن سرعان ما كسرت ميجان حاجز الصمت هذا قائلة فجأة وبحدة:

"لابد أنك تعتقد أننى إنسانة فظيعة كما يعتقد الآخرون؟".

أجفلت بشدة . لدرجة أن غليونى سقط من فمى . لقد كان مصنوعاً من الميرشوم وكانت ألوانه جميلة . فقلت لـ ميجان وأنا غاضب:

"انظرى ماذا فعلت".

إلا أنها تصرفت تماماً كالأطفال الذين لا يمكن التنبؤ بردود أفعالهم وقالت وهى تبتسم:"إنك تروق لى بالفعل".

كانت عبارتها تلك عبارة فى غاية الدفء، عبارة قد يقولها كلبك إذا استطاع أن يتكلم . لقد خطر لى أن ميجان ما هى إلا جواد يتخذ وضعية الكلب . إنها لم تكن بشرية كاملة بكل تأكيد .

سألتها وأنا أجمع شظاياً غليونى المكسور بحذر:"ماذا كنت تقولين قبل أن يسقط غليونى؟".

قالت:"لقد قلت إنك ربما تعتقد أننى إنسانة فظيعة "، إلا أنها لم تنطق هذه العبارة بنفس اللهجة التى نطقتها بها سابقاً .

"ولماذا قد أعتقد هذا؟".

قالت ميجان بكآبة:"لأننى كذلك بالفعل".

قلت:"لا تكونى حمقاء".

هزت ميجان رأسها وقالت:"إن هذا هو الواقع، أنا لست حمقاء، إن الناس يعتقدون هذا، وهم لا يعلمون أننى أعلم حقيقتهم ؛ وأننى أكرههم".

"تكرهينهم؟".

قالت ميجان:"نعم أكرههم".

نظرت بعينيها الكئيبتين اللتين لا يمتان بصلة لمظهرها الطفولى إلى عينى مباشرة، دون أن ترمش ولو لمرة واحدة . لقد كانت نظرة طويلة كئيبة .

وقالت:"لقد كنت لتكره الناس إذا كنت مكانى، إذا كنت منبوذاً".

قلت لها:"ألا تظنين أنك تبالغين فى هذا الأمر قليلاً؟".

قالت ميجان:"نعم، هذا ما يقوله الناس دائماً عندما تخبرهم بالحقيقة . وهذه هى الحقيقة . إننى غير مرغوب فىّ ولا أدرى لماذا؟ إن أمى لا تحبنى البتة . لعلنى أذكرها بأبى والذى كان قاسياً جداً عليها، وكان فى غاية الفظاظة كما أسمع . إلا أن الأمهات لا يمكنهن أن يصرحن بأنهن لا يحببن أطفالهن، أو أن يتخلصن منهن . إن القطط تأكل ما لا يروقها من صغارها، إن هذا أمر عقلانى، ولكن بشكل فظيع، فهو يسبب فوضى أو

أذى . ولكن الأمهات من البشر لا يمكنهن ذلك، فعليهن أن يحفظن صغارهن وأن يعتنين بهم . ولكن فى الحقيقة إن أمى لا تريد إلا أن تعيش بمفردها مع زوجها والأولاد".

قلت لها بتمهل:

"مازلت أراك تهولين من الأمر يا ميجان، ولكن إذا ما كان كلامك صحيحاً، فلماذا لا تغادرى هذا المنزل وتستقلى بحياتك؟".

ابتسمت ابتسامة طفولية وقالت:

"أتعنى أن أحصل على عمل . وأكسب قوتى بنفسى؟".

"نعم".

"وأى عمل هذا؟".

"أعتقد أنك يمكنك أن تتدربى على عمل ما، كأن تكونى كاتبة اختزال مثلاً، أو تكونى مسئولة حسابات ".

"لا أعتقد أنه بإمكانى فعل هذا . فأنا خرقاء للغاية فى هذه الأمور . وبالإضافة إلى هذا ـــ".

"ماذا هناك؟".

أشاحت بوجهها عنى، ثم أدارته ببطء ناحيتى من جديد . وكان وجهها مربداً، وترقرقت بعض الدموع فى عينيها . وأخذت تتحدث وفى صوتها نبرة طفولية للغاية وقالت:

"لماذا يجب علىّ أن أرحل؟ وأن أجبر على الرحيل؟ إنهم لا يريدوننى ولكننى سأبقى . سأبقى وسأسبب لهم التعاسة . سوف أجعلهم يشعرون بالضيق والتعاسة . يالهم من خنازير حقودة! إننى أكره كل من فى لايمستوك . إنهم جميعاً يروننى حمقاء وقبيحة . لسوف أريهم . لسوف أريهم . لسوف ـــ".

لقد كانت ثورة غضبها طفولية مثيرة للشفقة بشكل غريب . سمعت وقع أقدام على الأرضية المفروشة بالحصى التى تحيط بالمنزل، فقلت لها بغلظة"انهضى واذهبى إلى الطابق الأول، حيث الحمام فى نهاية الممر لكى تغسلى وجهك، هيا اسرعى".

قفزت ونظرت لى بحرج وارتباك، واندفعت نحو النافذة عندما ظهرت جوانا بجوارى وقالت:"يا إلهى إننى أشعر بالحر الشديد إننى أمقت هذه الأحذية الأيرلندية اللعينة . لقد مشيت بها لأميال، إن المرء لا يجدر به أن يدع هذه الأحذية تثقب، فالحصى ينفذ منها إلى القدم وأعتقد يا جيرى أننا نحتاج لأن نقتنى كلباً .

قلت لها:"وأنا كذلك أعتقد هذا، بالمناسبة، إن ميجان ستتناول الغداء معنا اليوم".

"حقًا، عظيم".

سألتها:"هل تروق لك؟".

قالت جوانا:"أعتقد أنها طفلة، طفلة كالتى فى تلك الخرافة التى تقول، إن الجنيات يستبدلن بعض الأطفال بأطفال آخرين، إنه من الممتع أن يلتقى المرء بأحد هؤلاء الأطفال الآخرين . إيه ـ علىّ أن أذهب وأغتسل".

قلت لها:"ليس الآن ؛ فميجان تغتسل فى الحمام".

"لقد تلطخت قدماها بالوحل مرة أخرى، أليس كذلك؟".

ثم أخرجت جوانا مرآتها وأخذت تنظر إلى وجهها باهتمام وقالت:"لا أعتقد أننى أحب أحمر الشفاه هذا".

وهنا دلفت ميجان من الباب، وكانت مهندمة الثياب ونظيفة، ولم تبد عليها أى من آثار ثورتها السابقة . وأخذت تنظر بريبة إلى جوانا .

قالت لها جوانا وهى لاتزال منشغلة بالنظر إلى وجهها:"مرحبًا، لقد سعدت للغاية عندما عرفت أنك ستتناولين طعام الغداء معنا اليوم . يا إلهى . إن هناك نمشًا على أنفى لابد أن أفعل شيئًا حيال ذلك .إن النمش هو شىء خطير . ذو طابع اسكوتلاندى".

وهنا أتت بارتريدج وأخبرتنا بأن الغداء قد أعد .

قالت جوانا:"هيّا إننى أتضور جوعًا".

وتأبطت ذراع ميجان ورافقتها إلى المنزل .

الفصل الخامس

1

أعلم أن هناك شيئًا مفقودًا فى قصتى هذه . فحتى الآن لم أذكر شيئًا عن السيدة دين كالثروب، وكذلك عن رجل الدين كاليب دين كالثروب .

والشىء الغريب أن رجل الدين هذا وزوجته كانا ذوى شخصيتين مختلفتين تمامًا . كان دين كالثروب أكثر من رأيتهم زهدًا فى الحياة الدنيوية على الإطلاق . وكانت حياته كلها تدور فى نطاق كتبه ودراسته وعلمه الغزير بالتاريخ الدينى . ولكن على النقيض من هذا، كانت زوجته إنسانة اجتماعية بشكل مبالغ فيه . إننى ربما قد أغفلت ذكرها لأننى كنت أخشاها بعض الشىء . لقد كانت امرأة ذات شخصية متميزة، وذات علم غزير . لم تبد لى مناسبة لأن تكون زوجة لرجل الدين ـ ولكننى عندما فكرت فى الأمر قليلاً، سألت نفسى ما الذى أعرفه أنا عن زوجات رجال الدين؟

فالإنسانة الوحيدة التى كنت أعرفها وكانت زوجة لرجل الدين، كانت سيدة عادية لا يميزها شىء، وكانت فى غاية الإخلاص لزوجها الذى كان ضخم الحجم قوى الشكيمة، له طريقة ساحرة فى اجتذاب الآخرين إليه . وقد كانت متشددة الفكر بحيث لا يمكن للمرء أن يكمل محادثة معها .

وغير هذا كنت أستمد رؤيتى لزوجات رجال الدين من تلك الصورة الهزلية التى كانت تصورهن نسوة فُضليات يدسسن أنوفهن فى كل شىء، ويتلفظن بالتفاهات . إلا أننى أشك فى أن هذه الصورة حقيقية .

فالسيدة دين كالثروب لم تدس أنفها يومًا فى أى شىء، إلا إنه كانت لديها قدرة غير قابلة للتفسير على الإحاطة بكل الأمور علمًا، وسرعان ما اكتشفت أن كل من فى القرية يخشونها . مع إنها لم تكن تتدخل فيما لا يعنيها ولم تكن كذلك تسدى النصح لأى كائن من كان، ومع ذلك كانت بالنسبة لهؤلاء الخائفين سيفًا مسلطًا على رقابهم .

لم أر فى حياتى امرأة لا تبالى بالطبيعة من حولها مثل هذه المرأة . فى الأيام التى يكون فيها الطقس حارًا، كانت ترتدى تنورة من الصوف، أما فى الأيام التى تهطل فيها الأمطار كنت أرها تسير شاردة الذهن وهى ترتدى ثوبًا قطنيًا أو قميصًا خفيفًا زاهى

الألوان . لقد كان لها وجه نحيف يشبه وجوه كلاب الجرى هاوند وكان لها أسلوب فى الكلام مبالغ فى الصراحة .

فى ذلك اليوم الذى حضرت فيه ميجان لتناول الغداء معنا، قابلتنى السيدة دين كالثروب فى الشارع الرئيسى وأوقفتنى لتتحدث معى . ولقد شعرت بالدهشة كالعادة لأن طريقة سير السيدة دين كالثروب كانت أقرب إلى الركض منها إلى السير، وكانت دائماً ما تثبت عينيها على الأفق البعيد فتشعر وكأنها تسعى إلى هدف على بعد ميل ونصف الميل .

قالت:"أوه، سيد بيرتون! "

قالتها بانتصار كأنما نجحت فى حل أحجية عويصة .

قلت لها إننى بالفعل السيد بيرتون، فتوقفت السيدة دين كالثروب وهى تحدق إلى الأفق البعيد، وكانت تتظاهر بأنها تنظر إلىّ .

"والآن ما الذى كنت أريدك بشأنه؟".

لم يكن باستطاعتى أن أساعدها . فوقفت وهى متجهمة ومرتبكة للغاية .

قالت:"إنه لشىء بغيض".

قلت لها وأنا مذهول:"إنى آسف لهذا".

صاحت السيدة دين كالثروب:"آه، إننى أرى هذه القصة شيئًا بغيضًا، ما هذه القصة التى أحضرتها إلى البلدة، أعنى قصة الخطابات هذه؟ تلك الخطابات مجهولة الهوية؟".

قلت لها:"أنا لم أحضرها، لقد كانت موجودة قبل حضورى".

قالت لى وفى صوتها نبرة اتهام:"لم يتلق أحد أية خطاب من هذه الخطابات قبل أن تحضر".

قلت لها:"بل، لقد كان هناك من تلقوا هذه الخطابات بالفعل يا سيدة دين كالثروب، لقد كانت المشكلة موجودة منذ فترة".

قالت السيدة دين كالثروب:"يا إلهى، إن هذا لا يروق لى".

وظلت واقفة تشخص ببصرها ثم قالت:

"لا أستطيع ألا أن أشعر بأن هذا الأمر كله سيئ . إننا لسنا معتادين على هذا، لسنا معتادين على الأحقاد والضغائن، وكل أنواع الخطايا الصغيرة تلك . ولكننى لا أستطيع أن أفكر فى شخص ما يمكنه أن يأتى بهذا العمل ـ كلا، لا أستطع . وهذا ما يزعجنى ويسبب لى الضيق، لأننى كما تعلم ينبغى لى أن أعرف".

وهنا تحولت عيناها عن الأفق البعيد وتركزتا على عينى وكانت هاتان العينان

قلقتين قلقلاً طفولياً .

قلت لها:"وكيف لك أن تعرفى؟ "

"إننى دائما ما اعرف، فلطالما ظننت أن هذه هى مهمتى فى الحياة، إن كاليب بارع فى إلقاء المواعظ وإسداء النصح وهذا هو دور رجل الدين، ولكن إذا ما كان هناك فعلاً شيء يسمى الزواج من رجل دين فستكون مهمة الزوجة هى أن تعلم ما يفكر به الناس حتى وان كانت لا تستطيع فعل شيء إزاء هذا الأمر، ولكننى لا توجد لدى أدنى فكرة عمن يكون قد ... "

قطعت حديثها لفترة ثم قالت:

"هناك بعض الخطابات السخيفة الأخرى".

"هل تلقيت أية رسائل من هذا النوع؟".

كنت أشعر ببعض الحرج وأنا أسألها هذا السؤال، إلا أنها أجابت بكل تلقائية وعيناها متسعتان:"نعم، إثنتان منها ـ بل ثلاث، لكنى قد نسيت ما كان مكتوباً فيها بالضبط . ولكنه شيء سخيف عن علاقة كاليب بإحدى المدرسات، كما أذكر إنه لشيء غاية فى العبث، لأن كاليب هو أزهد الناس فى النساء . ولم يكن يوماً لديه الرغبة فيهن . من حسن حظه أنه أصبح رجل دين".

قلت لها:

"هذا صحيح تماماً".

قالت:"لقد كان كاليب غارقًا دائماً فى طلب العلم".

لم أجد فى نفسى الصلاحية لكى أرد على هذا النقد، وعلى أى حال مضت السيدة كالثروب فى التحدث تارة عن زوجها، وتارة أخرى عن تلك الخطابات، حتى أنها أصابتنى بالارتباك .

"الغريب فى الأمر أن هناك العديد من الأمور التى يمكن أن تفصح عنها هذه الرسائل، إلا أنها لا تفعل هذا، وهذا هو الأمر المحير".

قلت لها بضيق:"لا أعتقد أن هذه الرسائل تركت حداً للتهذيب والأخلاق ولم تتجاوزه".

قالت:"ولكن كتاب هذه الرسائل يبدو أنهم لا يعرفون شيئًا . إن أى شيء يذكرونه لا يمت للحقيقة بصلة على الإطلاق".

"ماذا تعنين؟".

ومن جديد تلاقت عيناها الغامضتان بعينىّ وقالت:"إن هذه البلدة متخمة بالفساد

الخلقى، وكل شىء آخر، كل الأسرار تتواجد فى هذه البلدة . لماذا لا يكتب مرسل هذه الخطابات عنها؟".

توقفت للحظة عن الحديث ثم سألتنى:"ماذا كان فحوى رسالتك؟

"لقد زعموا أن أختى ليست أختى فى الحقيقة".

سألتنى السيدة دين كالثروب دون أدنى حرج:

"وهل هى أختك بالفعل؟ ":

"بالتأكيد جوانا هى أختى".

أومأت السيدة دين كالثروب برأسها وقالت"هذا هو ما أعنيه وإننى لأجرؤ على القول بأن هناك أموراً أخرى أيضاً ـــــــ".

ثم أخذت تحدق إلىّ بعينيها الصافيتين الشاردتين، وفجأة أحسست بأننى أفهم لماذا يخشى كل سكان لايمستوك السيدة دين كالثروب .

فى حياة كل منا مواقف وأشياء خفية نريد ألا يكتشفها أحد . ولقد شعرت بأن السيدة دين كالثروب تعلم هذه المواقف الخفية .

وللمرة الأولى فى حياتى شعرت بالسرور عندما سمعت صوت إيمى جريفيث يشق السكون قائلاً:

"مرحبًا يا مود . إننى سعيدة لأننى قابلتك . كنت أريد أن أقترح عليك تغيير موعد المزاد . صباح الخير يا سيد بيرتون".

ثم أكملت قائلة:

"علىّ أن أذهب إلى محل البقالة وأوصيهم بإعداد طلب لى، ثم سوف أذهب إلى المعهد مباشرة، إذا كان هذا يناسبك؟".

قالت السيدة دين كالثروب:"حسنًا، حسنًا هذا يناسبنى تمامًا".

وذهبت إيمى جريفث إلى محلات"إنترناشونال ستورز".

قالت السيدة دين كالثروب:"يالها من مسكينة".

أصابتنى دهشة عظيمة، إذ لم أكن أعرف لماذا قد تشفق هى على إيمى جريفيث .

إلا أنها تابعت قائلة:

"كما تعلم يا سيد بيرتون إننى أخشى أن ـــ".

"هل تعنين هذه الخطابات؟".

"نعم، كما ترى، إنها تعنى ـ لابد أنها تعنى ـــ ". صمتت فى حيرة لبعض الوقت وزاغت عيناها . ثم قالت بلهجة من حل لغزًا:"الكراهية العمياء ... نعم الكراهية العمياء . ولكن حتى الرجل الأعمى قد يطعن فى القلب عن طريق الصدفة البحتة ... وماذا سيحدث بعد يا سيد بيرتون؟

ولقد كان لنا أن نعلم هذا قبل انقضاء يوم آخر .

2

لقد كانت بارتريدج هى من حملت إلينا نبأ هذه الكارثة . وبارتريدج تحب الكوارث . ودائمًا ما كان أنفها يختلج فى نشوة عندما تكون حاملة لأية أخبار سيئة .

فقد دخلت إلى غرفة جوانا وأنفها آخذ فى الاختلاج، وعيناها تلمعان، وشفتاها ممطوطتان تتصنعان الحزن . قالت وهى تزيح ستائر الغرفة:"هناك أخبار مفزعة هذا الصباح يا آنستى".

وكانت جوانا تمتلك تلك العادة فى أن تستغرق دقيقة أو دقيقتين لكى تستعيد وعيها بعد أن تستيقظ فى الصباح . ولهذا فكل ما قالته هو:

"أوه "، ثم تقبلت فى فراشها دون أدنى اهتمام .

وضعت بارتريدج قدح شاى الصباح بجوارها، ثم بدأت تتحدث من جديد قائلة:

"أخبار رهيبة . صدمة لم أستطع أن أصدقها عندما سمعتها فى البداية".

قالت جوانا وهى تجاهد لتستعيد وعيها:"أية أخبار مفزعة تلك؟".

قالت بارتريدج:"السيدة سيمنتجون المسكينة".

ثم صمتت للحظة بشكل درامى ثم أردفت:"ماتت". ثم انتفضت جوانا قائمة فى فراشها وقالت:"ماتت؟".

"نعم يا آنسة جوانا، لقد حدث هذا البارحة بعد الظهيرة، وأسوأ ما فى الأمر أنها قد انتحرت".

"يا إلهى، مستحيل يا بارتريدج".

كانت جوانا مصدومة للغاية . فالسيدة سيمنتجون لم تكن من نوعية الناس الذين تصيبهم المآسى .

"نعم يا آنسة . لقد تعمدت قتل نفسها . ولكن هذا لم يكن ليحدث لو لم يدفعها شىء

ما لاقتراف ذلك، يالها من مسكينة".

قالت جوانا:"يدفعها شيء ما؟".

فأومأت بارتريدج برأسها موافقة وقالت:

"هذا صحيح يا آنسة بسبب واحدٍ من تلك الخطابات البغيضة".

"وماذا جاء فى هذا الخطاب؟".

ولكن هذا ما عجزت باتريدج عن معرفته وهو الأمر الذى جعل بارتريدج فى غاية الأسف .

قالت جوانا:"إنها تصرفات دنيئة، ولكن مع هذا لا أفهم ما الذى فى هذه الخطابات يمكنه أن يجعل المرء يقتل نفسه".

أخذت بارتريدج نفساً عميقاً ثم قالت:

"قد تفعل فقط إذا ما كانت حقيقية".

قالت جوانا:"يا إلهى".

تناولت جوانا قدح الشاى بعد أن غادرت بارتريدج الغرفة ـ ثم ارتدت معطفها وأتت إلىّ لكى تبلغنى هذه الأخبار .

أخذت أتفكر فيما قاله أوين جريفيث . لقد قال إن عاجلاً أو آجلاً سوف تنطلق الرصاصة ولا ندرى من ستصيب . ويبدو أنها أصابت السيدة سيمنتجون . إنها لم تكن تبدو من طراز هؤلاء النساء اللاتى يحملن أسراراً خفية فى ماضيهن ... لقد كان إحساسى صحيحاً، لقد كنت أرى أن وراء شراستها الشديدة تلك امرأة هشة ضعيفة . لقد كانت من طراز النسوة الضعيفات اللاتى يعتمدن على الآخرين واللاتى ينهرن بسهولة .

وكزتنى جوانا بذراعها وسألتنى عما أظنه بشأن هذا الأمر .

فكررت لها ما قاله أوين جريفيث ؛ فقالت:"بالطبع، لابد أنه يعرف كل شيء على الموضوع . فهذا الرجل يعرف كل شيء".

قلت:"إنه بارع".

قالت جوانا:"بل هو متغطرس، متغطرس للغاية".

ثم صمتت لدقيقة أو دقيقتين ثم قالت:

"ياله من أمر فظيع لزوجها ولابنتها . ترى ما هو شعور ميجان الآن؟".

لم يكن لدى أدنى فكرة، وأعلنت لها ذلك صراحة . لقد كان من العجيب أنه لا

يستطيع أحد أن يخمن ما تشعر به ميجان الآن أو بماذا تفكر .

أومأت جوانا برأسها وقالت:

"لا يستطيع أحد أن يعرف ماذا يدور بخلد تلك الطفلة ربيبة الجنيات".

ثم صمتت للحظة وقالت:

"هل تعتقد ـ إذا ما كنت توافق على هذا ـ أنها قد تحب أن تأتى وتمكث معنا ليوم أو يومين؟ لقد تلقت هذه الفتاة صدمة شديدة".

قلت لها موافقاً:"يمكننا أن نقترح هذا عليها".

قالت جوانا:"أعتقد أن الأولاد سيكونون بخير، فلديهم مربية الأطفال تلك . ولكنى أعتقد أن تلك المرأة يمكنها أن تقود ميجان نحو الجنون".

فكرت أن هذا محتمل للغاية . فقد كان يمكننى أن أتخيل تلك المرأة وهى مستمرة فى التفوه بالتفاهات، ولا تنفك تعرض عليها احتساء المزيد من أقداح الشاى . إنها مخلوقة طيبة السريرة ولكننى لا أظنها مناسبة لإنسانة حساسة كميجان .

لقد كنت أفكر بالفعل أن تبتعد ميجان عن منزلها فى هذه الفترة العصيبة . ولقد سعدت عندما علمت أن جوانا تفكر فى نفس الشىء بشكل عفوى دون إيعاز منى .

وبعدما انتهينا من تناول الإفطار ذهبنا إلى بيت آل سيمنجتون .

وكنا منزعجين بعض الشىء . فقد كان قدومنا يبدو تطفلاً شديداً . ولكن لحسن الحظ قابلنا أوين جريفيث وهو خارج من بوابة القصر . وقد بدا قلقاً ومنشغلاً .

إلا أنه حيانى بشىء من الحرارة وقال:

"مرحبًا يا بيرتون . إننى مسرور لرؤياك . إن ما كنت أخشى أن يقع عاجلاً أو آجلاً قد وقع بالفعل . إنه لأمر لعين".

قالت جوانا بصوت لا تستخدمه إلا عندما تتحدث مع إحدى عماتنا الصم:"صباح الخير يا دكتور جريفيث".

فوجئ"جريفيث"وكست وجهه الحمرة وقال:

"أوه ـ صباح الخير يا آنسة بيرتون".

قالت جوانا:"لقد ظننت أنك ربما لم تلاحظ وجودى".

ازداد وجه جريفيث إحمراراً . وكاد يذوب خجلاً وقال:

"إننى فى غاية الأسف، لقد كنت مشغولاً بأمر ما، فلم أنتبه".

إلا أن جوانا تابعت كلامها دون رحمة أو شفقة:

"مع أننى فى ذات حجم البشر الأسوياء ويمكن لأى أحد أن ينتبه لوجودى".

انتحيت بها جانبًا وقلت لها:

"على رسلك أيتها الشرسة".

تابعت حديثى مع جريفيث قائلاً:"لقد كنت وأختى نتساءل يا جريفيث إذا ما كانت فكرة جيدة أن تمكث الفتاة معنا ليوم أو يومين؟ ما رأيك؟ إننى لا أريد أن أدس أنفى فى الموضوع ـ ولكن لابد أن الموقف عصيب للغاية على تلك الطفلة المسكينة، فماذا تظن رأى سيمنتجون فى هذا الأمر؟".

أخذ جريفيث يقلب الفكرة فى رأسه لدقيقة أو دقيقتين .

ثم قال فى النهاية:"أعتقد أن هذه الفكرة ممتازة، فهى فتاة عصبية، متقلبة المزاج، وسوف يكون من مصلحتنا أن تبتعد تمامًا عن هذا الأمر . صحيح أن الآنسة هولاند تفعل الأعاجيب مع الأولاد والسيد سيمنجتون نفسه، ولكن هذا يكفينا . فالسيد سيمنجتون مفطور القلب ـ مشتت التفكير".

سألته بتردد:"هل كانت المسألة انتحارًا؟".

أومأ جريفيث برأسه قائلاً:

"نعم بالفعل . لا يوجد هناك أى احتمال أن يكون الأمر حادثة . لقد كتبت رسالة قبل أن تموت قالت فيها:"لا يمكننى أن أستمر". لابد أن الخطاب قد وصل فى بريد الظهيرة بالبارحة . لقد كان المظروف على الأرض بالقرب من مقعدها بينما كان الخطاب نفسه مكورًا وملقى فى المدفأة".

"ماذا كان ـــــ".

ثم توقفت عن الكلام وأنا منزعج من نفسى".

ثم اعتذرت قائلاً:"أستميحك عذرًا".

ابتسم جريفيث ابتسامة خاطفة وحزينة ثم قال:

"لا تخجل من سؤالك، لابد وأن يقرأ الخطاب فى أثناء سير التحقيقات . إن هذا أمر حتمى مع أنه فظيع . لقد كانت واحدة من تلك الرسائل التى تعرفها ـ بذات الأسلوب البذىء . ولقد كان الاتهام هذه المرة بأن الصبى الأصغر كولين ليس من صلب سيمنجتون "

سألته وأنا لا أكاد أصدق:"هل تظن هذا صحيحًا؟".

هز جريفيث كتفيه وقال:

"لا أستطيع أن أقطع برأى فى هذا الأمر . إننى أعيش فى هذه البلدة منذ خمس سنوات فقط . ولم أعرف عن الزوجين سيمنجتون غير أنهما زوجان سعيدان فى حياتهما الزوجية ومخلصان لعلاقتهما ولأطفالهما . صحيح أن ذاك الولد لا يشبه والديه تماماً ـ فهو ذو شعر أحمر لامع ـ لكن الأطفال غالباً ما يكونون أشبه بجدودهم أو جداتهم".

"لعل عدم التشابه هذا قد يكون هو ما أدى إلى هذه الشائعات، إنه اتهام شرير ولا يستند إلى دليل".

"إنه من المحتمل جداً لأن أصحاب هذه الأقلام المسمومة لا يكونون ذوى معرفة كبيرة بهؤلاء الناس، لأنهم يتحركون بدافع حقد أعمى".

قالت جوانا:"ولكن يبدو أن هذا الاتهام قد نكأ جرحاً غائراً، وإلا لم تكن لتقتل نفسها، أليس كذلك؟".

قال جريفيث فى تشكك:

"أشك فى هذا، لقد كانت السيدة سيمنتجون تعانى من بعض المتاعب الصحية لبعض الوقت، ولقد كانت تمر بنوبات عصبية وهستيرية . لقد كنت أعالجها من حالتها العصبية المضطربة تلك .

من المحتمل أن الصدمة التى نتجت عن تلقيها لهذه الرسالة قد وضعتها فى تلك الحالة مرة أخرى، وأصابتها بنوبة فزع دفعتها إلى الانتحار، ولعلها خشيت ألا يصدقها زوجها إذا ما أنكرت هذه القصة، أو لعله اعتراها شعور بالخزى والاشمئزاز مما جعلها تتخذ هذا القرار غير المتزن".

قالت جوانا:"إذن فهو انتحار ناتج عن حالة عقلية مضطربة".

قال جريفيث:"بالضبط، وأعتقد أنه سوف يقابل ذلك بتفهم كبير أثناء التحقيقات".

قالت جوانا:"هذا صحيح".

كان هناك شىء فى نبرة صوتها جعل جريفيث يقول بصوت غاضب:

"نعم سوف تلقى تفهماً، ألا تتفقين معى يا آنسة بيرتون؟".

قالت جوانا:"بل أتفق معك تماماً، وكنت لأفعل نفس الشىء لو كنت مكانك".

نظر لها أوين بشك، ثم سار مبتعداً عنا، ودلفت أنا و جوانا إلى داخل المنزل . كان باب المنزل مفتوحاً ولقد رأينا أن ندخل مباشرة بدلاً من قرع الجرس، خاصة وقد سمعنا صوت إلسى هولاند يدوى من داخل المنزل . كانت تخاطب السيد سيمنتجون الذى كان يجلس على أحد المقاعد، وكان فى حالة إعياء شديدة:"إنك لم تتناول طعام الإفطار، وكذلك لم تأكل شيئاً فى الليلة الماضية، ناهيك عن الصدمة التى تلقيتها، إنك بهذا الشكل سوف تضر صحتك، وأنت فى هذه المرحلة تحتاج إلى كل قواك . هذا

ما قاله الطبيب قبل أن ينصرف".

قال سيمنجتون بصوت لا حياة فيه:

"إنك عطوفة للغاية يا آنسة هولاند، لكن ـــ".

قالت الآنسة هولاند:"إليك قدح الشاى هذا"قالتها وهى تدفع إليه القدح بحزم .

كنت أفضل شخصياً أن تعطيه بعص الصودا أو العصائر . فقد بدا بحاجة إليها بالفعل، إلا أنه تناول منها الشاى وقال وهو ينظر إليها:"لا أستطيع شكرك بما يكفى يا آنسة هولاند . إنك إنسانة رائعة".

فاحمر وجه الفتاة خجلاً وبدت مسرورة لهذا الإطراء . ثم قالت:

"ولطيف منك أن تقول هذا يا سيد سيمنجتون ولكن عليك أن تدعنى أفعل ما بوسعى لكى أساعدك . ولا تقلق بشأن الأولاد ـ إننى سوف أعتنى بهم، ولقد استطعت أن أسيطر على الخدم وأهدأ من روعهم، وإذا كان هناك أى شىء يمكننى أن أفعله كأن أكتب خطاباً لأحد ما، أو أن أتصل بأحد ما، فرجاء لا تتردد فى طلب ذلك منى ".

كرر السيد سيمنجتون:"إنك عطوفة للغاية".

وبينما كانت إلسى هولاند تستدير لتمضى إلى شأنها، لمحتنا فهرعت إلينا مسرعة إلى بهو المنزل، وقالت بصوت هامس:"أليس هذا أمراً فظيعاً؟ "

وبينما كنت أنظر إليها، خطر لى أنها فعلاً فتاة لطيفة للغاية ؛ فهى عطوفة، وذات كفاءة، وعملية جداً فى وقت الأزمات . كانت عيناها الواسعتان الزرقاوان تحيط بهما هالتان ورديتان مما يدل على أنها رقيقة القلب للغاية لكى تذرف الدمع لوفاة مستخدمتها .

قالت لها جوانا:"هل يمكننا أن نحادثك قليلاً ؛ فنحن لا نريد أن نزعج السيد سيمنجتون".

أومأت إلسى هولاند برأسها وقادتنا نحو غرفة الطعام فى الجانب الآخر من البهو، وقالت:

"لقد كان أمراً فوق احتماله، يالها من صدمة . من كان يظن أن شيئاً مثل هذا قد يحدث؟ ولكننى الآن بالطبع أدرك أنها أحياناً كانت تبدو غريبة الأطوار . أحياناً كانت تنتابها نوبات عصبية، وكانت تبكى بشكل غريب . كنت أظن أنها مريضة، رغم أن الدكتور جريفيث كان يؤكد دائماً أنها سليمة ولا شىء بها . ولكنها كانت عدوانية وسريعة الغضب وأحياناً لم نكن نستطيع التعامل معها".

قالت جوانا:"لقد أتينا اليوم، لكى نسأل إذا كان من الممكن أن نصطحب ميجان لكى تمكث معنا لأيام قليلة ـ إذا كانت هى تريد هذا".

قالت فى شىء من الدهشة:

"ميجان؟ لا أدرى . إن هذا لطف منكما، ولكنها فتاة غريبة الأطوار، ولا أحد يمكنه أن يعلم بماذا تفكر أو بماذا تشعر".

قالت جوانا بغموض:

"إننا نعتقد أننا بهذا نقدم بعض المساعدة".

"بالتأكيد، إنكما بهذا سوف تساعداننى كثيراً . فإننى أعتنى بالوالدين، وهما الآن مع الطاهية وكذلك السيد سيمنجتون المسكين ـ إنه فعلاً بحاجة إلى الرعاية كأى أحد آخر، وهناك الكثير من الأشياء الأخرى التى يجب علىّ أن أقوم بها . وإننى بالقطع ليس لدى أى وقت لكى أعنى بـ ميجان . أعتقد أنها فى الطابق العلوى فى غرفة الأطفال القديمة التى فى أعلى المنزل . لا أدرى إذا ـــ".

نظرت لى جوانا بسرعة، فهرعت إلى الغرفة فى الطابق العلوى .

كانت غرفة الأطفال القديمة فى أعلى المنزل . فتحت الباب ودلفت، كانت الغرفة التى تحتها تطل على الحديقة ولم تكن ستائرها قد أسدلت بعد . أما الغرفة التى كانت تطل على الطريق فكانت ستائرها مسدلة .

رأيت ميجان من خلال ضوء الغرفة الخافت . كانت تجلس على أريكة فى مقابل الجدار، وذكرنى منظرها هذا بمشهد الحيوانات المذعورة التى تختبئ من مفترسيها . لقد كانت فى غاية الخوف .

ناديتها قائلاً:"ميجان".

تقدمت إليها ودون وعى منى اكتسب صوتى نبرة من يهدئ حيوانًا مذعوراً . ولقد شعرت بأننى أمد يدى لها بجزرة أو بقطعة سكر . أخذت تحدق إلى دون أن تتحرك قيد أنملة، أو يتغير التعبير الذى كان مرتسماً على وجهها .

قلت لها مرة أخرى:"ميجان، لقد أتيت أنا و جوانا لنسألك إذا كنت تحبين أن تأتى معنا لتقضى معنا أياماً قليلة".

قالت بصوت خاوٍ من وراء الضوء الخافت:

"أمكث معكما؟ فى منزلكما؟".

"نعم".

"أتعنى أنكما سوف تأخذاننى من هنا؟".

"نعم يا عزيزتى".

فجأة بدأت ترتجف من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، لقد كانت ترتجف بقوة

وبشكل مرعب .

"نعم، خذانى من هنا أرجوكما، إنه لشىء فظيع أن أبقى هنا وأشعر بأننى شريرة".

تقدمت إليها فأمسكت بكم معطفى وتشبثت به بقوة واستطردت:

"إننى جبانة وحقيرة، لم أكن اعرف أننى جبانة إلى هذا الحد".

قلت لها:

"لا عليك يا طفلتى العزيزة . إن الأمور مختلطة بعض الشىء، هيا بنا".

"هل يمكننا أن نذهب الآن، دون أن نمكث هنا لدقيقة؟".

"أعتقد أنه عليك أن تحزمى بعض أغراضك".

"أية أغراض؟ لماذا؟".

"يا طفلتى العزيزة، إننا سنوفر لك فراشًا وحمامًا وأشياء أخرى، ولكننى لا أستطيع أن أعيرك فرشاة أسنانى مثلاً".

ضحكت ضحكة خفيفة مرهقة وقالت:

"فهمت، أعتقد أننى حمقاء بعض الشىء اليوم: لا تبال بى . سوف أذهب لكى أحزم بعض الأغراض . وأنت ــ أنت لن تذهب؟ سوف تنتظرنى؟".

"سوف أنتظرك على الباب".

"أشكرك . أشكرك شكرًا جزيلاً . أنا آسفة للغاية . ولكنك تعرف أن الوضع يكون خطيراً عندما تموت أمك".

قلت لها:"أنا أعرف".

وربت على كتفها بعطف، فنظرت لى بامتنان ثم توارت فى غرفة النوم . وذهبت أنا نازلاً الدرج وقلت لإلسى هولاند:

"لقد قابلت ميجان، وستأتى معنا".

قالت إلسى هولاند .

"هذا شىء طيب، إن هذا سوف ينسيها حزنها . إنها لفتاة عصبية كما تعلم . إنها صعبة المراس . إننى سوف أرتاح جداً عندما أخرجها من دائرة الأشياء التى يجب أن أقلق بشأنها . وهذا لطف منك أنت أيضًا يا آنسة بيرتون . أرجو ألا تسبب لك إزعاجًا . يا إلهى إن جرس الهاتف يدق . لابد أن أرد عليه . إن السيد سيمنجتون لا يستطيع الرد عليه".

قالتها وأسرعت تغادر الغرفة . فقالت جوانا:

"يالها من ملاك متفانٍ".

قلت لها:

"إنك تسخرين منها، مع أنها فتاة لطيفة عطوفة، وتؤدى عملها بكفاءة إلى حد ما".

"إلى حد ما، وهى تعرف هذا".

قلت لها:"هذا لا يليق بك يا جوانا".

"أعنى لماذا لا تستطيع الفتاة أن تعنى بنفسها".

"فعلاً ".

قالت جوانا:"إننى لا أطيق هؤلاء الناس الذين يختالون بأنفسهم، فهذا يثير طباعى السيئة . كيف وجدت ميجان؟".

"وجدتها جالسة على أريكة فى غرفة مظلمة تبدو كظبى شارد".

"يا للطفلة المسكينة، هل رحبت بالفكرة؟".

"لقد كانت تتوق لذلك بشدة".

وسمعنا صوت ميجان، وهى تدحرج حقيبتها فى طريقها إلينا فذهبت إليها وأخذت منها الحقيبة . وقالت جوانا:

"هيا فإن لدىّ أقداح شاى كثيرة يجب أن أتناولها".

ذهبنا إلى السيارة، وضايقنى أنه تعين على جوانا أن تدخل الحقيبة بنفسها فى السيارة . لقد كنت أستطيع فى هذا الوقت أن أمشى بعكاز واحد، إلا أننى لم أكن أستطيع أن أقوم بأى حركات رياضية .

قلت لـ ميجان:"هيا ادخلى إلى السيارة".

استقللنا السيارة . فأدارت جوانا المحرك، ومضينا فى طريقنا .

وصلنا إلى ليتل فيرز وجلسنا فى حجرة الرسم .

تهاوت ميجان على مقعدها وانفجرت باكية . أخذت تنتحب بشكل طفولى ـ غادرت الغرفة طلباً للراحة . وأعتقد أن جوانا وقفت هناك عاجزة عن فعل شىء .

ثم سمعت ميجان تقول بصوت مخنوق:

"أنا آسفة لأننى أفعل هذا . هذا يبدو تصرفًا أحمق".

قالت جوانا:"لا، لا عليك إليك منديل آخر".

أعتقد أنها قامت بالتصرف السليم . دلفت إلى الغرفة وقدمت لميجان كوباً من العصير .

"ما هذا؟".

قلت لها:"بعض العصير الطازج".

قالت ميجان وقد جفت دموعها بسرعة .

"حقاً؟ أشكرك بشدة".

قلت لها:"لا عليك يا عزيزتى".

ارتشفت ميجان شرابها باستمتاع، ثم أشرق وجهها بابتسامة، ثم أعادت رأسها إلى أسفل وازدردت شرابها حتى الثمالة . ثم قالت:

"إنه لذيذ، هل يمكننى أن أحصل على كأس آخر".

قلت لها:"لا".

"لماذا؟".

"حتى لا تفقدى شهيتك للطعام".

"يا إلهى".

ثم حولت ميجان اهتمامها إلى جوانا قائلة:

"إننى فى غاية الأسف لأننى أحدثت كل هذه الضوضاء، عندما أخذت أبكى وأنتحب بهذا الشكل . ولا أدرى لماذا . لقد كان هذا سخيفاً جداً خاصة أننى فى غاية السعادة لوجودى هنا".

قالت جوانا:"هذا صحيح، نحن فى غاية السرور لأنك معنا".

"لا يمكن أن تكونا سعداء لتواجدى . إنه عطفكما ورقتكما . ولكننى ممتنة لكما".

قالت جوانا:"لا أريدك أن تتفوهى بمثل هذه الكلمات، إن هذا يحرجنى للغاية . إنى صادقة للغاية عندما أقول إننا سعداء لأنك معنا . فأنا وجيرى قد تحدثنا فى كل الموضوعات الممكنة، ولا يمكننا أن نجد أى شىء آخر نقوله لبعضنا البعض".

قلت:"ولكن الآن، سوف نستطيع أن نتحدث عن جونريل وريجان وأشياء من هذا القبيل".

تهللت أسارير ميجان وقالت:

"لقد كنت أفكر فى هذا الأمر، أعتقد أننى أعرف لماذا . إن هذا لأن والدهما المسن

البغيض هذا كان يريدهما دائماً أن يتملقاه . فعندما يضطر المرء لأن يقول دائماً شكراً، وهذا عطف منك، فسوف ينتهى به الأمر لأن يصبح غريب الأطوار وفاسد الخلق، لأنه سوف يتوق لأن يكون شريراً على سبيل التغيير ـ وعندما ينال الفرصة فسوف يتمادى فى الأمر ويغالى فيه . إن العجوز لير كان بغيضاً للغاية أليس كذلك؟ إنه يستحق ذلك الازدراء الذى عاملته به كورديليا".

قلت:"أرى أننا سوف نحظى بمناقشات شيقة عن شكسبير".

قالت جوانا:"أرى أنكما سوف تكثران من التحذلق . فإننى دائماً ما أرى شكسبير فى غاية الملل، حيث هذه الفصول المسرحية الطويلة التى يكون فيها الجميع مخمورين ويحاولون أن يبدوا مضحكين".

قالت لميجان:"كيف حالك الآن؟".

"بخير، شكراً لك".

"ألا تشعرين بالدوار، ألا ترين اثنين من جوانا، أو أى شىء من هذا القبيل".

"كلا، كل ما هنالك أننى أشعر بأننى أريد أن أتحدث كثيراً".

قلت لها:"ستكونين بخير يا صغيرتى، والآن عليك الذهاب لكى تأخذى قسطاً من الراحة".

صحبتها جوانا إلى الطابق الأعلى لكى تخرج أغراضها من حقيبتها .

وأتت بارتريدج وقد بدت متكدرة، وقالت إنها لم تصنع إلا كوبين من الكاسترد فقط من أجل الغداء، ولا تدرى ما العمل .

الفصل السادس

1

بدأ التحقيق بعد الحادث بثلاثة أيام . لقد تم كل شيء بشكل لائق على قدر الإمكان، إلا أن الحضور كان كبيراً، وكما لاحظت جوانا كان هناك العديد من النسوة .

تم تحديد الوقت الذى توفيت فيه السيدة سيمنجتون وقد كان بين الثالثة والرابعة ظهراً . لقد كانت بمفردها فى المنزل ؛ فقد كان السيد سيمنجتون فى مكتبه، وكانت الخادمات فى إجازة، وإلسى هولاند والأطفال فى الخارج . و ميجان كانت فى نزهة على الدراجة .

لابد أن الخطاب وصل فى بريد بعد الظهيرة، ولابد أن السيدة سيمنجتون أخرجته من الصندوق، وقرأته ـ ثم لابد وأنها فى ثورة غضبها ذهبت إلى خزانة المطبخ وأخرجت منها بعض السيانيد الذى كان ملفوفاً هناك لكى يوضع فى شبكة صيد الدبابير، ثم أذابت بعضه فى الماء ثم تجرعته بعد أن كتبت هذه الكلمات الأخيرة:"لا يمكننى أن أستمر".

وأدلى أوين جريفيث بشهادته الطبية، وشدد على وجهة نظره التى أوضحها لنا بخصوص الحالة العصبية للسيدة سيمنجتون وضعف قدرتها على التحمل . كان المحقق لطيفاً وحكيماً، فقد تحدث بمرارة عن إدانته لهؤلاء الذين يكتبون هذه الأشياء الحقيرة، الرسائل المجهولة . وقال أياً كان كاتب هذه الرسائل الشريرة الكاذبة فهو مسئول أخلاقياً عن جريمة القتل . وقد تمنى أن تكشف الشرطة المجرم سريعاً وتتخذ الإجراءات اللازمة ضده أو ضدها، فعمل قذر كهذا تفوح منه رائحة الحقد الأعمى يستحق أقسى عقوبة يفرضها القانون . وبناء على توجيهاته، نطق القضاة بالحكم النهائى، ألا وهو، انتحار أثناء جنون مؤقت .

لقد بذل المحقق ما بوسعه ـ وكذلك أوين جريفيث أيضاً، ولكننى سمعت فيما بعد من نساء القرية نفس الهمسات الكريهة والتى بدأت أعرفها جيداً"لا دخان بلا نار، هذا رأيى!، لابد أن هناك شيئاً، وإلا ما كانت لتقدم على تلك الفعلة ...» .

كرهت لايمستوك وحدودها الضيقة ونساءها النمامات الهامسات .

2

من الصعب تذكر الأشياء بترتيبها الزمنى الصحيح . بالطبع، كانت زيارة المفتش ناش ثانى أهم المعالم . ولكنى أعتقد قبل ذلك أننا تلقينا زيارات من أشخاص مختلفين بالقرية، وكانت كل زيارة مهمة فى حد ذاتها، وقد ألقت بعض الضوء على بعض الشخصيات وصفاتهم .

جاءت إيمى جريفيث فى الصباح بعد الاستجواب كانت تبدو كعادتها وافرة الصحة والنشاط ونجحت كعادتها أيضًا فى مضايقتى على الفور . وبما أن جوانا وميجان كانتا بالخارج فقد قمت أنا بواجبات الضيافة .

قالت الآنسة جريفيث:"صباح الخير، لقد سمعت أنكما تستضيفان ميجان هنا".

"أجل".

"هذا تصرف كريم من جانبكم، أنا متأكدة من ذلك، ولكن أخشى أن يسبب لكم بعض الإزعاج . وقد جئت لكى أقول إنه بإمكانها المجىء إلينا إذا كنتما ترغبان فى ذلك . يمكننى القول إنه بوسعى جعلها مفيدة فى المنزل".

نظرت إلى إيمى جريفيث باستياء شديد .

قلت:"يا لعطفك الشديد، ولكننا سعداء بوجودها، إنها تقضى وقتًا طيبًا هنا معنا".

"يمكننى القول إن تلك الطفلة مغرمة بالتسكع، وأظنها لا تستطيع فعل شىء سوى ذلك، فهى ذات ذكاء محدود للغاية".

قلت:"أعتقد أنها فتاة غاية فى الذكاء".

حدقت إلى جريفيث بقسوة، ثم علقت قائلة:

"لأول مرة أسمع شخصًا يقول ذلك عنها . فعندما تتحدث إليها تنظر إليك كما لو أنها لا تفهم ما تقوله".

قلت:"ربما كانت لا تهتم بما يقال، وهذا كل ما فى الأمر".

قالت إيمى جريفيث:"إذا كان الأمر كذلك، فهى تتسم بالوقاحة".

قلت:"ربما، ولكنها ليست ذات ذكاء محدود".

أعلنت الآنسة جريفيث بحدة:

"إنها شاردة الذهن غافلة، على أفضل تقدير إن ما تحتاج إليه ميجان هو العمل الجاد ـ شىء يجعلها تهتم بالحياة . لا تتصور مدى الفارق الذى يشكله هذا بالنسبة لفتاة .

إننى أعرف الكثير عن الفتيات . حتى أنه ليدهشك مدى الاختلاف الذى يحدثه كون الفتاة عضواً فى فريق الكشافة . إن ميجان أكبر من أن تقضى وقتها فى التسكع والبطالة".

قلت:"إن من الصعب عليها فعل أى شىء الآن، فيبدو أن السيدة سيمنجتون كانت تعتبرها فى الثانية عشرة من عمرها".

تنهدت الآنسة جريفيث بحنق:

"أعرف، ولم أكن أطيق موقفها ذاك . لقد رحلت الآن، لذا لا أريد قول المزيد، ولكنها كانت مثالاً لما أطلق عليه ربة منزل غير ذكية، لا تهتم إلا بلعب الورق والقيل والقال والاهتمام بشئون أطفالها ـ حتى الأطفال كانت الفتاة تعتنى بهم . أخشى أننى لم أكن معجبة بالسيدة سيمنجتون، على الرغم من ذلك فلم أشك فى الحقيقة أبداً".

قلت محتداً:"الحقيقة؟".

احمر وجه الآنسة جريفيث .

قالت:"لقد أسفت بشدة على ديك سيمنجتون لنشر كل تلك الأشياء فى الاستجواب، لقد كان ذلك شيئاً فظيعاً بالنسبة له".

"ولكنك بالتأكيد سمعته يقول إن ما ورد بالخطاب لا أساس له من الصحة على الإطلاق ـ لقد كان متأكداً من ذلك تماماً؟".

"لقد قال ذلك بالطبع، وهذا صحيح، فالرجل لابد وأن يدافع عن زوجته، هذا ما كان ليفعله ديك".

"لقد عرفت ديك سيمنجتون منذ وقت طويل".

اندهشت بعض الشىء .

وقلت:"حقاً؟ لقد فهمت من أخيك أنه اشترى هذه العيادة منذ بضع سنوات قليلة".

"أوه، نعم، ولكن ديك سيمنجتون قد اعتاد على المجىء والإقامة عندنا فى الشمال . لقد عرفته منذ سنوات".

إن النساء يتوصلن إلى نتائج لا يتوصل إليها الرجال . إلا أن النعومة المفاجئة التى طرأت على نبرة صوت إيمى جريفيث جعلت ـ على حد وصف خادمتنا العجوز ـ بعض الأفكار تدور فى رأسى .

نظرت إلى إيمى بفضول، بينما واصلت هى حديثها بنفس تلك النبرة الناعمة:

"أعرف ديك حق المعرفة ... إنه رجل يعتز بكبريائه ومتحفظ جداً، ولكنه مع ذلك غيور جداً".

قلت متعمداً:"وهذا يفسر سبب خشية السيدة سيمنجتون من أن تريه الرسالة أو أن تخبره بما ورد فيها . فلعلها كانت تخشى ألا يصدق إنكارها لما ورد بها، وذلك بسبب غيرته".

نظرت إلى الآنسة جريفيث نظرة تنم عن الحنق والاحتقار .

"يا إلهى، أتعتقد أن امرأة يمكن أن تقدم على ابتلاع سيانيد البوتاسيوم بسبب اتهام كاذب؟".

"يبدو أن المحقق اعتقد أن ذلك ممكن . كما أن أخاك أيضاً ـــ".

قاطعتنى إيمى .

"أنتم معشر الرجال تفكرون بنفس الطريقة . فكلكم تريدون المحافظة على الآداب العامة . ولكننى لا أصدق هذا السخف، فإن تلقت امرأة بريئة رسالة حقيرة من مجهول، فإنها تضحك وتلقيها فى سلة المهملات . وهذا ما فعلته ـــ» توقفت فجأة، ثم أنهت كلامها قائلة:"ما كنت لأفعله".

ولكننى لاحظت مقاطعتها هذه، كنت متأكداً تقريباً من أنها كانت بصدد قول:"فعلته".

قررت أن أنقل المعركة إلى ساحة العدو .

قلت ضاحكاً:"إذن، هل تلقيت أنت أيضاً واحدة من تلك الرسائل؟". كانت إيمى جريفيث من النساء اللاتى يحتقرن الكذب صمتت لبرهة ـ واحمر وجهها، ثم قالت:"حسناً، نعم ولكنى لم أدعها تقلقنى!".

سألتها بتعاطف:"أكاذيب بذيئة؟".

"بالطبع، فهذه الأشياء بذيئة دائماً . إنها هذيان شخص مخبول . لقد قرأت كلمات قليلة منها، فأدركت فحواها فألقيتها فى سلة المهملات بلا تردد".

"ألم تفكرى فى إبلاغ الشرطة؟".

"كلا، فكثرة الكلام تزيد المشاكل سوءاً ـ هذا هو ما فكرت فيه عندئذٍ".

ألح علىّ هاجس أن أقول لها:"لا دخان بدون نار! "، ولكنى منعت نفسى، ولكى أتجنب هذا الإغراء غيرت مجرى الحديث إلى ميجان .

فسألتها:"ألديك فكرة عن وضع ميجان المالى؟ إنه ليس نوعاً من الفضول، وإنما أريد أن أعرف ما إذا كان يتحتم عليها العمل لكسب قوتها".

"لا أعتقد أنه يتحتم عليها بمعنى الكلمة فقد تركت لها جدتها لأبيها مصدراً صغيراً للدخل على ما أظن، وعلى أى حال، فإن ديك سيمنجتون كان يوفر لها السكن ويتكفل

بها حتى لو لم تترك لها أمها شيئًا . غير أنها مسألة مبدأ".

"أى مبدأ؟".

"العمل يا سيد بيرتون، فليس هناك شىء أهم من العمل بالنسبة للرجل والمرأة . فالكسل ذنب لا يغتفر".

قلت:"لقد فصل السيد إدوارد جيرى، الذى أصبح وزيراً للخارجية فيما بعد، من جامعة أكسفورد بسبب كسله الفظيع . كما أن الدوق ويلنتجون ـ على حد علمى ـ كان كسولاً وغير مهتم بكتبه . ثم، ألم يخطر ببالك يا آنسة جريفيث أنك لم تكونى لتستطيعى استقلال القطار إلى لندن لو أن جورج ستيفنسون كان قد خرج مع أقرانه من الشباب للعمل بدلاً من التسكع فى مطبخ أمه شاعراً بالملل حتى انتبه عقله الكسول إلى الحركة الرتيبة لغطاء غلاية الشاى؟".

لم تقل إيمى شيئًا سوى أن تنهدت بحنق .

فقلت معضداً فكرتى:"إنها نظريتى الخاصة . إذ إننى أرى أننا ندين للكسل ـ سواء كان اختيارياً أو جبرياً ـ بمعظم ابتكاراتنا وإنجازاتنا العظيمة . فالعقل البشرى يفضل أن يتغذى على أفكار الآخرين دون بذل جهد يذكر، ولكن إذا حرم من تلك الرفاهية، فسوف يبدأ التفكير لنفسه ـ وتذكرى أن مثل هذا التفكير هو التفكير الخلاق وربما يؤدى إلى نتائج قيمة".

واصلت كلامى قبل أن تتاح لإيمى الفرصة لإطلاق تنهيدة حانقة أخرى:"فضلاً عن ذلك، فإن الكسل به جانب فنى".

نهضت وأخذت من على مكتبى صورة لطالما لازمتنى، إنها صورتى الصينية المفضلة، وهى تصور رجلاً عجوزاً جالساً تحت شجرة يلعب تشبيك الخيوط بأطراف أصابع يديه .

قلت:"كانت فى المعرض الصينى وقد أعجبتنى اسمحى لى بأن أريك إياها . إنها تدعى"رجل عجوز يستمتع بالكسل".

لم تعجب إيمى بصورتى الجميلة، فقالت:"أوه، حسنًا، إننا جميعًا نعرف طباع الصينيين!".

سألتها:"ألا تروق لك؟".

"بصراحة، كلا ؛ فأنا لا أهتم بالفن كثيراً، كما أن طريقة تفكيرك يا سيد بيرتون لا تختلف عن طريقة تفكير معظم الرجال . فأنتم تكرهون فكرة عمل المرأة ـــ ومنافستها لكم ـــ".

أصابتنى الدهشة، فهأنذا قد أصبحت عدواً للحركة النسائية . استمرت إيمى فى

دفاعها وقد احمرت وجنتاها .

"إنه لا تروق لك فكرة خروج المرأة لميدان العمل، تمامًا كوالدى . فقد كنت مهتمة بدراسة الطب ولكنهما لم يوافقا على دفع مصاريف الدراسة، ومع ذلك فقد كانا مستعدين لدفعها لأوين . لقد كان بإمكانى أن أصبح طبيبة أفضل من أخى".

قلت:"أنا آسف لما حدث معك، فلابد أنه كان شيئًا قاسيًا عليك . فحينما يريد المرء فعل شىء ما ـــ".

واصلت كلامها بسرعة:

"أوه، لقد تغلبت على هذا الآن، فلدى إرادة شديدة لا تقهر، وحياتى مشحونة بالأنشطة المختلفة . إننى واحدة من أسعد الناس فى لايمستوك، ولدى الكثير لأفعله . ولكننى أسعى لهدم الفكرة البالية القائلة بأن مكان المرأة هو بيتها".

قلت:"آسف إن كنت قد آلمتك . وهذه لم تكن وجهة نظرى حقًا، وأنا لا أتصور أن ميجان يمكن أن تكون ربة منزل تقليدية".

"كلا، إنها طفلة مسكينة، ولكنى أخشى أنها لا تصلح لأى شىء". هدأت إيمى وعادت لتتكلم بطريقتها المعتادة مرة أخرى، قائلة:"إن أباها، كما تعرف ـــــــ".

توقفت، فقلت مغتاظًا:"لا أعرف، فالجميع هنا يقولون"إن أباها"ثم يخفضون أصواتهم، ثم لا شىء . ماذا فعل ذلك الرجل؟ ألايزال حيًا؟".

"فى الحقيقة، لا أعرف، وأخشى أنه غامض بالنسبة لى شخصيًا، ولكنه كان سيئًا لا ريب . أعتقد أنه من أرباب السجون، وشخصية غريبة الأطوار إلى حدٍ كبير، لذلك لن أدهش إن كانت ميجان"مختلفة"بعض الشىء".

قلت:"إن ميجان فى كامل قواها العقلية، وكما قلت من قبل، فإننى أعتبرها فتاة ذكية . وأختى تعتبرها كذلك أيضًا . إن جوانا تحبها كثيراً".

قالت إيمى .

"أخشى أن أختك تجد الحياة هنا مملة بالتأكيد".

ما أن قالتها، حتى عرفت شيئًا آخر . إن إيمى جريفيث تكره أختى، فلقد بدا ذلك واضحًا فى نبرة صوتها .

"لقد تساءلنا جميعًا كيف أنكما تستطيعان تحمل العيش فى هذه البقعة النائية".

لقد أجبت عن هذا السؤال من قبل .

صمت لبرهة ثم أضفت قائلاً:"إنها أوامر الأطباء ؛ أن أذهب إلى مكان هادئ جداً لا يحدث فيه شىء مزعج أبداً . ولكن هذا لا ينطبق على لايمستوك فى الوقت الراهن".

"كلا، كلا، أنت محق".

بدت قلقة ثم نهضت وهى تهم بالمغادرة، وقالت عندئذٍ:

"يجب وضع حد لكل هذه الوحشية! فنحن لا نستطيع تحمل استمرار هذا الوضع".

"ألا تفعل الشرطة شيئًا؟".

"من المفترض أن يفعلوا، ولكنى أعتقد أننا يجب أن نتعامل مع هذه السخافات بأنفسنا".

"إننا لا نمتلك ما يمتلكونه من أسلحة".

"هراء! ربما كنا أكثر منهم حنكة وذكاء! ولا ينقصنا سوى القليل من العزيمة".

ثم ودعتنى بسرعة وذهبت . عندما عادت جوانا وميجان قدمت صورتى الصينية لميجان، فتهللت أساريرها، وقالت:"إنها رائعة، أليس كذلك؟ ".

"هذا هو رأيى".

قطبت جبينها بالطريقة التى أعرفها جيداً .

"ولكنه أمر صعب حقًا، أليس كذلك".

"أن يكون المرء كسولاً؟".

"لا، ليس أن يكون كسولاً ـ بل أن يستمتع به، لابد أنه عجوز جداً ـ» .

توقفت عن الكلام، فقلت:"إنه رجل عجوز بالفعل".

"لا أقصد أن يكون عجوزًا بهذا المعنى . بل أقصد أن يكون عجوزًا بـ .....".

قلت:"تقصدين أن على المرء أن يرقى إلى درجة عالية من التحضر حتى تظهر له الأمور على هذا النحو ـ إنها وجهة نظر معقدة؟ أعتقد أنه يجب أن تكملى تعليمك يا ميجان عن طريق قراءة مائة قصيدة مترجمة عن الصينية".

3

قابلت سيمنجتون فى وقت متأخر من اليوم .

سألته:"هل تمانع فى أن تبقى ميجان معنا لفترة من الوقت، إن جوانا سعيدة بها ـ فهى تشعر بالوحدة أحيانًا لعدم وجود أى من أصدقائها حولها".

"أوه ـ من ـ ميجان؟ أوه، نعم، هذا كرم بالغ منك".

كرهت سيمنجتون منذ ذلك الحين كراهية لم أستطع التغلب عليها أبدًا . فقد كان من الواضح أنه نسى كل شيء يمت بصلة لميجان . لم أكن لأبالى لو أنه كان يكره الفتاة ـ فالرجل أحيانًا يغار من أطفال الزوج السابق ـ بيد أنه لم يكن يكرها، بل إنه لم يكن يلاحظ وجودها من الأساس . فمثل سيمنجتون وميجان كمثل رجل لا يهتم بالكلاب وكان هناك كلب بمنزله، فلا ينتبه لوجوده إلا عندما يصطدم به فيوبخه، وأحيانًا يربت عليه شذرًا عندما يأتى ويتمسح به . لقد ضايقتنى اللامبالاة التى أبداها سيمنجتون تجاه ابنة زوجته .

قلت:"ما خططك بشأنها؟".

بدا وكأنه فوجئ بسؤالى، فقال:"بشأن ميجان؟ حسنًا، سوف تعيش كما كانت فى المنزل . أقصد بالطبع، إنه منزلها".

كانت جدتى، التى أحببتها كثيرًا، تغنى أغانى قديمة على الجيتار الخاص بها . واذكر أن نهاية إحدى هذه الأغانى كانت كالتالى:

"أوه يا عزيزتى، أنا لست هنا

ليس لى مكان أو بيت،

لم يعد لى مأوى، فى البحر أو على الشط،

فمكانى الوحيد فى قلبك".

ظللت أرددها وأنا فى طريقى إلى المنزل .

4

جاءت إيميلى بارتون بعد أن انتهينا من تناول الشاى مباشرة .

كانت تريد الحديث عن الحديقة، فأخذنا نتحدث ونحن نتجول هناك لمدة نصف ساعة تقريبًا . ثم عدنا أدراجنا إلى المنزل .

وعندئذٍ أخفضت صوتها، وتمتمت قائلة:"أتمنى ألا تكون هذه الطفلة ـ مستاءة من هذا الحدث المروع".

"أتقصدين موت أمها؟".

"نعم، بالطبع . ولكنى فى الحقيقة قصدت الإساءة المتخلفة عنه".

اعترانى الفضول، فأردت أن أعرف رد فعل الآنسة بارتون .

"ما رأيك فى تلك الإساءات؟ أكانت حقيقية؟".

"كلا، كلا، بالتأكيد لم يكن بها شىء من الحقيقة . فأنا متأكدة تمامًا أن السيدة سيمنجتون لم تكن ـ لم أعنى أنه لم يكن"احمر وجه الآنسة بارتون وارتبكت ـــ"أقصد أن تلك الإساءة ليست حقيقية على الإطلاق ـ على الرغم من أنها قد تكون بمثابة حكم".

قلت محدقًا إليها:"حكم؟".

ازداد احمرار وجه إيميلى بارتون وارتعشت شفتاها .

"لا أستطيع منع نفسى من الشعور بأن هذه الخطابات المروعة، وكل الحزن والألم الذى سببته، ربما يتم إرسالها لغرض ما".

قلت مقطبًا جبينى:"لقد أرسلت لغرض ما، بكل تأكيد".

"كلا، كلا يا سيد بيرتون، لقد أسأت فهمى . إننى لا أتحدث عن هذا المخلوق الضال الذى كتبها ـ فلابد أنه شخص منبوذ تمامًا . وإنما أعنى أن الله قد ابتلانا بها ليوقظ ضميرنا وينبهنا إلى أخطائنا".

قلت:"إن الله لا يجبر الإنسان على فعل الشر، فالشيطان هو من يوعز إلينا بالشرور".

"ما لا أستطيع فهمه حقًا هو ما الذى يدفع أى إنسان إلى فعل شىء كهذا؟".

هززت كتفى، قائلاً:

"عقلية مريضة".

"يبدو أنه إنسان تعيس جدًا".

"لا يبدو لى أنه تعيس، وإنما هو ملعون، وأنا غير نادم على هذا الوصف، بل أعنيه تمامًا".

اختفت الحمرة عن وجنتى الآنسة بارتون وأصبحتا شاحبتين .

"ولكن لماذا، يا سيد بيرتون، لماذا؟ أية سعادة يحصل عليها المرء من شىء كهذا؟".

"لا أستطيع أنا ولا أنت فهم ذلك، وهذا من فضل الله علينا".

أخفضت إيميلى بارتون صوتها، قائلة:

"يقولون إنها السيدة كليت ـ ولكننى لا أستطيع تصديق ذلك حقًا".

هززت رأسى، بينما واصلت حديثها مهتاجة:

"لم يحدث شىء كهذا من قبل ـ على أن أذكر أنه قد كان مجتمعًا صغيرًا يعيش

فى سعادة . ترى ماذا كانت أمى العزيزة لتقول عما يحدث الآن؟ حسنًا إننى أحمد الله لأنها ماتت قبل أن ترى مثل هذه الأشياء".

من خلال ما عرفته عن السيدة بارتون الراحلة فإنها كانت صلبة بما فيه الكفاية لتحمل أى شىء، بل وربما كانت لتستمتع بهذا الحديث المثير .

واصلت إيميلى حديثها:

"إنها تحزننى كثيرًا".

"ألم ـ ألم تتلق رسالة من هذه الرسائل المجهولة؟".

احمر وجهها وقالت:

"أوه، لا ـ أوه، لا، حقًا . أوه! هذا الشىء كان ليصيبنى بالرعب".

اعتذرت بسرعة، ولكنها غادرت مستاءة .

دخلت إلى المنزل . كانت جوانا تقف فى حجرة الرسم بجوار النار التى أشعلتها للتو، حيث كان الجو باردًا الليلة .

"جيرى! لقد وجدت هذا فى صندوق الخطابات، مرسلاً باليد . حيث تقول بداية الخطاب:"أنت أيتها الساقطة".

"ماذا بها أيضًا غير ذلك؟".

قطبت جوانا، قائلة:

"نفس السخافات القديمة".

ألقتها فى النار . قفزت قفزة سريعة آلمت ظهرى والتقطتها قبل أن تمسك فيها النار .

قلت:"كلا، فقد نحتاج إليها".

"نحتاج إليها؟".

"لتقديمها للشرطة".

5

فى صباح اليوم التالى جاء مفتش الشرطة ناش لرؤيتى . منذ اللحظة الأولى التى رأيته فيها أعجبت به، فقد كان نموذجًا مثاليًا لمفتش الشرطة ؛ كان طويل القامة، ذا

مظهر عسكرى، وعيناه تنمان عن الذكاء والفطنة .

قال:"صباح الخير سيد بيرتون، أعتقد أنك تعرف سبب مجيئى إليك".

"نعم، أعتقد أنها مسألة الرسائل".

أومأ برأسه، قائلاً:

"أظن أنك تلقيت واحدة منها".

"نعم، بعد وصولنا هنا مباشرة".

"ما فحواها بالضبط؟".

فكرت لدقيقة، ثم ذكرت له كلمات الرسالة بأكبر قدر ممكن من الدقة .

استمع مفتش الشرطة بوجه خالٍ من التعبيرات . وعندما أنهيت حديثى، قال:"إذن لم تحتفظوا بالرسالة، سيد بيرتون؟".

"آسف، لم نفعل . فقد كنت أظن أنه مجرد نوع من النكاية فى وافدين جدد إلى القرية".

أحنى مفتش الشرطة رأسه متفكراً .

ثم قال فى اقتضاب:"يا للأسف".

قلت:"ومع ذلك فقد تلقت أختى واحدة بالأمس . وأنقذتها بصعوبة بعدما ألقتها فى النار".

"شكراً لك سيد بارتون، فقد كان هذا جميلاً منك".

ذهبت إلى مكتبى وفتحت الدرج الذى وضعتها فيه فقد فكرت أنه ليس من المناسب أن تراها بارتريدج . أخذتها وأعطيتها لناش .

طالعها بسرعة، ثم نظر إلى وسألنى:

"هل لها نفس مظهر الرسالة السابقة؟".

"أعتقد ذلك ـ إن لم تخنى الذاكرة".

"نفس الفارق بين المظروف ونص الرسالة؟ ".

قلت:"نعم، فقد كان المظروف مطبوعًا على آلة كاتبة، أما الرسالة نفسها فقد كانت عبارة عن كلمات مأخوذة من كتاب وملصقة على ورقة بيضاء".

أومأ ناش ووضعها فى حافظته، ثم قال:

"إننى أتساءل يا سيد بيرتون إن كنت تمانع فى المجىء معى إلى قسم الشرطة؟

حيث نستطيع التحاور هناك مع أفراد آخرين ونوفر على أنفسنا الكثير من الوقت والتداخل".

قلت:"بالطبع، هل يمكن أن آتى الآن؟".

"إن لم يكن لديك مانع".

كانت سيارة الشرطة تنتظر أمام الباب، فاستقللنا السيارة متوجهين إلى قسم الشرطة .

قلت:

"أتظن أنك ستصل إلى نتيجة بخصوص هذه المشكلة؟".

أومأ ناش بثقة واضحة .

"أوه، نعم ؛ سوف نصل إلى الفاعل بسهولة .

إنها مسألة وقت و روتين . فهذه القضايا تسير ببطء، ولكن حلها أمر مؤكد . إنها مسألة تضييق الاحتمالات".

قلت:"أتعنى التركيز على أسماء بعينها واستثناء أخرى؟".

"نعم، بالإضافة إلى بعض المهام الروتينية".

أتقصد مراقبة صناديق البريد، وفحص الآلات الكاتبة، والبصمات، وما إلى ذلك؟".

ابتسم قائلاً:"تمامًا، كما تقول".

فى قسم الشرطة وجدنا سيمنجتون وجريفيث هناك وعرفنى ناش على رجل ذى ذقن بارز وطويل يرتدى ملابس مدنية، وقال لى إنه المفتش جريفز .

شرح ناش، قائلاً:"لقد جاء المفتش جريفز من لندن لمساعدتنا . إنه خبير فى قضايا الرسائل مجهولة المصدر".

ابتسم المفتش جريفز ابتسامة كئيبة . فتراءى لى على الفور أن الحياة التى يمضيها صاحبها فى اقتفاء أثر كاتبى الرسائل المجهولة لابد وأن تصيبه بالاكتئاب . ومع ذلك فقد أظهر المفتش جريفز حماسًا به مسحة من الكآبة .

قال بصوت عميق حزين أشبه بكلب بوليسى محبط:"إن هذه القضايا متشابهة إلى حدٍ كبير . فقد تدهش من مدى تشابه كلمات وصياغة هذه الرسائل".

قال ناش:"لقد واجهنا قضية مشابهة منذ عامين وساعدنا المفتش حينئذٍ".

رأيت بعض الرسائل على المنضدة أمام جريفز، لابد وأنه كان يتفحصها .

قال ناش:"من الصعب الحصول على رسائل من هذه النوعية، وذلك لأن الناس إما يحرقونها أو لا يعترفون بتلقيها من الأساس . فالناس هنا ـ كما رأيت بنفسك ـ أغبياء، ويخشون التعامل مع الشرطة، فهم متخلفون إلى حدٍ كبير".

قال جريفز:"غير أننا تلقينا عدداً مناسباً من هذه الرسائل يكفى لبدء التحرى وكشف الجانى". فى تلك الأثناء أخرج ناش الرسالة التى أعطيته إياها وسلمها لجريفز .

ألقى الأخير نظرة سريعة عليها، ثم وضعها بجانب الرسائل الأخرى وقال فى سعادة ورضا:

"رائع جداً ـ رائع جداً".

لم أكن أظن أن هذه الرسائل البذيئة قد تبث السعادة فى نفس أحد، غير أنه يبدو أن للخبراء وجهة نظر خاصة فى هذا الصدد .

قال المفتش جريفز:"أعتقد أننا حصلنا على عدد كافٍ من الرسائل للبدء فى العمل، وسوف أطلب منكم أيها السادة، إذا تلقيتم المزيد منها، أن تبلغونا على الفور ؛ وكذلك إذا سمعتم أن أحداً تلقى رسالة مجهولة المصدر ـ وبخاصة أنت، أيها الطبيب بين مرضاك، فابذلوا ما بوسعكم لإقناعه بالمجىء إلينا وبإبلاغنا بها . لدينا ـــ". قلب الرسائل بأطراف أصابعه، مستطرداً:"واحدة للسيد سيمنجتون تلقاها منذ شهرين، وواحدة للسيد جريفيث، وواحدة للآنسة"جينش"وأخرى لجينيفر كلارك، النادلة بمطعم"ثرى كراونز "، والرسالة التى تلقتها السيدة سيمنجتون، وأخيراً تلك التى تسلمتها الآنسة بيرتون أوه، نعم، ورسالة بعثها لنا مدير البنك".

قلت:"إنها مجموعة تمثل جميع الشرائح".

"ولا تختلف عن القضايا المماثلة! فهى شديدة الشبه بتلك الرسائل التى كانت تكتبها تلك المرأة المخبولة، كما أنها صورة طبق الأصل من تلك الرسائل التى واجهناها فى نورثمبرلاند ـ والتى كتبتها إحدى الطالبات بالمدرسة . بوسعى أن أعلن لكم أيها السادة أننى أود رؤية شىء مختلف".

قلت متمتماً:"لا جديد تحت الشمس".

"بالضبط يا سيدى . ولو كنت تعمل فى مهنتنا لتبين لك صدق هذه المقولة".

تنهد ناش، قائلاً:"نعم، بالفعل".

سأل سيمنجتون:

"هل توصلتم إلى رأى محدد بشأن كاتب هذه الرسائل؟".

"هناك أوجه شبه مشتركة بين كل هذه الرسائل . وسوف أوضحها لكم أيها السادة

لعلها توحى لكم بشىء يساعدنا . إن نص الرسائل يتألف من كلمات مصنوعة من حروف منفصلة قطعت من كتاب مطبوع، إنه كتاب قديم وأظنه قد طبع عام 1830 . ومن الواضح أن هذا النهج قد اتُبع لتجنب خطر التعرف على الكاتب من خلال خط يده والذى يعتبر أمراً بالغ السهولة، كما يعرف الجميع الآن .... وما يسمى باستخدام اليد الخفية فى الكتابة أصبح أمراً غير ذى جدوى إن واجهه خبير محنك . وليس هناك بصمات على الرسائل، كما أن المظاريف لها أشكال مختلفة، وقد تعامل معها رجال البريد، والمرسل إليهم، وهناك رسائل أخرى عليها بصمات غير واضحة، ولكن لا يجمعها شىء واحد، مما يشير إلى أن الراسل كان حريصاً على أن يرتدى قفازات، وقد تمت كتابة العناوين والأسماء على المظاريف بآلة كاتبة مهترئة من طراز وندسور 7 بها حرفا الألف والتاء خارجان على الخط المستقيم . وقد أُرسل معظمها من البريد المحلى أو وضعت باليد فى صندوق الرسائل المنزلى . وقد كتبتها امرأة، وأنا أعتقد أنها امرأة متوسطة العمر أو أكبر، وربما كانت غير متزوجة، على الرغم من أنى غير متأكد".

استمعنا بإنصات لدقيقة أو اثنتين دون أن نقاطعه، ثم قلت:"إنك تراهن على الآلة الكاتبة، أليس كذلك؟ فلابد أنه من السهل الوصول إليها فى قرية صغيرة كهذه؟".

هزّ المفتش جريفز رأسه بحزن وقال:

"إنك مخطئ فى هذا يا سيدى".

قال مراقب الشرطة ناش:"الآلة الكاتبة، للآسف، يسهل الوصول إليها . فهى آلة قديمة من مكتب السيد سيمنجتون، وقد تبرع بها لصالح جمعية المرأة، وأعتقد أنه من السهل للغاية الوصول إليها، حيث يذهب الكثير من السيدات هنا إلى الجمعية".

"ألا تستطيع تحديد شىء معين من اللمسة الفنية، كما تطلقون عليها؟".

أومأ جريفز مرة أخرى .

"نعم، هذا ممكن بالطبع ـ غير أن المظاريف قد طبعت كلها بواسطة شخص يستخدم إصبعاً واحداً".

"هو إذن شخص غير محترف فى استخدام الآلة الكاتبة؟".

"كلا، أنا لا أعنى ذلك . بل أعنى أنه شخص يجيد استخدام الآلة الكاتبة ولكنه لا يريدنا أن نتعرف على حقيقته".

"أياً كان كاتب هذه الأشياء فلابد أنه ماكر".

قال جريفز:"إنها يا سيدى تستخدم كل الحيل الممكنة".

قلت:"لم أكن أظن أن هؤلاء النسوة القرويات لديهن هذه العقول".

سعل جريفز، قائلاً:

"أخشى أننى لم أكن واضحاً، ولكن هذه الرسائل كتبت على يد امرأة مثقفة".

"ماذا، أتعنى أنها"ليدى "؟".

خرجت منى الكلمة عفوياً . فلم استخدم هذه الكلمة"ليدى"منذ سنوات . ولكنها الآن جاءت على شفتى تلقائياً، بعد مضى أيام طوال منذ أن عرفت إياها، منذ أن كانت جدتى تقول بصوت تفوح منه رائحة العجرفة التلقائية:"بالطبع إنها ليست"ليدى"يا عزيزى".

فهم ناش ما أقصده على الفور . فقد كانت كلمة"ليدى"لا تزال تعنى شيئاً بالنسبة له .

قال:"ليس بالضرورة أن تكون"ليدى "، ولكنها بالتأكيد ليست امرأة قروية . فمعظمهن أميّات هنا لا يستطعن هجاء الكلمات، وقطعاً لا يستطعن التعبير بطلاقة".

لذت بالصمت بعدما صدمت بهذه التعقيدات . إذ إن المجتمع هنا صغير للغاية . وقد تخيلت فى اللاوعى أن كاتبة الرسائل هى السيدة كليت وأضرابها من النساء، فهى امرأة ماكرة .

صاغ سيمنجتون أفكارى بكلمات، حيث قال بحدة:"ولكن هذا يضيق نطاق البحث إلى ست أو اثنتى عشرة امرأة على الأكثر!".

"هذا صحيح".

"لا أصدق".

عندئذٍ قال سيمنجتون بصوت تكسوه نبرة المرارة، وكأنه يخرج الكلمات بصعوبة:

"لقد سمعت ما ذكرته فى الاستجواب . وإذا ما كنت تعتقد أن تلك الشهادة كانت بناء على رغبة منى لحماية ذكرى زوجتى، فإننى أود أن أكرر الآن أننى مقتنع تمام الاقتناع بأن كل ما ورد فى الرسالة التى تسلمتها زوجتى كان محض افتراءات . لقد كانت زوجتى إنسانة حساسة ورقيقة للغاية، وربما يمكنكم اعتبارها عصبية . ومثل هذه الرسالة من شأنها أن تسبب لها صدمة نفسية عنيفة، بالإضافة إلى أنها كانت معتلة الصحة".

رد جريفز على الفور:

"هذا صحيح إلى حدٍ كبير يا سيدى، فهذه الرسائل لا تشير إلى أن كاتبها واثق من معلوماته . إنها مجرد اتّهامات عمياء . ولم يكن هناك ابتزاز . ولا يبدو أن بها أى تحيز دينى ـ كما يحدث فى بعض الأحيان . إنها فقط مليئة بالجنس والبغضاء! وهذا يعطينا مؤشراً جيداً للتعرف على الكاتب".

نهض سيمنجتون، وقال بشفتين مرتعشتين:"أتمنى أن تجد الشيطانة التى كتبت هذه الرسائل اللعينة سريعاً . لقد قتلت زوجتى كما لو أنها قد غرست سكيناً فى قلبها "،

صمت قليلاً، ثم أضاف:"إننى أتساءل، ما شعورها الآن؟". خرج تاركًا السؤال دون إجابة .

سألت:"ما شعورها الآن يا جريفيث؟". وبدا لى أن الإجابة فى نطاق اختصاصه .

"الله أعلم . ومن جانب آخر، فقد تكون مستمتعة بقوتها . فلابد أن موت السيدة سيمنجتون قد أشبع جنونها".

قلت برعشة خفيفة:"لا أتمنى ذلك . لأنها إن كانت كذلك، فسوف ـــــ".

ترددت فيما أنهى ناش عبارتى، قائلاً:"فسوف تحاول مرة أخرى؟ إن هذا ما نتمنى حدوثه يا سيد بيرتون . وتذكر أن الظمآن يذهب للبئر كثيراً".

صحت قائلاً:"سوف تكون مجنونة إن واصلت عملها هذا".

قال جريفز:"سوف تواصل . فهذا النوع دائماً ما يفعل . إنه شىء يجرى فى دمائهم ولا يستطيعون التخلص منه".

هززت رأسى وأنا أرتعد . ثم سألتهم إن كانوا يحتاجون إلىّ فى شىء آخر، فقد كنت أريد الخروج فى الهواء، حيث بدا الجو هنا مفعماً بالشر .

قال ناش:"لا يوجد لدينا المزيد يا سيد بيرتون كل ما عليك هو أن تبقى عينيك مفتوحتين، وتبذل ما بوسعك للدعاية ـ كأن تحث الجميع على إبلاغنا بأى رسالة يتلقونها من هذا النوع".

أومأت برأسى، قائلاً:

"أعتقد أنه ما من أحد هنا إلا وتلقى رسالة من هذا النوع".

قال جريفز:"هل تعرف أحداً، على وجه التحديد، لم يتلق رسالة؟".

"ياله من سؤال غريب! فليس من المتوقع أن يبوح كل السكان بأسرارهم".

"كلا، كلا يا سيد بيرتون، إننى لم أقصد ذلك . فقط أردت أن أتساءل إن كنت تعرف أى شخص وتثق تماماً أنه لم يتلق رسالة مجهولة".

ترددت، ثم قلت:"حسنًا:"أعرف إلى حدٍ ما".

ثم ذكرت له الحوار الذى دار بينى وبين إيميلى بارتون وما قالته لى .

تلقى جريفز المعلومة بوجه جامد خال من التعبير، ثم قال:"حسنًا، قد يأتى هذا بفائدة . سوف أسجله".

خرجت فى شمس ما بعد الظهيرة مع أوين جريفيث . وما أن وطأت الشارع حتى صحت بأعلى صوتى:

"ما هذا المكان الذى جئت إليه من أجل الاسترخاء والاستمتاع بدفء الشمس والاستشفاء؟ إنه مكان ملىء بالسموم الفتاكة، على الرغم من أنه يبدو ظاهرياً مكاناً آمناً وجميلاً كجنة على الأرض".

قال جريفيث بطريقة جافة:"حتى أفضل الأماكن بها شياطين".

"أخلصت إلى شىء يا جريفيث؟ هل خرجت منهم بأية فكرة عن الموضوع؟".

"لا أدرى، فالشرطة لديها أساليبها الخاصة . حيث يبدون صرحاء معك، ولكنهم لا يخبرونك بشىء".

"نعم، إن ناش شرطى لطيف".

"كما أنه قدير كذلك".

قلت بنبرة اتهام:"إن كان هناك معتوه فى هذه البلدة، فيجب أن تعرفه".

هزّ جريفيث رأسه، وبدا محبطاً، ولكنه كان أكثر من ذلك ـ لقد كان قلقاً . فتساءلت إن كان لديه فكرة من نوع ما .

أخذنا نسير عبر الشارع الرئيسى، ثم توقفت عند باب وكلاء العقارات .

"أعتقد أن الدفعة الثانية من الإيجار قد حان وقتها . لقد فكرت فى دفعها، ثم الرحيل مباشرة أنا و جوانا".

قال أوين:"لا تفعل".

"لِمَ لا؟".

لم يجب ولكنه قال ببطء بعد دقيقة أو دقيقتين:"على كل ـــ أعتقد أنك محق . فلم تعد لايمستوك مكاناً صحياً . بل ربما كانت ضارة عليك أنت وأختك".

قلت:"لا شىء يضر جوانا، فهى صلبة، ولكنى أنا الضعيف . فهذه الأحداث تؤثر على حالتى بشدة".

قال أوين:"تؤثر على حالتك؟".

دفعت باب وكلاء المنزل ففتحته نصف فتحة .

قلت:"ولكنى لن أذهب . فالفضول أقوى عندى من الألم . إننى أريد معرفة الحل".

دلفت إلى الداخل .

نهضت امرأة كانت تكتب على الآلة الكاتبة، وتقدمت نحوى . كان شعرها مجعداً وابتسامتها متكلفة، ولكنى وجدتها أكثر ذكاء من تلك الفتاة ذات النظارات والتى كانت تتمايل فى المكتب الخارجى .

بعد دقيقة أو اثنتين خطر على بالى شىء مألوف فقلت:"إنها الآنسة جينش، التى أصبحت فيما بعد كاتبة لدى سيمنجتون . علقت على هذه الحقيقة، قائلاً:

"لقد كنت تعملين بمكتب"جالبريث، سيمنجتون "، أليس كذلك؟".

"بلى، بلى، حقًا . ولكننى كنت أعتقد أنه من الأفضل أن أترك ذلك المكان . فهذه وظيفة جيدة، وإن كان مرتبها ليس كبيراً . ولكن هناك أشياء أهم من المال، أليس كذلك؟".

قلت:"بلا شك".

تنهدت الآنسة:"تلك الرسائل الرهيبة . لقد تلقيت واحدة منها ؛ تتحدث عنى أنا وسيمنجتون ـ أوه، لقد كانت فظيعة، وكل ما بها كان مرعبًا! لقد عرفت واجبى وأخذتها إلى الشرطة، على الرغم من أنها لم تكن لطيفة بالمرة، أليس كذلك؟".

"بلى، بلى، إنها رسائل وقحة".

"ولكنهم شكرونى وقالوا لى إننى فعلت الصواب . ولكنى شعرت بعد ذلك بأنه من المؤكد أن الناس فى البلدة كانوا يتحدثون عنى ـ ولابد أنهم كانوا يفعلون، وإلا من أين حصل كاتب الرسالة على الفكرة؟ ـ فيجب على تجنب الشائعات، على الرغم من أنه لم يكن هناك أى شىء بينى وبين السيد سيمنجتون".

شعرت بالحرج الشديد .

"بلى، بلى، بالطبع لم يكن بينك وبينه شىء".

"ولكن عقول الناس مليئة بالشر، نعم إنها عقول شريرة!".

على الرغم من المحاولات المضنية، إلا أن عينىّ التقت بعينيها واكتشفت شيئًا فظيعًا .

فقد كانت الآنسة جينش مستمتعة بما حدث .

ها قد وجدت اليوم شخصًا يتفاعل بسعادة مع الرسائل المجهولة . لقد كان حماس المفتش جريفز حماسًا مهنيًا . أما استمتاع الآنسة جينش فقد تراءى لى موحيًا بشىء وكريهًا فى الوقت ذاته .

ولمعت فكرة فى ذهنى المشوش .

هل الآنسة جينش هى من يكتب الرسائل؟

الفصل السابع

1

عدت إلى المنزل فوجدت السيدة دين كالثروب جالسة وتتحدث مع جوانا . بدت لى كئيبة ومريضة .

قالت:"لقد كانت هذه صدمة مروعة لى يا سيد بيرتون مسكينة، مسكينة".

قلت:"نعم، إنه لشىء مروع أن تفكرى فى شخص يقوده أحدهم إلى حد الانتحار".

"أوه، أتقصد السيدة سيمنجتون؟".

"ألا ترين أنت ذلك؟".

هزت السيدة كالثروب رأسها، قائلة:

"بالطبع إن المرء ليأسف عليها، ولكن ذلك كان سيحدث على أية حال، أليس كذلك؟".

قالت جوانا بجفاء:"سيحدث؟".

التفتت دين كالثروب إلى جوانا .

"أوه، أعتقد ذلك يا عزيزتى . إذا كان الانتحار وسيلتك للهروب من المشاكل فلا يهم كثيراً نوعية المشكلة التى أدت إلى ذلك . فلو أنها واجهت صدمة كبيرة، لارتكبت نفس الفعلة . إذن فالمهم أنها كانت من هذه النوعية من النساء اللاتى يبغضهن الجميع ؛ فقد كانت أنانية وغبية ومتشبثة بالحياة . يخيل لمن يراها أنها ليست من النوع الذى يحزن الإنسان من أجله ـ ولكننى بدأت أدرك كم كنت لا أعرف الكثير عن الآخرين".

قلت معلقًا:"ولكنى مازلت أشعر بالفضول لمعرفة من تقصدين بقولك"مسكينة"".

أخذت تحدق إلى، ثم قالت:

"إنها المرأة التى تكتب الرسائل، بالطبع".

قلت بجفاء:"لا أعتقد أن مثل هذه المرأة تستحق أى تعاطف".

مالت السيدة دين كالثروب إلى الأمام . ووضعت يدها على ركبتها، قائلة:

"لكن ألا تفهم ـ ألا تشعر؟ استخدم خيالك . فكر فى مدى الإحباط والتعاسة التى يعانى منها قطعاً كل من يكتب هذه الأشياء . كم هى وحيدة ومنعزلة عن الآخرين! تتجرع السموم واحداً تلو الآخر ولا تجد متنفساً لها إلا بهذه الطريقة . لذا فإننى أشعر بتأنيب الضمير، لأن فى هذه البلدة من يعيش فى كل هذه التعاسة، ولا أعرف عنه شيئاً كان لابد أن أعرفه . يمكنك تغيير مجرى الأحداث ـ لا أفعل ذلك أبداً . ولكن الشعور بالتعاسة أشبه بذراع متعفنة، انتفخت وأسود لونها . ولو أحدثت فيها ثقباً وتركت السم يتدفق لتخلص من كل سمومها دون أن يصيبها أذى . نعم، إنها مسكينة، مسكينة".

نهضت وهمت بالمغادرة .

لم أكن متفقاً معها فى الرأى . فلم أستطع أن أكن أى نوع من التعاطف مع كاتب رسائلنا المجهولة أياً كان ما به، ولكننى سألت بفضول:

"سيدة كالثروب، ألديك أية فكرة عن هوية هذه المرأة؟".

نظرت إلىّ بعينيها الصغيرتين المرتبكتين، قائلة:

"حسناً، أستطيع أن أخمن . لكننى قد أكون مخطئة، أليس كذلك؟".

وفيما كانت عند الباب مستعدة للخروج ـ استدارت لتسأل:

"أخبرنى، لماذا لم تتزوج حتى الآن يا سيد بيرتون؟".

لو أن شخصاً آخر هو من طرح هذا السؤال لقلت إنه وقح . ولكنك تشعر بأن الفكرة قد طرأت فجأة على ذهنها وأنها أرادت حقاً أن تعرف .

قلت مستجمعاً قواى:"هل يمكن القول إننى لم أقابل المرأة المناسبة؟".

قالت السيدة كالثروب:"يمكننا قول ذلك، ولكنها ليست بالإجابة السديدة، لأنه من الواضح أن الكثير من الرجال تزوجوا من نساء غير مناسبات؟".

فى هذه المرة غادرت بالفعل .

قالت جوانا:

"إننى أظن أنها مجنونة حقاً، ولكنى أحبها، إن الناس فى القرية هنا يخشونها".

"وهكذا أنا، إلى حدٍ ما".

"ألأنك لا تستطيع توقع تصرفاتها؟".

"نعم . بالإضافة إلى تخميناتها الغريبة".

قالت جوانا ببطء:"هل تعتقد أن كاتب هذه الرسائل تعيس حقاً؟".

"لا أدرى ما الذى تفكر فيه أو تشعر به هذه الشيطانة اللعينة! فهذا لا يعنينى فى شىء . ولكن ضحاياها هم الذين آسف عليهم".

بدا لى غريباً الآن أن تحليلنا لعقلية صاحبة القلم المسموم أهمل أوضح الجوانب . فقد تصورت جريفيث أنها ربما تكون مبتهجة، بينما تخيلتها أنا نادمة ـ مذعورة مما جنت يداها . أما السيدة كالثروب فترى أنها تشعر بمعاناة شديدة .

غير أن رد الفعل الواضح والحتمى الذى نفكر فيه ـ أو بالأحرى لم أفكر أنا فيه ـ هو الخوف .

فبعد موت السيدة سيمنجتون، انتقلت الرسائل من فئة إلى أخرى . لا أعرف الموقف القانونى بالضبط ـ وإن كنت أعتقد أن سيمنجتون يعرف، ولكن من الواضح أنه مع موت شخص بفعل أحد هذه الرسائل، فقد أصبح موقف كاتبة الرسائل أكثر خطورة . فمما لاشك فيه أنه إذا ما تم اكتشاف هوية كاتبة الرسائل المجهولة فلن يؤخذ الأمر على أنه مجرد هزل . وقد نشطت الشرطة وتم استدعاء خبير من سكوتلاند يارد . وعلى هذا أصبح من الضرورى لكاتبة الرسائل المجهولة أن تظل مجهولة .

ومع التسليم بأن الخوف هو رد الفعل الأساسى، فإن ثمة أشياء قد تترتب عليه . ومع أننى أجهل ماهية هذه الأشياء، إلا أننى واثق من أنها ستحدث .

2

نزلت أنا وجوانا لتناول الإفطار فى وقت متأخر من صباح اليوم التالى، وذلك التأخير لا يتناسب مع عادات سكان لايمستوك . فقد كانت الساعة التاسعة صباحاً، وحينما كنا فى لندن كانت جوانا فى تلك الساعة تفتح عينيها بالكاد، بينما أكون أنا لا أزال غارقاً فى النوم . ومع ذلك فحينما قالت بارتريدج:

"موعد الإفطار فى الساعة الثامنة والنصف، أم التاسعة؟". لم أقو أنا ولا جوانا على اقتراح تأخيره ساعة أخرى .

وقد شعرت بالضيق حينما رأيت إيمى تتحدث مع ميجان عند عتبة الباب .

وكعادتها أطلقت للسانها العنان عند رؤيتنا .

"مرحباً أيها الكسالى! لقد استيقظت منذ ساعات".

لقد كان هذا بالطبع شأنها وحدها . فعلى الطبيب أن يتناول إفطاره مبكراً، وعلى الأخت الوفية أن تصب له الشاى، أو القهوة . ولكن لا عذر لها فى المجىء وإزعاج الجيران النائمين، فالتاسعة والنصف ليست بالموعد المناسب للزيارات الصباحية .

عادت ميجان إلى حجرة الطعام لإكمال إفطارها الذى ـ حسبما أعتقد ـ قطعته عليها إيمى .

قالت إيمى جريفيث:"من المناسب ألا أدخل"ـ على الرغم من أننى لا أدرى ما الذى يجعل إجبار الناس على المجئ والتحدث معهم على عتبة الباب أكثر ميزة من التحدث معهم داخل البيت . واصلت حديثها:"لقد أردت فقط أن أطلب من الآنسة بيرتون إذا كان لديها أية خضراوات فائضة أن ترسلها إلى جمعية"رد ستول"على الطريق الرئيسى . إن كان الأمر كذلك، فسوف أبلغ أوين لأخذها بسيارته".

قلت:"لقد استيقظت مبكرًا، وتتجولين مبكرًا".

قالت إيمى:"البركة فى البكور كما يقولون . كما أن فرصتى أكبر فى إيجاد الناس فى هذا الوقت من اليوم . سوف أذهب إلى السيد باى، ثم إلى برينتون عصر اليوم".

قلت:"إن نشاطك يشعرنى بأننى متعب جدًا". وفى تلك اللحظة دق جرس الهاتف فعدت إلى الردهة للرد عليه، تاركًا جوانا تتمتم بتشكك عن البازلاء والفاصوليا الفرنسية مظهرة جهلها بخضراوات الحديقة .

قلت فى الهاتف:"مرحبًا".

جاءنى صوت مرتبك .

على الطرف الآخر من الخط كان هناك من يتلقط أنفاسه بارتباك ثم سمعت صوتًا أنثويًا يبدو عليه التشكك:"أوه!".

قلت مرة أخرى مشجعًا:"مرحبًا".

قال الصوت مرة أخرى:"أوه"ثم تساءلت بارتباك:"هل هذا ـ أقصد ـ هل هذا منزل ليتل فيرز؟".

"نعم، هو ليتل فيرز".

"أوه". بدا لى أن هذه الكلمة لابد أن تأتى فى افتتاحية كل جملة . تساءل الصوت بحذر:"أيمكننى محادثة الآنسة بارتريدج لدقيقة واحدة فقط؟".

قلت:"بكل تأكيد . أقول لها من؟".

"أوه، قل لها آجنس وودل".

"آجنس وودل؟".

"نعم".

مقاومًا إغراء أن أقول"دونالد دك يتحدث معك "، وضعت سماعة الهاتف وصحت

مناديًا على بارتريدج فى الطابق الثانى حيث كنت أسمع تحركاتها فى الطابق الثانى .

"بارتريدج! بارتريدج!".

ظهرت بارتريدج أعلى السلم وبيدها ممسحة طويلة وفى عينيها نظرة تقول:"ما الأمر الآن؟"؛ تلك النظرة التى تطل من خلف أسلوبها المهذب .

"نعم، سيدى؟".

"آجنس وودل تريد الحديث معك على الهاتف".

"معذرةً يا سيدى؟".

رفعت صوتى، قائلاً:"آجنس وودل".

"آجنس وودل ـ ماذا تريد الآن؟ ".

متخلية عن هدوئها، ألقت بارتريدج الممسحة وهرولت على السلم، حتى أن رداءها كان يسمع له صوت من شدة اهتياجها .

ولكيلا أتطفل عليها عدت إلى غرفة الطعام، حيث وجدت ميجان تتناول إفطارها بنهم . وعلى العكس من إيمى جريفيث فلم تكن ميجان تبدى"وجهًا صبوحًا مشرقًا "، حتى أنها ردت علىّ تحية الصباح بتجهم، ثم تناولت طعامها فى صمت .

فتحت جريدة الصباح وبعد دقيقتين أو ثلاث دخلت جوانا وهى تبدو مشتتة بعض الشىء .

قالت:"ووه! لقد تعبت . أعتقد أننى كشفت عن جهلى التام بمواعيد زراعة الخضراوات . ألا توجد فاصوليا فى هذا الوقت من العام؟".

قالت ميجان:"فى أغسطس".

قالت جوانا:"حسنًا، إن المرء يستطيع أكلها فى لندن فى أى وقت".

قلت:"إنها معلبة، يا جميلتى الحمقاء، وجاءت إلينا مجمدة على سفن من أقصى البلاد".

سألت جوانا:"مثل العاج والأبنوس والطواويس؟". ثم قالت متفكرة:"لكم أحب أن يكون لدى طواويس".

قالت ميجان:"أما أنا فأحب أن يكون لدى قرد". قالت جوانا وهى تقشر برتقالة:

"إننى أتساءل كيف يكون شعورى لو كنت مثل إيمى جريفيث المفعمة بالصحة والحيوية والاستمتاع بالحياة . أتعتقدون أنها شعرت من قبل بالتعب، أو الاكتئاب أو ـــ أو الحزن؟".

قلت إننى متأكدة من أن إيمى جريفيث لم تحزن يومًا، ولحقت بميجان عند الشرفة .

بينما أنا واقفة أملأ غليونى، سمعت بارتريدج تدخل حجرة الطعام قادمة من الردهة وسمعتها تقول بتجهم:"أيمكن أن أتحدث معك لدقيقة سيدتى؟".

تمنيت ألا تبدى بارتريدج ملحوظة بأن إيميلى بارتون ستتضايق منا إذا فعلنا كذا وكذا .

واصلت بارتريدج حديثها:"يجب أن أعتذر يا سيدتى عن اتصال أحدهم بى هنا . أقصد أن تلك الفتاة الصغيرة كان ينبغى أن تنتهج سلوكًا أفضل، فأنا لم أعتد على استخدام الهاتف ولم أسمح لأحد من صديقاتى بالاتصال بى هنا . وأنا آسفة جدًا أن تصادف وتلقى سيدى المكالمة". قالت جوانا مهدئة إياها:"لماذا؟ لا بأس بذلك إطلاقًا، لماذا ينبغى على أصدقائك ألا يتصلوا بك إذا أرادوا محادثتك؟".

شعرت بأن وجه بارتريدج ـ وإن كنت لا أراه ـ قد أصبح أكثر صرامة وهى تقول ببرود:

"إن مثل تلك الفعلة لم تحدث إطلاقًا فى هذا البيت . ولم تكن الآنسة إيميلى بارتون لتسمح بذلك أبدًا . وكما قلت فإننى آسفة على حدوثه، ولكن آجنس وودل تلك الفتاة التى فعلت هذه الفعلة كانت قلقة وهى صغيرة جدًا أيضًا ولا تعرف السلوكيات اللائقة فى بيوت السادة". قلت بينى وبين نفسى سعيدًا:"هذه ضربة يا جوانا".

واصلت بارتريدج:"إن المتصلة تدعى آجنس، يا سيدتى، وقد اعتادت على الخدمة هنا تحت إشرافى . كانت تبلغ من العمر 16 عامًا عندئذ، وقد جاءت إلى هنا من الملجأ مباشرة . ولأنه لم يكن لها بيت، أو أم، أو أى من الأقارب يقدم لها النصيحة، فقد اعتادت اللجوء إلىّ لأقدم لها النصائح".

قالت جوانا:"ثم ماذا؟"قد كان من الواضح أن هناك المزيد من الكلام .

"لذا فإننى أتشجع لأسألك ما إذا كان من الممكن أن تسمحى لآجنس بأن تأتى إلى هنا وتناول الشاى معى بعد الظهر فى المطبخ . فاليوم هو عطلتها، وكما ترين فهناك شىء يقلقها وتريد استشارتى فيه، ولم أكن لأجرأ على طلب شىء كهذا فى الأحوال العادية".

قالت جوانا مرتبكة:

"ولكن لماذا ينبغى ألا يأتى أى أحد لتناول الشاى معك؟".

انتصبت بارتريدج عندئذٍ، هذا ما قالته جوانا فيما بعد، وبدت متحفزة وهى ترد قائلة:

"لم نعتد على ذلك فى هذا البيت يا سيدتى . فلم تسمح السيدة بارتون أبداً بقدوم زوار إلى المطبخ، فيما عدا يوم إجازتنا، وفى تلك الحالة كان يسمح لنا بقضاء بعض الوقت مع الأصدقاء هنا بدلاً من الخروج، ولكن بخلاف ذلك، فى الأيام العادية، لم يكن يسمح باستقبال أى زوار . وتحافظ الآنسة إيميلى على هذه القواعد القديمة".

إن جوانا متلطفة جداً مع الخدم ومعظمهم يحبونها ولكنها لم تستطع إذابة الجليد بينها وبين بارتريدج .

قلت عندما ذهبت بارتريدج وانضممت إلى جوانا بالخارج:"لا فائدة يا عزيزتى، فإن تعاطفك ولينك لم يقابلا بالتقدير . فالقواعد القديمة المتكلفة تتناسب مع بارتريدج ولابد من اتباع السلوكيات اللائقة فى بيوت السادة".

"لم أسمع عن مثل هذه الغطرسة من قبل، كيف لا يسمحون لهم برؤية أصدقائهم؟ حسنًا يا جيرى ولكنهم لا يمكن أن يحبوا معاملتهم كالعبيد".

قلت:"من الواضح أنهم يحبون هذه المعاملة، على الأقل بارتريدج".

"لا أستطيع تخيل سبب بغضها لى، بينما معظم الناس يحبوننى".

"ربما تبغضك لأنك ربة منزل غير قديرة، فأنت لا تمررين يديك على الأرفف لتعرفى إن كان بهما بقايا أتربة عالقة كما أنك لا تنظرين تحت السجاد، ولا تسألين عما حدث لبقايا كعكة الشيكولاتة، ولا تطلبين أبداً كريم الخبز اللذيذ".

قالت جوانا:"أوه!".

ثم استطردت بحزن:"لقد فشلت فى كل شىء اليوم ؛ فقد احتقرتنى إيميلى جريفيث لجهلى بمملكة الخضراوات، وازدرتنى بارتريدج لمعاملتى إياها بإنسانية . يجب أن أذهب الآن إلى الحديقة وآكل الدود".

قلت:"إن ميجان هناك بالفعل".

كانت ميجان تتجول هناك منذ بضع دقائق، وهى الآن تقف بلا هدف وسط العشب مثل طائر متأمل ينتظر طعامه .

غير أنها جاءت إلينا وقالت بعصبية:

"أعتقد أننى يجب أن أعود إلى المنزل اليوم".

قلت مستاء:"ماذا؟".

واصلت كلامها بوجه تكسوه الحمرة، ولكنها كانت تتحدث بعزم وتصميم .

"لقد كنتم فى غاية الكرم معى وأظن أننى كنت مصدر إزعاج لكما، لكننى استمتعت برفقتكما كثيراً، وعلىّ أن أغادر الآن، لأنه منزلى على أية حال ولا يستطيع المرء

الابتعاد عن منزله للأبد، لذا أعتقد أننى سأغادر هذا الصباح".

حاولت أنا وجوانا إثناءها عن رأيها، ولكنها كانت مصرة، وأخيراً أخرجت جوانا السيارة وصعدت ميجان إلى الطابق العلوى، وهبطت بعد بضع دقائق وهى تحمل متعلقاتها".

كانت بارتريدج الشخص الوحيد الذى بدا سعيداً، فقد كانت ترسم ابتسامة على وجهها المتجهم، حيث إنها لم تحب ميجان أبداً .

كنت أقف فى وسط العشب عندما عادت جوانا .

سألتنى إذا ما كنت أعتقد أننى ساعة شمسية .

"لماذا؟".

"لأنك تقف مثل تمثال الحديقة، غير أننا لا نستطيع أن نضع عليك المؤشر الذى يحدد الساعات الشمسية . لقد كنت متعكر المزاج".

"إننى فى حالة مزاجية سيئة . فقد استيقظنا على صوت إيمى جريفيث". تمتمت جوانا:"يا إلهى! أكان على أن أتحدث عن تلك الخضراوات!". وأضفت:"ثم غادرتنا ميجان، وقد كنت أنوى التريض بصحبتها حتى ليج تور".

قالت جوانا:"أعتقد أنك كنت ستأخذ معك طوقاً وحبلاً".

"ماذا؟".

كررت جوانا عبارتها بصوت مرتفع بينما استدارت حول ركن المنزل متجهة إلى حديقة المطبخ:

"لقد قلت: (أعتقد أنك كنت ستأخذ معك طوقاً وحبلاً؟) لقد فقد السيد كلبه، وهذا ما يضايقك الآن!".

3

يجب أن أعترف بأننى تضايقت من الطريقة التى غادرتنا بها ميجان . ربما ملت منا فجأة .

فعلى كل حال، لم تكن حياتنا مسلية لفتاة فى مثل سنها . أما فى منزلها فهناك طفلان وإلسى هولاند .

سمعت وقع خطوات جوانا فتحركت بسرعة حتى لا تمطرنى بمزيد من تعليقاتها

الوقحة عن الساعة الشمسية .

جاء أوين جريفيث بسيارته قبل الغداء بوقت قصير، وقد كان البستانى فى انتظاره بخضراوات الحديقة .

وبينما كان آدمز العجوز يضع الخضراوات فى السيارة، دعوت أوين للدخول معى إلى البيت لتناول بعض العصير . ولم يكن مقرراً أن يبقى معنا إلى الغداء .

وعندما دخلت بالشراب وجدت جوانا قد بدأت تنصب شباكها .

لم يكن هناك أى مؤشرات للعداء حتى الآن . فقد كانت متكومة فى ركن الأريكة وهى تطرح على أوين أسئلة عن عمله ؛ ما إذا كان يحب عمله كممارس عام، وما إذا كان يفضل التخصص فى ناحية معينة . وقد كانت ترى أن مهنة الطب واحدة من أروع الأشياء فى العالم .

يمكنك أن تقول عنها ما تشاء، ولكن جوانا مستمعة رائعة . وبعد استماعها للكثيرين ممن يدعون العبقرية والذين يخبرونها بمدى التجاهل الذى يلقونه وعدم تقدير عبقريتهم، فإن استماعها إلى أوين جريفيث أمر فى غاية اليسر . ولم يمض الكثير من الوقت حتى كان أوين يخبرها ببعض التفاعلات والأمراض الغامضة مستخدماً تلك المصطلحات الطبية التى لا يستطيع أحد فهم كلمة منها إلا إذا كان طبيباً .

كانت جوانا تتظاهر بالذكاء والاهتمام البالغ .

شعرت للحظة بتأنيب الضمير . فلم يكن يجدر بجوانا أن تتلاعب بأوين جريفيث ذلك الرجل الطيب .

إن النساء ماكرات حقاً .

ثم أخذت أدقق النظر فى الجزء الجانبى لوجه أوين جريفيث، ورأيت لحيته الطويلة وشفتيه المتجهمتين، فشككت فى قدرة جوانا على نيل مرادها . وعلى أية حال ينبغى على الرجل ألا يجعل نفسه دمية فى يد امرأة تتلاعب به كيفما تشاء . وإن فعل فليتحمل العواقب .

وعندئذٍ قالت جوانا:

"غير رأيك يا سيد جريفيث وابق معنا على الغداء "، فاحمر وجه جريفيث، وقال إنه كان يتمنى ذلك لولا أن أخته تنتظر عودته .

قالت جوانا بسرعة:"سوف نتصل بها ونشرح لها الأمر "، ثم خرجت إلى الردهة ونفذت ما قالت .

أعتقد أن جريفيث كان مضطرباً بعض الشىء، وخطر ببالى أنه كان يخشى أخته .

عادت جوانا مبتسمة وقالت إن الأمور على ما يرام .

ومكث معنا أوين جريفيث حتى موعد الغداء، وبدا لى أنه مستمتع . تحدثنا عن الكتب والسياسة وألاعيبها، كما تحدثنا عن الموسيقى والرسم وفن العمارة الحديثة .

لم نتحدث مطلقاً عن لايمستوك أو الرسائل المجهولة، أو انتحار السيدة سيمنجتون .

وأحسب أن أوين جريفيث كان سعيداً بحديثنا . فقد أشرق وجهه الأسمر الحزين، وكشف عن عقلية مشوقة .

عندما غادر قلت لجوانا:

"إنه رجل طيب ولا يستحق منك التلاعب به".

قالت جوانا:

"هذا ما تقوله أنت! فأنتم معشر الرجال تشدون من أزر بعضكم البعض!".

"لماذا تحاولين الإيقاع به يا جوانا؟ أهو كبرياؤك المجروح؟".

قالت أختى:"ربما".

4

كان من المقرر أن نذهب عصر اليوم لتناول الشاى مع الآنسة إيميلى بارتون فى غرفتها التى تقيم بها فى القرية .

ذهبنا سيراً على الأقدام، وذلك لأننى شعرت بالقوة الكافية لصعود التل فى طريق عودتنا .

ولابد أننا أخطأنا فى تقدير الوقت اللازم لقطع الطريق فوصلنا مبكراً، وقد فتحت لنا الباب امرأة طويلة قاسية الملامح وأخبرتنا بأن الآنسة بارتون لم تعد بعد .

"ولكنى أعرف أنها تنتظركما، لذا تفضلا بالدخول وانتظارها من فضلكما".

كان من الواضح أن هذه المرأة هى المخلصة فلورنسا .

تبعناها صاعدين الدرج حتى فتحت باباً وأدخلتنا غرفة جلوس مريحة جداً، وإن بدت مكتظة بالأثاث إلى حدٍ ما . وشككت أن بعض هذا الأثاث قد جاء من ليتل فيرز .

كان من الواضح أن المرأة فخورة بحجرتها .

فقالت:"إنها غرفة جميلة، أليس كذلك؟".

قالت جوانا بحماس:"جميلة جداً".

"أعمل على راحتها قدر الإمكان، وإن كنت لا أستطيع خدمتها كما ينبغى . فقد كان ينبغى أن تكون فى منزلها، فهذا ما يليق بها، لا أن تعيش فى حجرتين".

كانت فلورنسا تنظر إلىّ أنا وجوانا نظرة تنم عن التوبيخ . فشعرت بأن هذا ليس يوم حظنا فقد تعرضت جوانا للتقريع على يد كل من إيمى جريفيث وبارتريدج، وها نحن نتعرض للتقريع على يد فلورنسا سليطة اللسان .

أضافت قائلة:"لقد عملت هناك مديرة للمنزل لمدة خمسة عشر عاماً".

قالت جوانا، وهى تشعر بالقهر:"حسناً، لقد ارتضت الآنسة بارتون ترك المنزل، ووضعته تحت تصرف وكلاء العقارات".

قالت فلورنسا:"لقد أجبرت على ذلك، وهى تعيش حياة مقتصدة وحريصة، ومع ذلك لم تتركها الحكومة وشأنها! فكان عليها أن تدفع الكثير من الضرائب".

هززت رأسى بحزن .

قالت فلورنسا:» لقد كان هناك الكثير من المال فى أيام السيدة العجوز، ثم مات الجميع واحدة بعد الأخرى، آه يا عزيزاتى المساكين . وقد كانت الآنسة إيميلى تمرضهن واحدة بعد الأخرى . وقد أفنت زهرة شبابها وهى صابرة دون أن تتذمر أو تشكو . ولكن ذلك أثر عليها، ولم يقتصر الأمر على هذا وحسب، بل كان ينقصها القلاقل والأزمات المالية أيضاً لتضاعف أحزانها! فلم تعد الأسهم تدر عليها عوائد كالعادة، ولكن لماذا لم تعد تدر عوائد؟ أريد أن أعرف . كان عليهم أن يخجلوا من أنفسهم وهم يخدعون سيدة مثلها لم يعد ذهنها قادراً على التعامل مع الأرقام ولا تستطيع مسايرة حيلهم".

قلت:"ولكن الجميع تعرضوا لهذه المشاكل "، ولكن فلورنسا لم تلن أو تهدأ .

"لا بأس بذلك لمن لديهم القدرة على الاعتناء بأنفسهم، أما بالنسبة لها هى فالأمر مختلف . إنها تحتاج إلى رعاية، ومادامت معى فلن أسمح لأحد بأن يقلقها أو يضايقها بأى شكل من الأشكال . إننى مستعدة لفعل أى شىء من أجل الآنسة إيميلى".

وحدقت إلينا لبضع لحظات حتى تتأكد من أننا فهمنا المقصود من هذه العبارة، ثم تركتنا فلورنسا القاسية وأغلقت الباب وراءها بحرص .

تساءلت جوانا:"أتشعر بأنك مصاص دماء يا جيرى؟ لأننى أشعر بذلك . ما هذا الذى يحدث لنا؟ ".

قلت:"يبدو أننا لا نحظى بالقبول، فقد ملت منا ميجان، ووبختك بارتريدج، وها هى المخلصة فلورنسا توبخنا نحن الاثنان".

تمتمت جوانا:"إننى أتعجب، لماذا غادرتنا ميجان؟ ".

"لابد أنها شعرت بالملل فى صحبتنا".

"لا أعتقد ذلك على الإطلاق . هل تعتقد أن إيمى جريفيث أخبرتها بشىء كان السبب فى رحيلها؟".

"تقصدين هذا الصباح، عندما كانتا تتحدثان عند عتبة الباب".

"نعم، لم تبقيا معًا لفترة طويلة، بالطبع، ولكن ــ".

قاطعتها، مكملاً جملتها:

"ولكن وطأة تلك المرأة قوية ربما ـ".

فُتح الباب ودخلت الآنسة إيميلى بارتون . كان وجهها محمرًا بعض الشىء، وبدت مرهقة ومتقطعة الأنفاس إلى حدٍ ما . كانت عيناها الزرقاوان تلمعان .

حيتنا بطريقة توحى بشرودها الذهنى .

"أوه، يا أعزائى، آسفة لتأخيرى . فقد كنت أقوم بجولة تسوقية فى البلدة، ولم يرق لى الكعك فى مخبز بلو روز، حيث بدا أنه غير طازج، لذا ذهبت إلى مخبز السيدة ليجون . إننى أحب دائمًا شراء الكعك فى نهاية جولتى التسوقية حتى أحصل عليه طازجًا بعد خروجه من الفرن مباشرة، بدلاً من شراء كعك اليوم السابق . ولكننى مستاءة من تركككما تنتظران ـ إن هذا أمر لا يغتفر حقًا ـ ".

قاطعتها جوانا قائلة:

"إنه خطأنا نحن يا سيدة بارتون . فقد جئنا سيرًا على الأقدام وأصبح جيرى يقفز بسرعة الآن، لذا وصلنا قبل موعدنا".

"كلا، لا تقولى ذلك يا عزيزتى، فالمرء لا يمل أبدًا من الصحبة الجميلة".

ربتت السيدة العجوز على كتف جوانا بحنان .

تهللت أسارير جوانا، فأخيرًا بدا أنها أحرزت نجاحًا . ثم شملتنى إيميلى بارتون بابتسامتها، ولكن بمسحة من التحفظ، تمامًا كما يقترب المرء من نمر ضمن للحظة أنه لن يؤذيه .

"كم هو لطيف منك يا سيد بيرتون أن تحضر مناسبة نسائية مثل تناول الشاى".

أعتقد أن إيميلى بارتون لديها صورة ذهنية عن الرجال تظهرهم كأناس يتناولون الكحوليات ويدخنون السجائر، وفى أوقات الاستراحة يخرجون لإغواء فتيات القرية وتكوين علاقات غرامية مع النساء المتزوجات .

عندما قلت ذلك لجوانا لاحقًا، ردت بأن إيميلى بارتون ربما كانت تفكر فى اللاوعى أن يقابلها رجل من هذه النوعية، ولكن ـ من أسفها ـ لم يحدث ذلك أبدًا .

فى هذه الأثناء كانت السيدة إيميلى بارتون تضع أمامى أنا وجوانا مناضد صغيرة، وتضع عليها بعضًا من منافض السجائر بحذر، وبعد دقيقة فُتح الباب ودلفت فلورنسا حاملة صينية شاى عليها أكواب فاخرة خمنت أن إيميلى بارتون قد أحضرتها معها . كان الشاى صينيًا ولذيذًا وكانت هناك شطائر رقيقة من الخبز والزبدة وبعض الكعك .

كانت فلورنسا متهللة الأسارير الآن، ونظرت إلى إيميلى كما تنظر الأم بسعادة إلى طفلها الحبيب وهو يستمتع بدمى حفلة الشاى .

أكلت أنا وجوانا أكثر مما كنا نريد، حيث كانت مضيفتنا تضغط علينا بإلحاح لتناول المزيد . كان من الواضح أن السيدة الصغيرة تستمتع بحفلة الشاى التى أعدتها، وأدركت أننى وجوانا نعتبر بالنسبة لإيميلى بارتون مغامرة كبرى ؛ شخصين من عالم لندن الغامض والمعقد .

وبالطبع تطرق حديثنا إلى الأوضاع المحلية . تحدثت الآنسة بارتون بحماس عن الطبيب جريفيث وعن شخصيته اللطيفة ومهاراته كطبيب . وكذلك السيد سيمنجتون، إنه محام ماهر جدًا وساعد السيدة بارتون على استرداد بعض المال من ضرائب الدخل التى لولاه ما كانت لتعرف عنها شيئًا . كما أنه لطيف جدًا مع أطفاله ويكرس نفسه لهم ولزوجته ـ قاطعت نفسها قائلة:"مسكينة السيدة سيمنجتون، إنه لأمر فظيع أن يترك هؤلاء الأطفال أيتام الأم . ربما لم تكن أمًا قوية قط ـ كما أن صحتها كانت معتلة مؤخرًا . لابد أنها كانت نوبة عصبية . لقد قرأت عن مثل هذه الأشياء فى الجرائد، حيث لا يعرف المرء ما يصدر عنه من أفعال فى ظروف مثل هذه . ولابد أنها لم تكن تعرف ما تفعل وإلا لتذكرت السيد سيمنجتون وأطفالها ".

قالت جوانا:"لابد أن تلك الرسالة المجهولة قد صدمتها صدمة عنيفة".

احمر وجه السيدة بارتون، وقالت بنبرة من التوبيخ فى صوتها:

"أعتقد أنه لا يجدر بنا الخوض فى هذا الموضوع غير اللطيف، أليس كذلك؟ أعرف أن هناك رسائل، ولكننا لن نتحدث عنها، فهى أشياء مثيرة للاشمئزاز . لذا أعتقد أنه من الأفضل تجاهلها".

حسنًا، ربما كانت السيدة إيميلى بارتون قادرة على تجاهلها، ولكن بالنسبة لمعظم الناس لم يكن هذا بالأمر السهل . ومع ذلك فقد غيرت مجرى الحديث وتحدثنا عن إيمى جريفيث .

قالت إيميلى بارتون:"يا لها من فتاة رائعة، رائعة جدًا إن حيويتها وقدراتها التنظيمية كبيرة حقًا . كما أنها لطيفة مع الفتيات أيضًا، وهى عملية للغاية وعصرية فى جميع

المجالات . إنها تدير هذا المكان حقاً، بالإضافة إلى تكريسها حياتها لأخيها . إنه لأمر رائع أن ترى هذا الإخلاص بين الأخ وأخته".

سألت جوانا:"ألا يشعر بأنها تتحكم فى حياته إلى حدٍ ما؟".

حدقت إليها إيميلى بارتون بنوع من الفزع .

وقالت لها بنبرة تنم عن التوبيخ:"لقد ضحت بالكثير من أجله".

رأيت عينى جوانا تشيران بعلامات السخرية، فسارعت بتغيير دفة الحوار إلى السيد باى .

كانت إيميلى بارتون مرتبكة بعض الشىء عندما تحدثنا عن السيد باى .

فكل ما قالته عنه، وكررته بنبرة تشكك، أنه لطيف جداً ـ نعم لطيف جداً، وأنه طيب وكريم أيضاً . وأنه أحياناً يأتيه زوار غرباء جداً، ولكن هذا طبيعى لأنه كان يسافر كثيراً .

اتفقنا معها فى أن السفر لا يعمل على توسيع أفق المرء فحسب، بل إنه يؤدى أيضاً إلى تكوين معارف غريبة .

قالت إيميلى بارتون بحزن:"لكم تمنيت الخروج فى رحلة بحرية . فأنا اقرأ كثيراً عن هذه الرحلات فى الصحف وهى تبدو جذابة".

سألتها جوانا:"لِمَ لا تخرجين فى رحلة كهذه؟".

يبدو أن محاولة تحويل هذا الحلم إلى حقيقة قد دق جرس الإنذار عند إيميلى بارتون، فقالت:"أو، لا، لا هذا مستحيل".

"ولكن لماذا؟ إنها رخيصة جداً؟".

"أوه، ليست التكلفة وحسب هى السبب، ولكننى لا أحب السفر وحدى، فهذا يبدو لى وضعاً شاذاً جداً، أليس كذلك؟".

قالت جوانا:"كلا".

نظرت إليها السيدة إيميلى بتشكك .

"ولا أعرف كيف أتعامل مع أمتعتى ـ والوقوف على أرصفة الموانئ الأجنبية ـ وكل تلك العملات المختلفة ـ".

بدا لى أن عدداً لا يحصى من العقبات قد ظهرت أمام السيدة الصغيرة الخائفة، فأسرعت جوانا بتهدئتها عن طريق سؤالها عن مهرجان الحدائق ومعرض المشغولات اليدوية . وقد قادنا هذا تلقائياً إلى السيدة كالثروب .

بدت مسحة خفيفة من التشنج على وجه السيدة إيميلى بارتون .

قالت:"إنها امرأة غريبة حقًا يا عزيزتى، وخاصة تلك الأشياء التى تقولها أحيانًا".

سألتها عن هذه الأشياء .

"أوه، لا أعرف بالضبط، إنها أشياء غير متوقعة إطلاقًا . والطريقة التى تنظر بها إليك، كما لو كنت غير موجود هناك بل شخص آخر ـ إننى أعبر عن ذلك بطريقة سيئة ولكن من الصعب توصيل الانطباع الذى أقصده . ثم إنها لن، حسنًا، لن تتدخل أبدًا . فهناك الكثير من القضايا التى تستطيع زوجة رجل الدين تقديم النصح بشأنها . ويمكنها تقويم الناس وجعلهم يصلحون حياتهم . ولأن الناس يصغون إليها، فأنا متأكدة من أنهم سيهابونها . ولكنها تصر على الانعزال والابتعاد، ولديها تلك العادة الغريبة بالشعور بالأسف على أناس لا يستحقون أى أسف على الإطلاق".

تبادلت نظرة سريعة مع جوانا، قائلاً:"هذا مثير حقًا".

"ومع ذلك فهى امرأة كريمة النسب، فهى سليلة أسرة فاروای من بيلباث، وهى أسرة عريقة ولكن تلك الأسر العريقة تكون غريبة الأطوار أحيانًا، ولكنها تكرس حياتها لزوجها، ذلك الرجل الحاد الذكاء ـ والذى أخشى أنه ضيع هذا الذكاء فى تلك البلدة . إنه رجل طيب ونقى، ولكنى دائمًا أجد عباراته اللاتينية مربكة".

قلت بحماس موجهًا كلامى لجوانا:"اسمعى، اسمعى".

قالت جوانا:"لقد تلقى جيرى تعليمه فى مدرسة عامة مرتفعة التكاليف، لذا فإنه لا يفهم اللاتينية".

وقد جعل هذا إيميلى بارتون تتطرق إلى موضوع جديد .

قالت:"إن مديرة المدرسة هنا شابة كريهة جدًا . أخشى أنها شيوعية حتى النخاع "، وقد أخفضت صوتها عند نطق كلمة"شيوعية". وأثناء صعودنا التل فى طريقة عودتنا، قالت لى جوانا:

"إنها امرأة لطيفة".

5

على العشاء فى تلك الليلة، قالت جوانا لبارتريدج إنها تتمنى أن تكون حفلة الشاى التى أقامتها قد نجحت .

احمر وجه بارتريدج وزادت صلابتها .

"شكراً لك يا سيدتى، ولكن آجنس وودل لم تحضر على أية حال".

"أوه، آسفة".

قالت بارتريدج:"إن الأمر لم يكن يهمنى من الأساس".

كانت مستاءة إلى الحد الذى جعلها تتنازل وتفضى لنا بضيقها .

"لم أكن أنا التى فكرت فى طلبها! بل هى التى اتصلت وقالت إن هناك شيئًا يقلقها، وطلبت المجىء إلى هنا، على أساس أنه يوم إجازتها . وقلت لها إننى لا أوافق إذا سمحت أنت بذلك، وقد سمحت لى . وبعد ذلك لم أسمع أو أرى منها شيئًا! ولم تكلف نفسها وتعتذر عن عدم المجىء، وإن كنت أتمنى أن أتلقى منها رسالة اعتذار صباح الغد . إن هؤلاء الفتيات لا يعرفن حدودهن وليست لديهن فكرة عن السلوكيات اللائقة".

حاولت جوانا تضميد مشاعر بارتريدج الجريحة .

"ربما داهمتها بعض المتاعب الصحية، ألم تتصلى بها لتستكشفى الأمر؟".

انتصبت بارتريدج مرة أخرى .

"كلا، لم أفعل يا سيدتى . إن كانت آجنس تحب التصرف بوقاحة فهذا شأنها، ولكننى سأوبخها عندما نتقابل".

خرجت بارتريدج من الغرفة وهى لا تزال متصلبة الملامح وضحكنا أنا وجوانا .

قلت:"ربما كانت إحدى حالات"عمود نصائح العمة نانسى (إن مشاعر خطيبى باردة جداً تجاهى، ما الذى ينبغى علىّ فعله حيال هذا الأمر؟) ومع فشل العمة نانسى، كان عليها اللجوء إلى بارتريدج طلبًا للنصيحة، بيد أنه تم حل المشكلة وأتوقع فى هذه اللحظة أن آجنس وخطيبها يتنزهان معًا وهما فى غاية السعادة".

ضحكت جوانا وقالت إنها توقعت الأمر نفسه .

بدأنا الحديث عن الرسائل المجهولة وتساءلنا عما يمكن أن يكون قد توصل إليه ناش وجريفز الكئيب:"لقد مضى أسبوع بالتمام منذ انتحار السيدة سيمنجتون . ولابد أنهم قد توصلوا إلى شىء ما الآن . بصمات الأصابع أو خط اليد أو شىء ما".

أجبتها وأنا شارد الذهن، ففى عقلى الباطن كان هناك شىء لا يريحنى وآخذ فى التنامى، وكان يرتبط على نحو ما بعبارة"أسبوع بالتمام"التى استخدمتها جوانا .

أجرؤ على القول بأنه كان علىّ أن أتوصل إلى تلك الحقيقة مسبقًا . فربما كان عقلى متشككًا بالفعل .

على أية حال فإن الخميرة تعمل الآن، والقلق آخذ فى التزايد ـ حتى بلغ مبلغه .

لاحظت جوانا فجأة أننى لم أكن أنصت إليها .

"ما الخطب يا جيرى؟".

لم أرد عليها لأن ذهنى كان مشغولاً بالربط بين الأشياء .

انتحار السيدة سيمنجتون ..... وجودها بمفردها عصر ذلك اليوم .... بمفردها فى المنزل، وذلك لأن الخادمات كن فى يوم إجازتهن .. منذ أسبوع بالتمام .

"جيرى، ماذا ـ".

قاطعتها .

"جوانا، إن الخادمات يأخذن عطلات مرة واحدة فى الأسبوع، أليس كذلك؟".

قالت جوانا:"نعم ويتناوبن أيام الأحد، ما الذى ـ؟ ".

"لا عليك بأيام الأحد، هل يخرجن فى نفس اليوم طوال الأسبوع؟".

"نعم، هذا هو المعتاد".

كانت جوانا تتحدث إلى بفضول، فلم يلتقط عقلها الخيط الذى التقطته أنا .

وقفت وقمت بدق الجرس، فجاءت بارتريدج .

قلت:"أخبرينى عن آجنس وودل هذه، هل تعمل خادمة؟".

"نعم يا سيدى، فى بيت السيدة سيمنجتون ، أو حرى بى الآن القول بيت السيد سيمنجتون".

أخذت نفسًا عميقًا ونظرت إلى الساعة . فوجدتها تشير إلى العاشرة والنصف .

"هل تعتقدين أنها عادت إلى المنزل الآن؟".

كانت بارتريدج تنظر إلىّ باستهجان .

"نعم سيدى . إن الخادمات يجب أن يكن هناك قبل العاشرة . إنهن يتبعن التقاليد القديمة".

قلت:"سوف أجرى مكالمة هاتفية".

خرجت إلى الردهة وتبعتنى جوانا وبارتريدج . كانت بارتريدج مغتاظة جداً، بينما كان جوانا متحيرة . فقالت بينما كنت أطلب الرقم:

"ماذا تفعل يا جيرى؟".

"أود التأكد من أن الفتاة قد عادت بسلام".

تنهدت بارتريدج، مجرد تنهيدة لا أكثر . ولكننى لا أبالى إطلاقًا بتنهيدات بارتريدج

.

ردت إلسى هولاند على الهاتف .

قلت:"آسف على الاتصال . معك جيرى بيرتون . هل ـ أجاءت ـ خادمتكم آجنس إلى البيت؟".لم أشعر بالحماقة إلا بعدما قلت ما قلت . لأنه إذا ما كانت الفتاة بالبيت ولم يمسها سوء، فكيف سأبرر اتصالى وسؤالى عنها .

كان من الأفضل أن أدع جوانا تطرح هذا السؤال، وإن كان ذلك يحتاج أيضاً إلى مبرر . لقد تنبأت بموجة جديدة من النميمة فى لايمستوك تدور حولى أنا وآجنس وودل المجهولة".

بدت إلسى هولاند مندهشة .

"آجنس؟ أوه بالتأكيد إنها هنا الآن؟ ".

شعرت بالحماقة، ولكننى واصلت .

"هلا تأكدت من وجودها يا آنسة هولاند؟".

هناك شىء لابد من قوله عن كياسة المربيات ؛ إنهن معتادات على فعل ما يؤمرن به دون أن يسألن عن السبب! وضعت إلسى السماعة وذهبت طائعة .

بعد دقيقتين سمعت صوتها .

"هل لا تزال على الخط يا سيد بيرتون؟".

"نعم".

"لم تصل آجنس بعد . وقد تأكدت من ذلك".

عرفت عندئذ أن حدسى كان فى محله . سمعت ضوضاء على الطرف الآخر من الخط، ثم تحدث إلى السيد سيمنجتون نفسه:"مرحبًا، سيد بيرتون، ما الخطب؟".

"لم ترجع خادمتك آجنس بعد".

"كلا . لقد تأكدت الآنسة هولاند تواً من ذلك . ما الخطب؟ لم يقع لها حادث، أليس كذلك؟".

قلت:"كلا، ليس حادثًا".

"أتعنى أن لديك سببًا للاعتقاد بأن ثمة شيئًا قد حدث للفتاة؟".

قلت متجهما:"لن أندهش إن حدث لها شىء".

الفصل الثامن

1

لم أهنأ بالنوم تلك الليلة . فقد كانت أجزاء اللغز تسبح أمام ذهنى . وأعتقد أننى لو فكرت فيها بإمعان ؛ لكنت قد توصلت إلى حل اللغز بأكمله عندئذٍ وأنا مستلقى على فراش، وإلا فلماذا تلح هذه الأجزاء على مخيلتى بهذا الشكل؟ .

ما مقدار ما نعرفه فى أى وقت؟ أعتقد أننا نعرف أكثر مما ندرك معرفتنا به! ولكننا لا نستطيع النفاذ إلى تلك المعرفة الخفية . إنها هناك، ولكننا لا نستطيع الوصول إليها .

استلقيت على سريرى وأخذت اتقلب متململاً، ولم يطرأ على ذهنى سوى أجزاء غامضة من اللغز، الأمر الذى عذبنى طوال الليل .

كان هناك نمط منتظم فى إرسال هذه الخطابات، فقط لو استطعت الإمساك بهذا الخيط . كان يجب أن أعرف كاتب هذه الرسائل اللعينة: هناك فى مكان ما، فقط لو استطعت تتبعه ...

حينما أغمضت عينى لأنام، تراقصت الكلمات أمام ذهنى المشوش دونما ترتيب .

"لا دخان بدون نار» . لا دخان بدون نار . دخان .... دخان؟ الساتر الدخانى .... لا، كان ذلك فى الحرب ـ عبارة حربية . حرب ... قصاصة ورق ... مجرد قصاصة ورق . بلجيكا ـ ألمانيا .

رحت فى نوم عميق، وحلمت بأننى آخذ السيدة دين كالثروب، للتنزه بعد أن تحولت إلى كلب صيد فى عنقه طوق أمسكه بحبل .

2

استيقظت فجأة على رنين الهاتف، رنين متصل ملح .

جلست فى الفراش ونظرت إلى ساعتى . كانت الساعة السابعة والنصف . لم ينادنى أحد . كان الهاتف يدق بالطابق الأسفل فى الردهة .

قفزت من على الفراش، وارتديت ملابس النوم، وهرعت لأسفل . سبقت بارتريدج التى كان قادمة عبر الباب الخلفى للمطبخ . رفعت السماعة .

"مرحبًا".

"أوه ـ كان بالصوت نبرة استغاثة ـــ أهذا أنت؟". إنه صوت ميجان . بدا صوتها مذعورًا؟"أوه، من فضلك تعال ـ تعال . أوه أرجوك تعال! هل ستأتى؟".

"سآتى فورًا . هل تسمعيننى؟ فورًا".

صعدت السلم درجتين درجتين وهرعت إلى جوانا .

"جوانا، إننى ذاهب إلى منزل سيمنجتون".

رفعت جوانا شعرها الأشقر من على الوسادة وفركت عينيها كطفلة صغيرة .

"لماذا ـ ماذا حدث؟".

"لا أعرف . إنها تلك الطفلة ـ ميجان . لقد بدت مذعورة".

"ما الذى حدث فى اعتقادك؟".

"إنها الفتاة آجنس، إن لم أكن مخطئًا".

وبينما كنت عند الباب، صاحت جوانا، قائلة:

"انتظر، سوف آتى معك لأوصلك بالسيارة".

"لا داعى لذلك، سوف أقودها بنفسى".

"إنك لا تستطيع قيادة السيارة".

"بل، أستطيع".

وقد قدتها فعلاً . وقد آلمتنى ساقى ولكن ليس كثيرًا . اغتسلت وحلقت ذقنى وارتديت ملابسى، وأخرجت السيارة وقدتها متوجهًا إلى بيت سيمنجتون حتى وصلت هناك خلال نصف ساعة من تلقى مكالمة ميجان الهاتفية . وهذه فترة لا بأس بها .

لابد أن ميجان كانت ترقب وصولى، فقد خرجت من المنزل مسرعة واحتضنتنى . كان وجهها الصغير ممتقعًا ومرتعشًا .

"أوه، ها قد أتيت ـ ها قد أتيت!".

قلت:"تماسكى يا عزيزتى . نعم قد أتيت، والآن ما الأمر؟".

بدأت ترتجف، فوضعت ذراعى حولها .

"لقد ـ لقد وجدتها".

"وجدت آجنس؟ أين؟".

زادت حدة الارتعاش .

"أسفل الدرج، هناك خزانة تحته، بها طعم الصيد وأدوات الجولف وأشياء أخرى كما تعرف".

أومأت ؛ إنها تلك الخزانات المعتادة .

استطردت ميجان:

"كانت هناك ـ ملقاة ـ و ... وباردة ـ باردة جداً . لقد كانت ـ كانت ميتة، يا له من أمر فظيع!".

سألتها بفضول:"ما الذى جعلك تنظرين هناك؟".

"لا ـ لا أعرف . بعدما اتصلت بنا ليلة أمس، بدأنا نتساءل عن مكان آجنس . وقد انتظرنا لبعض الوقت، ولكنها لم تأت، وأخيراً ذهبنا لننام . لم أنم جيداً واستيقظت مبكراً لم يكن هناك سوى روز (الطاهية، كما تعرف) . كانت غاضبة جداً لعدم عودة آجنس".

"وقالت إنها كانت من قبل فى أحد البيوت عندما هربت فتاة بمثل هذه الطريقة . ثم تناولت بعض اللبن والخبز والزبد فى المطبخ، وفجأة دخلت على روز وهى تبدو غريبة، وقالت إن ملابس الخروج الخاصة بآجنس لاتزال فى حجرتها . لقد كانت أفضل ملابسها التى ترتديها عند الخروج . فبدأت أتساءل ما إذا كانت قد تركت المنزل من الأساس، وبدأت البحث عنها ثم فتحت الخزانة الواقعة تحت السلم و ـــ ووجدتها هناك ...".

"هل اتصل أحدكم بالشرطة".

"نعم، إنهم هناك الآن . لقد اتصل زوج أمى على الفور . وعندئذٍ شعرت ـ شعرت بأننى لا أستطيع تحمل الموقف فاتصلت بك . هل لديك مانع؟ ".

قلت:"كلا، لا مانع لدى على الإطلاق".

نظرت إليها بفضول .

"هل أعطاك أحدهم عصيراً أو قهوة أو شايًا بعدما ـ بعدما وجدتها؟".

هزت ميجان رأسها بالنفى .

صببت اللعنات على كل أهل بيت سيمنجتون . ذلك المغرور سيمنجتون لم يفكر إلا فى الاتصال بالشرطة . ويبدو أن لا إلسى هولاند ولا الطاهية فكرتا فى تأثير ما حدث على تلك الطفلة الحساسة التى اكتشفت أمر الجثة".

قلت:"تعالى يا عزيزتى، سوف نذهب إلى المطبخ".

درنا حول البيت ودخلنا من الباب الخلفى إلى المطبخ . كانت روز ـ تلك المرأة البدينة ذات الوجه المنتفخ والتى تبدو فى الأربعين من عمرها ـ تحتسى قدحاً من الشاى بجوار المدفأة . حيتنا بسيل دافق من الكلام ويدها على قلبها .

قالت لى إنها قد فزعت وأصيبت بصدمة عنيفة عند اكتشافها ذلك الأمر الرهيب! فقط فكر فى الأمر، كان يمكن أن تكون هى، كان يمكن أن يكون أى واحد منهم، مقتولاً على فراشه .

قلت:"صبى قدحاً من ذلك الشاى للآنسة ميجان، فهى من تلقت الصدمة كما تعرفين . تذكرى أنها من اكتشفت أمر الجثة".

مجرد ذكر الجثة أصاب روز بالفزع مرة أخرى، ولكنى رمقتها بنظرة حادة فصبت كوباً من الشاى الثقيل .

قلت لميجان:"اشربى هذا يا فتاتى العزيزة . أعتقد أنك لم تشربى أى عصير، أليس كذلك يا روز؟".

قالت روز بتشككك إن هناك بعضاً من عصير البرتقال منذ البارحة .

قلت:"هذا يفى بالغرض". ثم صبت روز كوباً من العصير لميجان . رأيت فى عينى روز استحسان تلك الفكرة .

قلت:"هل أستطيع الاعتماد عليك للاعتناء بالآنسة ميجان؟". ردت روز بطريقة مطمئنة، قائلة:"أوه، نعم سيدى".

ودلفت إلى المنزل . من خلال معرفتى بنوعية الشخصيات المشابهة لشخصية روز كنت متأكداً من أنها ستجد أنه عليها أن تتناول القليل من الطعام لكى تحافظ على قواها، وهذا أمر جيد بالنسبة لميجان أيضاً . يا لهؤلاء الجاحدين، لماذا لا يهتمون بتلك الطفلة؟".

وتوجهت إلى إلسى هولاند بالردهة وأنا أكاد أنفجر من شدة الغيظ والغضب . لم تبد عليها المفاجأة لرؤيتى . أعتقد أن الإثارة الشديدة الناتجة عن اكتشاف أمر الجثة، جعلت أهل المنزل لا يبالون بمن يأتى أو يذهب . كان المفتش، بيرت روندل، يقف عند الباب الأمامى تنهدت إليسى هولاند، قائلة:

"أوه، سيد بيرتون، أليس هذا رهيباً؟ من ذا الذى يستطيع ارتكاب هذا الشىء

الفظيع؟".

"هى جريمة قتل إذن؟".

"أوه، نعم . لقد ضربها أحدهم على مؤخرة رأسها . إنها مغطاة بالدم والشعر ـ أوه يا له من أمر رهيب ـ وتم حشرها داخل تلك الخزانة . من ذا الذى يستطيع الإقدام على هذا العمل الشرير؟ ولماذا؟ مسكينة آجنس، أنا متأكدة أنها لم تؤذ أحداً".

قلت:"كلا . لابد أن أحدهم رأى أن التخلص منها مسألة ضرورية".

حدقت إلى . أدركت أنها ليست ذكية ولكنها قوية الأعصاب . كان مزاجها عادياً ولكنها كانت تشعر ببعض الاهتمام والإثارة، حتى أنه قد هيئ لى أنها تستمتع بهذه الأحداث الدرامية بطريقة ما، على الرغم من رقة قلبها .

قالت معتذرة:"علىّ أن أذهب لأعتنى بالأطفال، فالسيد سيمنجتون حريص جداً على عدم إصابتهم بصدمة . إنه يريدنى أن أبقيهم بعيداً".

قلت:"لقد سمعت أن ميجان هى من اكتشف أمر الجثة، ألم يعتن أحد بها؟".

للحق بدت إلسى هولاند متألمة الضمير .

قالت:"أوه يا عزيزتى، لقد نسيتها تماماً . أتمنى أن تكون بخير . لقد كنت مرتبكة، كما تعرف، بالإضافة إلى وجود الشرطة وما إلى ذلك ـ ولكن كان هذا خطأ منى . يا للفتاة المسكينة لابد أنها منهارة الآن . سوف أذهب وألقى نظرة عليها".

شعرت ببعض الارتياح، وقلت:

"إنها بخير، وروز تعتنى بها . يمكن أن تذهبى إلى الأطفال".

شكرتنى، وابتسمت فكشفت عن صف من الأسنان البيضاء، وهرعت صاعدة الدرج .

فعلى كل حال، فإن مهمتها رعاية الطفلين، وليس ميجان ـ ميجان ليست مهمة أحد . لقد عينت إلسى للاعتناء بأبناء سيمنجتون، ومن ثم لا يستطيع المرء لومها على ذلك .

بينما كانت عند منحنى الدرج، حبست أنفاسى . حيث لمحت فى عينيها بريق الانتصار، فبدت أقرب إلى امرأة قوية وجميلة منها إلى مربية حية الضمير .

عندئذٍ فتح الباب ودخل المفتش ناش إلى الردهة وسيمنجتون خلفه .

قال:"أوه، سيد بيرتون، لقد كنت على وشك الاتصال بك . إننى سعيد لرؤيتك".

لم يسألنى عن سبب مجيئى الآن".

التفت إلى سيمنجتون وقال:

"سأستخدم هذه الحجرة إذا سمحت".

كانت حجرة صغيرة بها نافذة تطل على الجانب الأمامى من المنزل .

بالطبع يمكنك ذلك سيدى .

كان سيمنجتون رابط الجأش، ولكن بدا عليه الإرهاق الشديد .

قال المفتش ناش بلطف:

"لو كنت مكانك لتناولت بعض الطعام يا سيد سيمنجتون . فسوف تشعر أنت والسيدة هولاند والآنسة ميجان بتحسن كبير إذا تناولتم بعض القهوة والبيض واللحم . فمن الصعب مواجهة جريمة قتل بمعدة خاوية".

كان يتحدث بطريقة ودية كما لو كان طبيب الأسرة .

ابتسم سيمنجتون ابتسامة واهنة وقال:

"شكراً لك أيها المفتش، سوف آخذ بنصيحتك".

تبعت ناش إلى الحجرة الصغيرة، حيث أغلق الباب، وقال:

"لقد جئت إلى هنا بسرعة . كيف عرفت بالخبر؟".

أخبرته بأن ميجان حادثتنى . وشعرت بالود تجاه ناش، فهو لم ينس أن ميجان فى حاجة أيضاً إلى تناول إفطار .

"سمعت أنك اتصلت ليلة أمس يا سيد بيرتون للسؤال عن هذه الفتاة، فما الأمر؟".

أعتقد أن هذا كان غريباً . فأخبرته باتصال آجنس ببارتريدج ثم عدم مجيئها، فقال:"نعم، أفهم ...".

قالها ببطء وتمعن وكان يحك ذقنه ثم تنهد، قائلاً:

"حسناً، إنها جريمة قتل الآن وهذا الأمر واضح لنا ؛ اعتداء بدنى مباشر . السؤال الذى يطرح نفسه الآن: ما الذى كانت تعرفه هذه الفتاة؟ هل قالت شيئاً لبارتريدج؟ أى شىء محدد؟

"لا أعتقد ذلك، ولكن يمكنك سؤال بارتريدج عن ذلك".

"نعم، سوف آتى إليكم واسألها عندما أنتهى من هنا".

سألته:"ما الذى حدث بالضبط؟ أم أنك لم تعرف بعد؟".

"لقد كان يوم عطلة الخادمتين ـ".

"كلتاهما؟".

"نعم، يبدو أنه كانت هناك شقيقتان تعملان هنا، وقد طلبتا أخذ عطلتهما فى يوم

واحد معًا، وقد وافقت السيدة سيمنجتون على ذلك . ثم عندما جاءت هاتان الخادمتان أبقيتا على نفس النظام . وقد اعتادتا على ترك العشاء بارداً فى حجرة الطعام، فيما تقوم السيدة هولاند بإعداد الشاى".

"نعم".

"الأمر واضح حتى هذه النقطة . إذا إن أسرة روز الطاهية تعيش فى"نيزر ميكفورد"ولكى تصل هناك فى يوم عطلتها، يجب عليها ركوب حافلة الثانية والنصف . لذا فإن آجنس تضطر إلى تجهيز الغداء دائماً . وقد دأبت روز على مكافأتها بغسل صحون العشاء".

"وهذا ما حدث بالأمس، حيث خرجت روز للحاق بالحافلة فى الساعة الثانية والنصف إلا خمس دقائق، وخرج سيمنجتون متوجهًا إلى مكتبه فى الساعة الثانية والنصف وخمس دقائق . وخرجت إلسى هولاند والطفلان فى الثالثة إلا الربع، وخرجت ميجان هنتر على دراجتها بعد خمس دقائق تقريبًا . ويفترض أن تكون آجنس وحدها بالمنزل عندئذٍ . وعلى حد علمى، فإنها اعتادت مغادرة المنزل بين الثالثة والثالثة والنصف".

"أتعنى أن المنزل لم يكن به أحد عندئذٍ؟".

"أوه، إنهم لا يهتمون بذلك هنا . فالناس فى هذه البلدة لا يحرصون على إغلاق بيوتهم . وكما قلت، ففى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق كانت آجنس وحدها بالمنزل . ومن الواضح أنها لم تغادره أبداً، لأنها كانت لا تزال ترتدى قبعتها وملابس العمل عندما وجدنا جثتها".

"هل عرفتم موعد وفاتها على وجه الدقة؟".

"لم يقطع الدكتور جريفيث بموعد محدد للوفاة . وقد قال فى تقريره الرسمى إنها قد توفيت بين الساعة الثانية والرابعة والنصف".

"كيف قتلت؟".

"ضربت أولاً بشىء ثقيل على مؤخرة رأسها . وبعد ذلك تم إدخال سيخ المطبخ ـ ذى الرأس الحاد ـ فى قاعدة الجمجمة، مما أدى إلى الوفاة الفورية".

أشعلت سيجارة، فلم تكن الصورة الوصفية جميلة .

قلت:"جريمة بدم بارد".

"أوه، نعم، هذا ما أشرنا إليه".

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلت:

"من الذى فعلها؟ ولماذا؟".

قال ناش ببطء:"لا أعتقد أننا سنعرف السبب تحديداً، ولكننا نستطيع التخمين".

"أكانت تعرف شيئًا؟".

"كانت تعرف شيئًا".

"ألم تلمح لأحد هنا أو تعطيه فكرة عما تعرفه؟".

"كلا، على حد علمى . لقد كانت قلقة، منذ وفاة السيدة سيمنجتون، هكذا قالت روز . ووفقًا لأقوال هذه الطاهية فقد كان قلقها يتزايد أكثر وأكثر، وظلت تقول إنها لم تكن تعرف ما يجب عليها فعله".

أخرج تنهيدة غيظ، قائلاً:

"إنها نفس الطريقة دائمًا ؛ فهم لا يأتون إلينا أبداً . لقد استقر فى النفوس كراهية"التورط مع الشرطة". لو جاءت إلينا وأخبرتنا بما كان يقلقها، لربما كانت حية الآن".

"ألم تلمح لأى امرأة أخرى بأى شىء؟".

"كلا، على حسب قول روز، وأنا أميل لتصديقها . لأنها لو كانت أخبرتها بشىء، لسارعت بإخبارنا به مع إضافة كم لا بأس من الزركشة من خيالها الخصب".

قلت:» إن تحبطنا هذا يصيبنى بالجنون".

"ولكن لا نزال نستطيع التخمين يا سيد بيرتون . إن نقطة البداية غير محددة ؛ لابد أن يكون هناك شىء يلح على مخيلتك حتى يزداد قلقك . أتفهم ما أعنيه؟".

"نعم".

"فى الحقيقة، فإننى أعلم ما كانت تعرفه".

نظرت إليه باحترام .

"عمل جيد أيها المفتش ناش".

"حسنًا، يا سيد بيرتون، إننى أعرف شيئًا لا تعرفه أنت . فى عصر اليوم الذى انتحرت فيه السيدة سيمنجتون، كان يفترض أن تكون الخادمتان بالخارج . فقد كان يوم إجازتهما . ولكن آجنس عادت إلى المنزل ".

"أمتأكد من ذلك؟".

"نعم، آجنس لديها صديق ـ ذلك الشاب الذى يدعى ريندل الذى يعمل فى متجر السمك . حيث يغلق المتجر مبكراً يوم الأربعاء ويأتى لمقابلة آجنس ويذهبان للتنزه، أو يذهبان للمتحف إذا كان الجو مطيراً . وفى ذلك الأربعاء تشاجرا بمجرد تقابلهما .

وقد كانت صاحبتنا كاتبة الرسائل تمارس نشاطها، وأوحت إلى فريد ريندل أن آجنس على علاقة بشاب آخر فاغتاظ ريندل وتشاجرا مشاجرة عنيفة وعادت آجنس أدراجها إلى المنزل، وقالت إنها لن تخرج مع فريد ريندل حتى يأتى ويعتذر لها".

"وبعد؟".

"حسنًا، يا سيد بيرتون، المطبخ يواجه الجانب الخلفى للمنزل، ولكن حجرة الخزين تطل على الجهة التى نطل نحن عليها الآن . ولا يوجد إلا بوابة واحدة للدخول فتمر بها إما للصعود إلى الباب الأمامى، أو السير عبر الممر الواقع بجانب المنزل حتى تصل إلى الباب الخلفى .

سكت قليلاً، ثم أضاف:

"والآن لأخبرك بشىء . تلك الرسالة التى تلقتها السيدة سيمنجتون عصر ذلك اليوم لم ترسل عبر البريد، بل كان عليها طابع بريد مستعمل وختم مزيف باستخدام سخام مصباح، وذلك حتى تبدو وكأن رجل البريد ألقاها مع رسائل ما بعد الظهيرة . ولكنها فى الحقيقة لم ترسل عبر البريد . أتفهم ما يعنيه ذلك؟".

قلت ببطء:"يعنى أنها قد ألقيت باليد داخل صندوق الرسائل قبل مجىء بريد العصر، بحيث تكون بين الرسائل الأخرى .

"تماماً . إن بريد العصر يأتى فى الساعة الرابعة إلا الربع تقريباً . وأنا أرى أن الفتاة كانت جالسة فى حجرة الخزين تنظر من النافذة (لقد كانت مغطاة بالشجيرات ولكن يمكن الرؤية من خلالها) مترقبة مجىء صديقها والاعتذار لها".

قلت:"ورأت من ألقى تلك الرسائل؟".

"هذا ما أظنه يا سيد بيرتون، وقد أكون مخطئًا بالطبع".

"ولا أظنك مخطئًا ... إن الفكرة بسيطة ـ ومقنعة ـ وتعنى أن آجنس عرفت هوية كاتب الرسائل المجهولة".

"نعم".

"ولكن لماذا لم ـ؟".

سكت مقطباً جبينى .

فقال ناش بسرعة:

"يهيأ لى أن الفتاة لم تعى ما رأته، فى البداية على الأقل . وقد ترك أحدهم رسالة بالمنزل، نعم ـ لكن ذلك الشخص لم يكن شخصاً تحلم بأن يكون له صلة بالرسائل المجهولة . لقد كان من تلك الشخصيات التى يطلق عليها"فوق مستوى الشبهات"ولكن

كلما فكرت فى الأمر أكثر ازداد قلقها . ربما كان عليها إخبار أحدهم بالأمر، فى خضم ارتباكها وحيراتها فكرت فى بارتريدج خادمة السيدة بيرتون التى أعتقد أنها شخصية مسيطرة وتقبل آجنس حكمها على الأمور دون تردد . فقررت أن تسأل بارتريدج عما يجب عليها فعله".

قلت متفكرًا:"نعم . إن هذا منطقى للغاية . وقد اكتشفت صاحبة القلم المسموم ذلك بطريقة ما ولكن كيف اكتشفته أيها المفتش؟".

"إنك لم تعتد العيش فى الريف يا سيد بيرتون . فالأخبار تنتشر هنا بطريقة سريعة . أولاً، هناك المكالمة الهاتفية . من الذى سمعها من الطرف الآخر؟".

فكرت، ثم قلت:

"لقد كنت أنا من أجاب عن الهاتف فى البداية ثم ناديت على بارتريدج التى كانت فى الطابق العلوى".

"هل ذكرت اسم الفتاة؟".

"نعم، نعم، ذكرته".

"هل سمعك أحد آخر وأنت تذكره؟".

"أختى والآنسة جريفيث ربما سمعانى أيضًا".

"آه، الآنسة جريفيث . ماذا كانت تفعل؟ ".

شرحت له ما جاءت لأجله .

"هل عادت إلى القرية؟".

"ذهبت إلى السيد باى أولاً".

تنهد المفتش ناش .

"إذن هناك طريقتان يمكن من خلالهما انتشار الخبر".

نظرت إليه غير مصدق .

"هل تعنى أن أيًا من الآنسة جريفيث أو السيد باى سوف يأبه بنقل معلومة تافهة كهذه؟".

"أى شىء يعتبر خبرًا فى بلدة كهذه . فإذا ظهر ورم فى قدم أم الخياطة فسوف يعرف الجميع بالخبر! ثم عندنا من كانوا على الجانب الأول من الخط: السيدة هولاند وروز ـ ربما تكونا قد سمعتا ما قالته آجنس . وهناك فريد ريندل . فربما انتشر خبر رجوع آجنس إلى المنزل عصر ذلك اليوم من خلاله".

ارتعدت بينما كنت أنظر من النافذة وأمامى قطعة مربعة من العشب والممر وبوابة قصيرة .

فتحت إحداهن البوابة، وسارت مطمئنة وبهدوء نحو المنزل، ثم ألقت الرسالة فى صندوق الرسائل . ورأيت فى خيالى صورة غائمة لتلك المرأة . الوجه خالٍ من أية ملامح ـ ولكن لابد وأنه وجه أعرفه ....

كان المفتش ناش يقول:

"وهذا يحدد نطاق البحث أكثر، وهكذا نستطيع الإمساك بالفاعل فى النهاية . الثبات والصبر ؛ فليس هناك الكثير من المشكوك فيهم الآن".

"أتعنى ـ؟".

"أعنى أن يستثنى أى امرأة عاملة كانت فى عملها عصر ذلك اليوم . ويستثنى كذلك مديرة المدرسة، فقد كانت فى مدرستها، وأيضاً الممرضة، فأنا أعرف أين كانت بالأمس، على الرغم من أنى لم أشك فيها من البداية، ولكننا الآن متأكدون . وكما ترى يا سيد بيرتون، فإن لدينا وقتان محددان اليوم لنركز عليهما ـ عصر الأمس، والأسبوع السابق . فى يوم وفاة السيدة سيمنجتون، لنقل، من الساعة الثالثة والربع (أول وقت يحتمل أن تكون آجنس قد عادت فيه إلى المنزل بعد شجارها مع صديقها) ولكننى أستطيع معرفة الموعد بدقة من ساعى البريد . والأمس من الثالثة إلا عشر دقائق (عندما تركت الآنسة ميجان هنتر المنزل) وحتى الثالثة والنصف أو ربما الثالثة والربع بما أن آجنس لم تغير ملابسها".

"ما الذى حدث بالأمس فى رأيك".

مط ناش شفتيه، قائلاً:

"أعتقد أن هناك سيدة ما سارت حتى الباب الأمامى، ودقت الجرس، وهى هادئة تماماً ومبتسمة، متظاهرة بأنها تحمل بطاقات دعوة .... ربما سألت عن السيدة هولاند، أو ربما أحضرت معها طرداً . على أية حال ذهبت آجنس إليها لتأخذ بطاقة الدعوة أو الطرد، ثم ضربتها صاحبتنا على مؤخرة رأسها".

"بأى شىء ضربتها؟".

قال ناش:

"النساء هنا يحملن حقائب ذات حجم كبير يمكن أن تتسع لأى شىء يخطر ببالك".

"ثم طعنتها فى مؤخرة عنقها ووضعتها فى الخزانة؟ أليس ذلك عملاً صعباً على امرأة؟".

نظر إلى المفتش ناش باستغراب، قائلاً:

"المرأة التى نطاردها ليست امرأة عادية ـ ليست عادية إلى حد بعيد ـ وتلك النوعية من النساء المختلات عقلياً يمتلكن قوة مدهشة، كما أن آجنس لم تكن فتاة قوية البنيان".

صمت لبرهة، ثم سأل:"ما الذى جعل ميجان هنتر تفكر فى النظر بداخل الخزانة".

قلت:"إنها الغريزة المحضة".

ثم سألته:"لماذا تم سحب آجنس إلى الخزانة؟ ما الذى دعاها إلى ذلك؟".

"لأنه كلما طالت فترة عدم اكتشاف الجثة، زادت صعوبة تحديد موعد الوفاة بدقة . أما لو عثرت السيدة هولاند، مثلاً، على الجثة بمجرد دخولها المنزل لاستطعنا تحديد موعد الوفاة بدقة تبلغ عشر دقائق أو ما يقرب من ذلك ـ وهو الأمر الذى كان من شأنه أن يحرج موقف صاحبتنا".

قلت متجهماً:

"لكن لو كانت آجنس تشك فى هذه المرأة ـ".

"لم تكن تشك . ليس حد الشك القاطع . كل ما فكرت فيه أن أمرها"غريب". وأعتقد أنها لم تكن فتاة حادة الذكاء، وكان كل ما يطوف بمخيلتها مجرد شكوك غامضة مصحوبة بشعور بأن ثمة خطأ ما . وبالتأكيد لم تشك بأنها تواجه امرأة يمكن أن تقتل".

سألته:"هل شككت أنت فى ذلك؟".

هزّ ناش رأسه . وقال بتأثر:

"كان علىّ أن أعرف . فمسألة الانتحار كما ترى! قد أخافت صاحبة القلم المسموم . قد وقع يا سيد بيرتون ما لم يكن فى حسبانها".

"نعم، الخوف . هذا هو ما كان ينبغى علينا التنبؤ به . الخوف ـ فى عقل مختل ...".

قال المفتش ناش:"كما ترى، فإننا نطارد امرأة تحظى بالاحترام والتقدير ـ امرأة ذات مكانة اجتماعية مرموقة!". وقد جعلنى كلامك أشعر بمدى فظاعة الموقف!

3

قال ناش عندئذ إنه سوف يستجوب روز مرة أخرى . فسألته ما إذا كان من الممكن

أن آتى معه إن لم يكن فى الأمر إحراج له . ولدهشتى رحب بعرضى .

"إننى مسرور جداً بتعاونك يا سيد بيرتون".

قلت:"يبدو هذا مثيراً للشك، ففى القصص البوليسية عندما يرحب المحقق بمساعدة شخص ما، فعادة ما يكون هذا الشخص هو الجانى".

ضحك ناش وقال:"من المستبعد أن تكون من تلك النوعية التى تجلس وتكتب رسائل مجهولة ؛ يا سيد بيرتون".

ثم أضاف:» بصراحة، يمكن أن تفيدنا كثيراً".

"يسرنى ذلك، ولكنى لا أعرف كيف يمكن أن أكون مصدر عون".

"هذا لأنك غريب هنا، وليس لديك أفكار مسبقة عن الأهالى هنا، ولكنك فى الوقت ذاته لديك الفرصة لمعرفة الأمور بالأسلوب الذى أطلق عليه الذكاء الاجتماعى".

تمتمت قائلاً:"الجانى شخص له مكانة اجتماعية".

"تماماً".

"أيعنى ذلك أن أكون جاسوساً لكم؟".

"ألديك اعتراض؟".

فكرت فى الأمر، ثم قلت:

"كلا، بصراحة ليس لدى اعتراض . فإذا كانت هناك امرأة مختلة تقود سيدة مسالمة إلى الانتحار وتقتل خادمة صغيرة بدم بارد، فليس لدى اعتراض على عمل شىء قذر كالتجسس بهدف القبض على تلك المختلة".

"هذا لطف منك، سيدى . واسمح لى بأن أقول لك إن المرأة التى نطاردها خطيرة، فهى كأشد الثعابين فتكاً".

ارتعدت، ثم قلت:

"فى الحقيقة، علينا أن نسرع".

"هذا صحيح . لا تظن أن الشرطة متكاسلة، فنحن نعمل على عدة خطوط".

قالها بتجهم .

كنت أتخيل شبكة عنكبوتية واسعة تهدف إلى اصطياد الجانى ...

أوضح لى ناش أنه يريد سماع قصة روز مرة أخرى لأنها أخبرته بروايتين مختلفتين، وكلما زاد عدد رواياتها، زادت احتمالات تجميع نقاط الحقيقة معاً .

وجدنا روز تغسل صحون الإفطار، ثم توقفت فجأة وأدارت عينيها ووضعت يدها على قلبها وهى تقص علينا مرة أخرى كيف أطلعت على هذا الأمر الرهيب هذا الصباح .

كان ناش صبوراً معها ولكن حازماً، وأخبرنى بأن كان يحاول تهدئتها فى المرة الأولى، وكان حاسماً فى المرة الثانية . أما الآن، فإنه يعاملها بمزيج من الأسلوبين .

أخذت روز تقص تفاصيل الأسبوع الماضى بسعادة، وروت كيف أن آجنس كانت فى غاية الخوف، ثم ارتعدت عندما حثتها روز على قول ما الذى كان يخيفها، وقالت:"لا تسألينى "، فلو أخبرتنى لكنت أنا أيضاً ميتة الآن". كان هذا هو كل ما قالته روز، منهية حديثها وهى تقلب النظر إلينا بسعادة .

ألم تلمح آجنس بما كان يقلقها؟

كلا، فيما عدا أنها كانت خائفة .

تنهد المفتش ناش وابتعد عن ذلك الموضوع، وأخذ يسأل روز عن أنشطتها فى عصر اليوم السابق .

روت روز ذلك بصراحة، حيث قالت إنها استقلت حافلة الثانية والنصف وقضت فترة العصر والمساء مع أسرتها، ثم عادت فى حافلة الثامنة والنصف من نيذر ميكفورد . وقد تعقدت روايتها بفعل ما قالته عن الإحساس الغريب الذى راودها بأن ثمة شراً يحدث عصر الأمس وكيف علقت أختها على ذلك وكيف أنها لم تستطع لمس قطعة واحدة من كعكة البذور .

تركنا المطبخ بحثاً عن إلسى هولاند، التى كانت تصحح دروس الطفلين، وكعادتها كانت إلسى هولاند متعاونة . رفعت رأسها وقالت:

"والآن يا كولين أنت وبراين سوف تحلان هذه المسائل الثلاث وتجهزان الإجابة حتى أرجع".

ثم قادتنا إلى حجرتها"أليس ذلك أفضل؟ فأنا أعتقد أنه من الأفضل ألا نتحدث أمام الأطفال".

"شكراً لك سيدة هولاند . فقط أخبرينى مرة أخرى ؛ هل أنت متأكدة تماماً من أن آجنس لم تخبرك بقلقها بخصوص أى شىء أقصد منذ وفاة السيدة سيمنجتون؟".

"كلا، لم تقل لى أى شىء . لقد كانت فتاة هادئة جداً، كما تعرف، ولم تكن تتحدث كثيراً".

"على عكس الخادمة الأخرى إذن!".

"نعم، فروز تتحدث كثيراً . وعلىّ أن أخبرها بأن تكف عن وقاحتها تلك فى بعض الأحيان".

"والآن، هلا أخبرتنى بما حدث بالضبط عصر الأمس! كل شىء تتذكرينه".

"حسنًا، لقد تناولنا غداءنا كالعادة . بعدها بساعة واحدة خرجنا للنزهة، فأنا لا أدع الطفلين يملان أبداً . دعنى أتذكر . لقد عاد السيد سيمنجتون إلى مكتبه أو ساعدت آجنس فى إعداد المائدة ـ بينما كان الطفلان يلعبان فى الحديقة ريثما أتجهز للخروج معهما".

"أين ذهبتم؟".

"إلى كومبى أكر، فقد أراد الطفلان صيد الأسماك، ولكنى نسيت الطعم لذا عدت إلى المنزل لإحضاره".

"متى كان ذلك؟".

"دعنى أتذكر، لقد خرجنا حوالى الساعة الثالثة إلا الثلث ـ أو بعدها بقليل، وكان من المقرر أن تأتى ميجان معنا ولكنها غيرت رأيها، وقررت أن تخرج للتنزه على دراجتها، فهى تعشق ركوب الدراجات".

"أقصد متى عدت لإحضار الطعم؟ هل دخلت المنزل؟".

"لا، لقد تركتها فى السقيفة خلف المنزل . ولا أعرف كم كان الوقت بالضبط حينئذٍ ـ حوالى الثالثة إلا عشر دقائق تقريبًا".

"هل رأيت ميجان أو آجنس؟".

"أعتقد أن ميجان كانت قد غادرت . أما آجنس فلم أرها . لم أر أى أحد".

"وبعدها ذهبتم للصيد؟".

"نعم لقد ذهبنا إلى الجدول . ولم نصطد شيئًا، فنحن لا نصطاد شيئًا تقريبًا، ولكن الطفلين يستمتعان بذلك . وقد بلل براين ملابسه . كان يجب أن أغير ملابسه عندما عدنا؟".

هل تقومين بإعداد الشاى يوم الأربعاء من كل أسبوع؟

نعم، فالشاى يكون معداً فى غرفة الاستقبال من أجل السيد سيمنجتون . إننى أعد الشاى فقط عندما يحضر إلى المنزل . أما أنا والطفلان فنتناوله فى حجرة الدراسة . فلدى أدوات الشاى والأدوات الأخرى فى الخزانة الموجودة بأعلى هناك .

ومتى عدت؟

"فى حوالى الخامسة إلا عشر دقائق . أخذت الطفلين إلى الطابق العلوى وبدأت فى إعداد الشاى . ثم عندما عاد السيد سيمنجتون فى الخامسة ونزلت لأقدم له الشاى، ولكنه قال إنه سوف يتناوله معنا فى حجرة الدراسة . وقد فرح الطفلان لذلك، ولعبنا معًا،

يبدو لى الأمر فظيعاً الآن حينما أفكر فيه ـ حيث كانت تلك الفتاة المسكينة مقتولة داخل الخزانة فى ذلك الحين".

"هل يذهب أحد إلى تلك الخزانة فى العادة؟".

"أوه كلا، إنها لا تستخدم إلا لحفظ الأشياء البالية أما القبعات والمعاطف فنعلقها فى الحجرة الصغيرة الواقعة على يمين الباب الأمامى عند الدخول . ولم يذهب أحد إلى الخزانة الأخرى منذ شهور".

"حسنًا، ولكن ألم تلاحظى شيئًا غير عادى عندما عدت؟".

اتسعت عيناها الزرقاوان، قائلة:

"أوه، كلا أيها المفتش لم ألحظ شيئًا على الإطلاق . كان كل شىء كالمعتاد . وهذا هو الرهيب فى الأمر".

"وفى الأسبوع السابق؟".

"أتقصد اليوم الذى انتحرت فيه السيدة سيمنجتون؟".

"نعم".

"أوه، كان ذلك فظيعاً ـ فظيعاً!".

"نعم، نعم، أعرف، هل كنت فى الخارج أيضًا عصر ذلك اليوم؟".

"أوه نعم، فدائماً ما آخذ الطفلين ونخرج بعد الظهر ـ إذا كان الطقس مناسبًا . حيث أعطيهما الدروس فى الصباح . وفى ذلك اليوم ـ على ما أذكر ـ ذهبنا إلى ناحية المستنقعات ـ ومشينا كثيراً، حتى أننى كنت أخشى أننا تأخرنا فى العودة لأننى عندما دخلت من الباب رأيت السيد سيمنجتون عائداً من مكتبه ولم أكن حتى وضعت إناء الشاى على النار، ولكنها كانت الساعة الخامسة إلا عشر دقائق".

"ألم تذهبى للسيدة سيمنجتون فى غرفتها؟".

"أوه كلا، فأنا لم أفعل ذلك أبداً، فهى دائماً ما تأخذ قسطًا من الراحة بعد الغداء بسبب النوبات العصبية التى تعانى منها ـ وعادة ما كانت تداهمها بعد تناول الوجبات . وقد أعطاها الدكتور جريفيث بعض المهدئات، واعتادت الاستلقاء على الفراش ومحاولة النوم".

قال ناش بصوت خفيض:

"إذن ألا يأخذ لها أحد البريد؟".

"بريد العصر؟ كلا، إننى أنظر داخل صندوق البريد وأضع الرسائل على المائدة فى الردهة عندما أدخل . ولكن غالبًا ما تأخذها السيدة سيمنجتون بنفسها . فهى لم تكن تنام

طوال فترة العصر، بل عادة ما كانت تستيقظ قبيل الساعة الرابعة".

"ألم تعتقدى أن ثمة شيئًا مريبًا قد حدث لأنها لم تستيقظ عصر ذلك اليوم؟ ".

"أوه كلا، إننى لم أتصور حدوث شىء كهذا . لقد كان السيد سيمنجتون يعلق معطفه فى الردهة، وقلت له:"الشاى ليس جاهزًا بعد، ولكنى على وشك الانتهاء من إعداده".

فأومأ برأسه ونادى على السيدة سيمنجتون، قائلاً:"مونا، مونا!"ـ وعندما لم ترد عليه صعد إلى الطابق العلوى متوجهًا نحو غرفة نومها، ولابد أنها كانت أفظع صدمة تعرض لها . وقد نادى علىّ، وعندما جئته، قال لى:"أبقِ الأولاد بعيدًا"ثم اتصل بالدكتور جريفيث ونسينا أمر إناء الشاى حتى احترق الجزء السفلى بالكامل! آه يا عزيزتى! لقد كان أمرًا رهيبًا، فقد كانت السيدة سيمنجتون سعيدة ومبتهجة على الغداء".

قال ناش بسرعة:"ما رأيك فى تلك الرسالة التى تلقيتها يا آنسة هولاند؟".

قالت إلسى هولاند بشىء من الغضب:"أوه، أعتقد أنها عمل شرير ـ شرير!".

"نعم، نعم، لم أقصد ذلك . هل كنت تعتقدين أنها حقيقة؟".

قالت إلسى هولاند بحزم:

"كلا، فى الحقيقة لا أعتقد ذلك لقد كانت السيدة سيمنجتون شديدة الحساسية فى الحقيقة . كانت تضطر إلى أخذ جميع أنواع المهدئات العصبية المتوافرة، كما كانت محافظة للغاية، وأى عمل حقير كهذا من شأنه أن يسبب لها صدمة كبيرة".

صمت ناش للحظة، ثم سألها:

"ألم تتلقى أيًا من هذه الرسائل يا آنسة هولاند؟".

"كلا، كلا، لم أتلق أيًا منها".

"هل أنت على ثقة من ذلك؟ من فضلك"ـ ثم رفع يده ـ"لا تتسرعى الإجابة . أعرف أنها أشياء بغيضة، ولا يحب الناس الاعتراف أحيانًا بتسلمهم واحدة منها، ولكن من المهم جدًا فى هذه القضية أن نعرف الحقيقة ؛ ونحن نعلم تمام العلم أن كل ما يرد بها محض أكاذيب، لذا لا داعى للشعور بالحرج".

"لكنى لم أتلق شيئًا فعلاً أيها المفتش؟ لم أتلق شيئًا من هذا القبيل على الإطلاق".

كانت ساخطة وأوشكت على البكاء، وبدا إنكارها صادقًا".

عندما عادت إلى الطفلين، وقف ناش ونظر من النافذة .

قال:"حسنًا، إنها تدعى أنها لم تتلقى أيًا من هذه الرسائل، ويبدو أنها صادقة فيما

تقول".

"بالقطع، أنا على ثقة من ذلك".

همهم ناش، ثم قال:"ما أريد معرفته إذن هو لماذا لم يقع عليها اختيار تلك الشيطانة كاتبة الرسائل المجهولة؟".

واصل كلامه دونما صبر، بينما كنت أحدق إليه .

"إنها جميلة، أليس كذلك؟".

"أكثر من مجرد جميلة".

"بالضبط . وهى حسنة المظهر بشكل غير عادى، وفى سن الشباب . فى الحقيقة إنها مطمع لأى كاتب رسائل مجهولة . إذن لماذا استثنيت؟".

هززت رأسى .

"إنها مسألة مثيرة، ويجب أن أذكر لجريفيث ذلك، فقد طلب منى أن أخبره بأى شخص لم يتلق رسائل مجهولة".

قلت:"إنها المرأة الثانية، تذكر أن هناك إيميلى بارتون أيضًا".

ضحك ناش ضحكة باهتة .

"لا تصدق كل ما يقال يا سيد بيرتون، فقد تلقت السيدة بارتون واحدة بالفعل ـ بل أكثر من واحدة".

"كيف عرفت؟".

"تلك المخلصة سليطة اللسان التى تعيش معها خادمتها أو طاهيتها السابقة فلورنسا إلفورد . لقد كانت ساخطة جداً بسبب تلك الرسالة، وكانت تود أن تقطع صاحبتها إربًا".

"لكن لماذا قالت إيميلي بارتون إنها لم تتلقى رسائل من هذا النوع؟".

"إنها الرقة، فلغة هذه الرسائل ليست لطيفة . والسيدة بارتون الصغيرة قضت حياتها وهى تتجنب كل ما هو بذىء وغير مهذب".

"وماذا قالت الرسالة؟".

"الكلام المعتاد، وإن كان يبعث على الضحك فى حالتها . وقد ألمحت الرسالة إلى أنها قد وضعت السم لأمها العجوز ومعظم شقيقاتها!".

قلت غير مصدق: أتقصد أن هذه المجنونة الخطرة ستظل طليقة ولن نستطيع التعرف عليها وإيقافها عند حدها؟ ".

قال ناش بصوت كئيب:"حسنًا، سوف نكشفها، فسوف تكتب الكثير من الرسائل الأخرى".

"ولكنها لن تكتب المزيد من الرسائل، على الأقل الآن".

نظر إلىّ قائلاً:

"بلى، ستفعل . فهى لا تستطيع التوقف الآن، فهذا نوع من الأمراض المستعصية . والرسائل ستستمر، لا شك فى ذلك".

الفصل التاسع

1

ذهبت لأرى ميجان قبل مغادرة المنزل . كانت فى الحديقة وبدت وكأنها عادت إلى حالتها الطبيعية تقريباً، حيتنى مبتهجة .

اقترحت عليها العودة إلينا مرة أخرى لفترة، ولكن بعد التردد هزت رأسها قائلة:"هذا لطف منك ـ ولكنى أعتقد أننى سأبقى هنا . فهو على أية حال ـ حسناً، يفترض أنه بيتى . وأزعم أننى أستطيع مساعدة الطفلين".

قلت:"حسناً، كما تشائين".

"إذن أعتقد أننى سأبقى . هل أستطيع ـ هل أستطيع".

قلت لكى أحثها على الكلام:"نعم؟".

"إذا ـ إذا حدث أى شىء رهيب،أستطيع الاتصال بك لتأتى إلىّ، أليس كذلك؟".

تأثرت لكلامها، فقلت:"بالطبع، ولكن ما هو الشىء الرهيب الذى تعتقدين أنه قد يحدث؟ ".

"أوه، لا أعرف .

هزت رأسها

بدت غامضة بعض الشىء وهى تقول:"أوه، لا أعرف . أشياء مثل ما يحدث الآن".

قلت:"بالله عليك، لا تكونى متشائمة إلى هذه الدرجة، فلن يكون هناك المزيد من الجثث! فهذا ليس جيداً لك".

ابتسمت لى ابتسامة خاطفة، قائلة:"كلا، إنه ليس جيداً بالمرة . قد جعلنى أشعر بالغثيان".

لم ترق لى فكرة تركها هناك، ولكنه على أية حال، كما قالت، بيتها . وتخيلت أن إلسى هولاند سوف تشعر بمزيد من المسئولية تجاهها .

ذهبت أنا وناش إلى ليتل فيرز . وبينما كنت أقص باختصار أحداث هذا الصباح على

جوانا، كان ناش يتحدث مع بارتريدج ليسألها عما إذا كانت آجنس قد قالت لها شيئًا محددًا عندما اتصلت بها . ثم عاد إلينا وهو يبدو محبطًا .

"لم تفدنا كثيرًا . فطبقًا لهذه المرأة، فإن الفتاة لم تقل شيئًا سوى أنها قلقة بخصوص أمر ما ولا تعرف ماذا تفعل وأنها تود طلب النصيحة من السيدة بارتريدج".

سألته جوانا:"هل ذكرت بارتريدج ذلك لأى أحد؟".

أومأ ناش متجهمًا .

"نعم، فقد أخبرت السيدة إموري ـ خادمتكم التى تأتى فى الصباح ـ بأن هناك بعض الفتيات اللاتى يرغبن فى طلب النصح ممن هن أكبر منهن سنًا ولا يعتقدن أن بمقدورهن البت فى أى شىء بمفردهن! وربما لم تكن آجنس فتاة ذكية، ولكنها كانت فتاة مهذبة وعلى خلق".

تمتمت جوانا:"إن بارتريدج تمتدح نفسها فى الحقيقة . وهل يمكن أن تكون الآنسة إموري قد أشاعت الخبر فى البلدة؟".

"هذا صحيح! آنسة بيرتون".

قلت:"هناك شىء يصيبنى بالدهشة ؛ لماذا كنت أنا وأختى ضمن متلقى الرسائل المجهولة؟ فنحن غرباء هنا ـ ولا يكن لنا أحد ضغينة".

"إنك لا تستطيع فهم عقلية أصحاب الأقلام المسمومة ـ إنهم يصوبون سهامهم إلى الجميع . ويمكنك القول إنهم يكنون الضغينة للإنسانية كلها".

قالت جوانا متفكرة:"أعتقد أن هذا هو ما قصدته السيدة كالثروب".

نظر إليها ناش نظرة متسائلة، ولكنها لم توضح له، فقال:

"لا أعرف ما إذا كنت قد نظرت بتأنٍ إلى مظروف الرسالة التى تلقيتها يا آنسة بيرتون ولو أنك فعلت لربما لاحظت أنها كانت سترسل إلى الآنسة بارتون ثم تم إبدال حرف الألف بحرف الياءَ".

لو تم ملاحظة ذلك، لكان يمكن أن يساعدنا فى كشف جزء من الغموض الذى يكتنف الأمر، ولكن أحدًا منا لم يعرها اهتمامًا .

غادر ناش، وبقيت أنا وجوانا . قالت:"إنك لا تعتقد أن الرسالة كان مقصودًا بها الآنسة إيميلى حقًا، أليس كذلك؟".

أوضحت لها، قائلاً:"لو كانت إيميلى هى المقصودة ما كانت الرسالة لتبدأ بعبارة:"أيتها الساقطة المتبرجة". فوافقتنى جوانا .

ثم قلت إنه ينبغى على الذهاب إلى وسط البلدة .

"يجب أن تسمعى ما يقوله الجميع، فسوف يكون هذا هو موضوع الصباح!".

ثم اقترحت عليها المجىء معى، لكن لدهشتى رفضت وقالت إنها ستتسكع فى الحديقة .

توقفت عند الباب وأخفضت صوتى، قائلاً:

"أعتقد أنها بارتريدج".

"بارتريدج!".

جعلتنى الدهشة التى غلفت صوت جوانا أشعر بالخجل من فكرتى هذه، فقلت معتذراً:"كنت فقط أتساءل . فهى"غريبة الأطوار"إلى حد ما ـ فهى عانس متجهمة ـ ذلك النوع من النساء اللاتى يمكن أن يكن متعصبات دينياً".

"ولكن موضوعنا هذا لا علاقة له بالتعصب الدينى ـ أو أن هذا ما قاله جريفز على حد قولك".

"حسنًا، فهو الهوس الجنسى إذن . إنهما مرتبطان ببعضهما على ما أعتقد . فهى تشعر بالكبت وتحظى بالاحترام وقد عاشت حبيسة البيت هنا لسنوات مع سيدات عجائز".

"ما الذى دفع الفكرة إلى ذهنك؟".

قلت ببطء:

"حسنًا، إننا لم نسمع إلا روايتها هى بخصوص ما قالته الفتاة، ربما طلبت آجنس من بارتريدج أن تخبرها عن سبب مجيئها وتركها رسالة فى ذلك اليوم ـ ثم قالت بارتريدج إنها ستأتى بعد الظهر وتشرح لها الأمر".

"ثم موهت على الأمر بأن جاءت إلينا وسألتنا ما إذا كان من الممكن أن تأتى الفتاة إلى هنا؟ ".

"نعم".

"لكن بارتريدج لم تخرج عصر ذلك اليوم".

"وما أدراك؟ تذكرى أننا كنا بالخارج".

"نعم، هذا صحيح . أعتقد أن ذلك ممكن"ثم قلبت جوانا الأمر فى رأسها وقالت:"ولكنى لا أعتقد ذلك فأنا لا أظن أن عقلية بارتريدج تستطيع حبك كل هذه الخدع للتمويه على أمر الرسائل المجهولة ؛ أى أن تزيل بصمات الأصابع وما إلى ذلك . فالأمر لا يحتاج إلى الدهاء فقط، بل والمعرفة أيضاً . وأنا لا أعتقد أنها تمتلك هذه القدرات . أظن أن ـ "، ترددت جوانا، ثم قالت ببطء:"هم متأكدون من أنها امرأة، أليس كذلك؟".

صحت غير مصدق:"أتظنين أنه رجل؟".

"كلا ـ ليس رجلاً عادياً ـ ولكنه نوع معين من الرجال . إننى أفكر حقاً فى السيد باى".

"إذن قد وقع اختيارك على باى؟".

"ألا تشعر أنت نفسك بأنه محل للشبهة؟ فهو يعيش وحده ـ وغير سعيد ـ ومكروه من الآخرين . فالجميع يسخرون منه كما ترى . ألا ترى أنه يحقد على كل الناس الطبيعيين السعداء ويستمتع بشكل غريب بما يفعله؟

"ولكن جريفز قال إنها امرأة عانس فى أواسط العمر".

قالت جوانا:"والسيد باى عانس فى أواسط العمر".

قلت ببطء:"مختلف عمن حوله".

"وهو هكذا بالفعل . إنه غنى، ولكن المال ليس كل شىء . وأعتقد أنه ليس متزناً . إنه رجل قصير ومخيف".

"تذكرى أنه هو نفسه تلقى رسالة".

"لسنا متأكدين من ذلك، كل ما لدينا مجرد اعتقادات . وعلى كل ربما ادعى ذلك حتى يحبك تمثيليته".

"أتعتقدين أنه يخدعنا".

"نعم، ولديه من الذكاء ما يكفى للتفكير فى ذلك ـ وعدم المبالغة فى أداء دوره".

"لابد وأنه ممثل قدير".

"بالطبع يا جيرى، إن من يفعل ذلك لابد وأن يكون ممثلاً قديراً . فهذا أحد جوانب المتعة والسعادة بالنسبة له".

"بالله عليك يا جوانا لا تتحدثى بذلك اليقين! فأنت تجعلينى أشعر بأنك ـ بأنك تفهمين عقلية صاحب هذه الرسائل".

"أعتقد أننى أفهمها . أقصد أننى أستطيع تصور الحالة المزاجية والنفسية لكاتبها . فلو لم أكن جوانا بيرتون ولو لم أكن شابة وجذابة إلى حد معقول وقادرة على الاستمتاع بوقتى، ولو كنت ـ كيف أقولها؟ ـ خلف القضبان أشاهد الآخرين وهم يستمتعون بحياتهم، فهل كان الشر الأسود يتملك منى، ويجعلنى أريد إيذاء الآخرين وتعذيبهم ـ بل وتحطيمهم؟".

أمسكتها من كتفيها وهززتها، قائلاً:"جوانا!". فتنهدت وارتعشت ثم ابتسمت لى قائلة:"لقد أخفتك يا جيرى، أليس كذلك؟ ولكن يراودنى شعور بأن هذه هى الطريقة

الصحيحة لحل هذا اللغز . حيث تتقمص دور الشخص المعنى كى تعرف أحاسيسه ومشاعره وما الذى يجعله يتصرف على هذا النحو، وعندئذٍ ـ وعندئذٍ ربما تعرف تصرفه التالى".

قلت:"أوه، اللعنة! وأنا الذى جئت إلى هنا لكى أقلد مملكة الخضراوات واهتم بالفضائح المحلية التافهة . فضائح محلية تافهة! قذف، بذاءات، كلام فاحش وجرائم قتل!

2

كانت جوانا محقة تمامًا . فقد كان الشارع الرئيسى بالبلدة مكتظًا بالكثير من المهتمين بما جرى . وعقدت العزم على معرفة رد فعل كل منهم .

قابلت جريفيث أولاً . وقد بدا متعبًا ومرهقًا جدًا، حتى أننى تعجبت لأمره . فالقتل بالتأكيد ليس حدثًا يوميًا يعانيه الأطباء، ولكن تخصصه يؤهله لمواجهة معظم الأمور ومنها المعاناة والوجه الوقح للطبيعة البشرية وحقيقة الموت .

قلت له:"تبدو متعبًا".

كان غامضًا وهو يقول:"أبدو كذلك حقًا؟ أوه لقد كان لدى بعض الحالات المقلقة مؤخرًا".

"ومنها حالة مجنونتنا؟".

"نعم، بكل تأكيد". نظر بعيدًا عنى عبر الشارع فرأيت عصبًا دقيقًا يرتعش فى جفنه".

"أليست لديك شكوك فى هويتها؟".

"كلا، كلا . وأتمنى لو هدانى الله إليها".

ثم سألنى فجأة عن جوانا، وقال بتردد إن معه بعض الصور التى أرادت رؤيتها .

فعرضت عليه أخذها إليها .

"أوه، لا أريد أن أثقل عليك، سوف أمر ببيتكم فى وقت لاحق هذا الصباح".

بدأت أخشى أن يكون جريفيث قد وقع فى الشباك . اللعنة على جوانا! فقد كان جريفيث أطيب من أن توقع به فى شباكها .

تركته ينصرف، لأننى رأيت أخته آتية وأردت الحديث معها .

بدأت إيمى من وسط الحوار كما لو كانت معنا . حيث انفجرت قائلة:"يا لها من جريمة مروعة! لقد سمعت أنك ذهبت هناك ـ مبكرًا؟".

لقد كان كل منها يحمل صيغة السؤال، ولمعت عيناها وهى تؤكد على كلمة"مبكرًا". ولم أكن لأخبرها بأن ميجان اتصلت بى، لذا قلت لها:

"لقد كنت قلقًا الليلة الماضية، فقد كان من المقرر أن تأتى لتناول الشاى فى منزلنا ولم تحضر".

"لذا خشيت وقوع الأسوأ؟ يا لك من عبقرى!".

قلت:"نعم، إننى أمتلك حاسة قوية لتشمم الجرائم".

"إنها جريمة القتل الأولى التى تشهدها لايمستوك . وقد بلغت الإثارة مبلغها . أتمنى أن تستطيع الشرطة كشف الجانى".

"أنا واثق من ذلك، فهم رجال أكفاء".

"لا أستطيع حتى تذكر شكل الفتاة، على الرغم من أننى أعتقد أنها فتحت لى الباب عشرات المرات . إنها فتاة ضئيلة الحجم . لقد أخبرنى أوين أنها قد ضربت على رأسها، ثم طعنت فى مؤخرة عنقها . يبدو لى أن الجانى أحد أصدقائها . فما رأيك؟".

"أهذا هو تفسيرك للأحداث؟".

"يبدو لى أن هذا هو التفسير الأقرب للصواب . لابد أنها تشاجرت، فهى مثل الكثير من الناس هنا تنقصها التربية السوية، إن هذا السلوك متوارث من ذويها".

توقفت ثم استطردت:"لقد سمعت أن ميجان هنتر هى التى اكتشفت الجثة . لابد وأنها قد أصيبت بصدمة".

قلت باختصار:

"بالفعل".

"أعتقد أن هذا ليس جيداً بالنسبة لها . وأنا أرى أن قواها العقلية ضعيفة ـ وشىء مثل هذا قد يذهب بعقلها تمامًا".

اتخذت قرارًا مفاجئًا، فقد كان علىّ أن أعرف شيئًا ما".

"أخبرينى يا آنسة جريفيث، هل أنت من أقنع ميجان بالعودة إلى منزلها بالأمس؟".

"حسنًا، لا يمكننى القول إننى أقنعتها".

أصررت على المعرفة، فقلت:

"ولكنك قلت لها شيئًا؟".

ضربت إيمى جريفيث الأرض بقدمها وحدقت النظر إلى . وكانت فى موقف دفاعى إلى حدٍ ما، وقالت:

"ليس من الجيد أن تتملص تلك الفتاة من مسئولياتها . وهى صغيرة ولا تعرف ما يقوله الناس فى المدينة، لذا شعرت أن من واجبى أن أُبين لها حقيقة الموقف".

انفجرت من شدة الغضب، قائلاً:"ما يقوله الناس؟".

واصلت إيمى كلامها بتلك الثقة المثيرة للجنون والتى تحيلها إلى فتاة ذات شخصية متسلطة:

"أوه، أنت لا تسمع كل النميمة التى تدور هنا . ولكنى أسمعها! وأعرف ما يقوله الناس، بالرغم من أننى لا أصدق ولا كلمة مما يقال ـ ولا كلمة واحدة! ولكنك تعرف طبيعة البشر ـ فإذا استطاعوا قول شىء مشين، فإنهم لا يتورعون عن قوله! وسيكون من الصعب على الفتاة كسب قوتها".

قلت مندهشًا:"كسب قوتها؟".

واصلت إيمى كلامها:

"إنه موقف صعب عليها، بالطبع . وأعتقد أنها فعلت الصواب . أعنى أنها لم تكن تستطيع الرحيل هكذا وتترك الطفلين دون أن يرعاهما أحد . لقد كانت رائعة ـ رائعة جداً . إننى أقول ذلك للجميع! ولكنه موقف لا تحسد عليه، حيث سيتكلم الناس ولن يتركوها فى حالها".

سألتها:"عمن تتحدثين؟".

قالت إيمى جريفيث بصبر نافد:"عن إلسى هولاند بالطبع، فأنا أرى أنها فتاة لطيفة للغاية، ولم تفعل إلا ما يمليه عليها الواجب".

"وما الذى يقوله الناس".

ضحكت إيمى جريفيث، أعتقد أنها كانت ضحكة غير بريئة .

"يقولون إنها تفكر فعلياً فى أن تكون السيدة سيمنجتون رقم 2 ـ بحيث تسرى عن الزوج المترمل وتجعل من نفسها شيئًا لا غنى عنه".

قلت مصدومًا:"يا إلهى! ولكن لم يمض على وفاة السيدة سيمنجتون سوى أسبوع!".

هزت إيمى كتفيها، قائلة:

"بالطبع، ما هى إلا شائعات سخيفة! ولكنك تعرف الناس وألسنتهم! فالآنسة هولاند فى ريعان شبابها وعلى قدر عال من الجمال، وهذا يكفى . ولعلك تعرف أن العمل كمربية ليس مطمح الفتيات . وما كنت لألومها لو أنها أرادت أن تتزوج وتستقر، ولقد

قامت باللعب بأوراقها جيداً .

واصلت كلامها:"وبالطبع، فإن السيد ديك سيمنجتون المسكين ليست لديه أدنى فكرة عن كل هذا! فهو لا يزال متأثراً بوفاة زوجته مونا سيمنجتون . ولكنك تعرف طبيعة الرجال! فإذا كانت المرأة بجواره دائماً، وتعمل على راحته، وتعتنى به، وتكرس نفسها لأولاده ـ حسناً، فسوف يعتمد عليها".

قلت بهدوء:

"إذن أنت تعتقدين أن إلسى هولاند تخطط للإيقاع به؟".

احمر وجه إيمى جريفيث وقالت:"إطلاقاً، إننى آسفة لتلك الفتاة، ولما يقوله الناس عليها من كلام منحط! ولهذا أخبرت ميجان بضرورة العودة إلى المنزل . فهذا يبدو لى أفضل من ترك ديك سيمنجتون،إلسى هولاند وحدهما بالبيت".

بدأت الأمور تتضح لى .

ضحكت إيمى جريفيث ضحكتها الخبيثة .

"لقد صدمت يا سيد بيرتون مما تفكر فيه بلدتنا الصغيرة النمامة . يمكننى القول إنها دائماً ما تفكر فى الأسوأ!".

ضحكت ثانية وأومأت ثم واصلت سيرها مبتعدة .

قابلت السيد باى عند دار العبادة . كان يتحدث مع إيميلى بارتون التى بدت محمرة الوجه ومنفعلة .

حيانى السيد باى بحفاوة بالغة .

"آوه، بيرتون، صباح الخير، صباح الخير! كيف حال أختك الفاتنة؟".

أخبرته أن جوانا على ما يرام .

"ولكنك لم تنضم إلى برلمان القرية، إننا جميعاً متشوقون للأخبار . فهى جريمة قتل! جريمة قتل حقيقية من تلك النوعية التى تنشر فى صحف الأحد! أخشى ألا تكون أكثر الجرائم إثارة، فهى إلى حد ما مقتل خادمة صغيرة بطريقة وحشية . ولا يوجد حرفية فى ارتكاب الجريمة، إلا أنها لا تزال خبراً".

قالت الآنسة بارتون وهى ترتعش:

"إنها صدمة ـ صدمة فظيعة".

التفت إليها السيد باى، قائلاً:

"ولكنك تستمتعين بها، يا عزيزتى، نعم تستمتعين بها . اعترفى بذلك الآن . إنك

ترفضينها وتعترضين عليها، ولكن هناك عنصر الإثارة . وأنا أصر على أن هناك إثارة!".

قالت إيميلى بارتون:"تلك الفتاة اللطيفة . لقد جاءت إلى من ملجأ كلوتيدس هوم للأيتام وهى ساذجة ولكن لديها القابلية للتعلم، ثم تحولت إلى خادمة لطيفة وكانت بارتريدج سعيدة بها".

قلت بسرعة:

"كان من المقرر أن تأتى عصر أمس لتناول الشاى مع بارتريدج "، ثم التفت إلى السيد باى وقلت:"لعل إيمى جريفيث أخبرتك بذلك".

كانت نبرة صوتى عادية جداً . ورد باى بلهجة غير المتشكك أبداً:"نعم، لقد ذكرت لى ذلك . أتذكر أنها قالت إنه شىء جديد على الخدم أن يستخدموا هواتف مخدوميهم".

قالت الآنسة إيميلى:"ما كانت بارتريدج لتحلم بفعل شىء كهذا، وأنا مندهشة تماماً من إقدام آجنس على ذلك".

قال السيد باى:"إنك مازلت تعيشين فى الماضى يا سيدتى العزيزة، فخادماى يستخدمان الهاتف باستمرار وكانا يدخنان فى كل مكان بالمنزل حتى اعترضت على ذلك . ولكن إحقاقاً للحق، فإن بريسكوت طباخ ماهر، بالرغم من حدته، وزوجته خادمة تثير الإعجاب".

"نعم، إننا جميعاً نعتقد أنك محظوظ".

حولت مجرى الحديث، حيث إننى لا أريد أن يدور الحوار حول الشئون الشخصية المحضة .

فقلت:"لقد انتشر خبر الجريمة بسرعة مذهلة".

قال السيد باى:"بالطبع، بالطبع، فالجزار والخباز وصانع الشموع والجميع يتحدثون عن الجريمة ويتناقلون أخبارها بعدما يضيفون إليها ما تجود به ألسنتهم . يا حسرتى على لايمستوك! إنها تنحدر للأسوأ باستمرار ؛ رسائل مجهولة، وجرائم قتل، وعدد من الميول الإجرامية".

قالت إيميلى بارتون بعصبية:"إنهم لا يفكرون ـ ليست لديهم فكرة ـ بأن ـ بأن الجريمتين مرتبطتان ببعضهما".

التقط السيد باى الكرة، فقال:

"رأى مثير ؛ لقد عرفت الفتاة شيئاً، لذا قتلت، نعم، نعم هذا منطقى . يا لك من عبقرية!".

"لا ـ لا أستطيع التحمل".

قالتها إيميلى بارتون فجأة وسارت مبتعدة بسرعة .

نظر إليها باى . وارتسمت على وجهه الملائكى علامات الدهشة .

نظر إلى وهزّ رأسه، قائلاً:

"امرأة حساسة . مخلوقة فاتنة، أليس كذلك ؛ إنها تحفة أثرية من الماضى البعيد . إنها لا تنتمى لجيلها، وإنما للجيل السابق . لابد أن أمها كانت امرأة قوية الشخصية إلى حد كبير . فقد أوقفت تطور العائلة عند عام 1870 . وقد حرص جميع أفراد الأسرة علىً عدم كسر القفص الزجاجى . لكم أحب ذلك النوع من الناس!".

لم أكن أريد الحديث عن التحف الأثرية .

سألته:"ما رأيك حقًا فيما جرى؟".

"ماذا تقصد؟".

"الرسائل المجهولة، وجريمة القتل ...".

"موجة جرائمنا المحلية؟ ما رأيك أنت؟".

قلت بمرح:"لقد سألتك أولاً".

فقال السيد باى بلطف:

"أنت تعرف أننى أهوى الأشياء الغريبة فهى تثيرنى، مثل أن يقوم أشخاص غير متوقعين بفعل أشياء غريبة . خذ مثلاً قضية"ليزى بوردين"فلم يكن هناك تفسير منطقى لما حدث . وفى مثل هذه القضية فإننى أنصح الشرطة بدراسة الشخصية . دعكم من بصمات الأصابع وقياس خط اليد والفحوص المجهرية، وركزوا بدلاً من ذلك على حركات أيدى الناس، وتفاصيل سلوكياتهم الدقيقة، والطريقة التى يتناولون بها طعامهم، وإذا ما كانوا يضحكون أحيانًا دونما سبب واضح".

رفعت حاجبى، وقلت:"أتقصد أنه مجنون؟".

قال السيد باى:"مجنون للغاية، للغاية".

ثم أضاف:"ولكنك لن تعرف أبدًا!".

"من؟".

التقت عيناه، ثم ابتسم، قائلاً:

"كلا، كلا يا بيرتون، هذا من شأنه أن يكون قذفًا، ولا ينبغى أن نضيف المزيد من القذف إلى ما نحن فيه بالفعل".

ثم سار وغاب عن الأنظار .

4

بينما كنت أحدق إليه وهو يختفى مبتعداً، فُتح باب دار العبادة وخرج منه كاليب كالثروب .

ابتسم لى ابتسامة توحى بأنه لا يتذكرنى .

"صباح ـ صباح الخير، سيد ـ سيد ـــــ".

ساعدته، قائلاً:"بيرتون".

"بالطبع، بالطبع، لا تظن أننى لا أتذكرك، كل ما هنالك أن اسمك قد غاب عن ذاكرتى للحظة . إنه يوم جميل".

قلت باقتضاب:"نعم".

حملق إلى، قائلاً:

"ولكنّ شيئًا ـ شيئًا ـ آه، نعم، تلك الفتاة المسكينة تعيسة الحظ التى كانت تعمل فى الخدمة فى بيت سيمنجتون . يجب أن أعترف بأننى أجد صعوبة فى تصديق أن هناك قاتلاً يعيش بيننا، يا سيد ـ بيرتون".

قلت له:"إنه أمر سيئ".

مال برأسه ناحيتى وقال:"لقد سمعت شيئًا آخر، قد علمت أن هناك رسائل مجهولة يتلقاها سكان البلدة، هل سمعت أنت شائعات عن شىء كهذا؟".

"نعم، لقد سمعت".

"عمل خسيس وجبان"توقف ثم أخذ يقول الكثير من الكلام باللغة اللاتينية وقال:» هذه المعانى تنطبق على ما يجرى هنا، أليس كذلك؟".

قلت:"تمامًا".

5

لم يبد لى أن هناك من يمكن أتحدث معه حديثًا ذا فائدة، لذا عدت إلى البيت، وفى طريقى قررت شراء تبغ، فسمعت بعض الآراء المتواضعة حول الجريمة .

"متسول حقير"يبدو أن البائع هو المتحدث .

"إنهم يطرقون الأبواب وهم سكارى ويطلبون المال، ثم إذا وجدوا أن الفتاة وحدها بالمنزل، فإنهم يهاجمونها . لقد تعرضت أختى دورا التى تعمل فى كومبى أكر لتجربة كهذه يومًا ما ـ وقد كان المتسول مخمورًا ويبيع تلك الأشعار المطبوعة ...".

واصل البائع سرد حكايته حتى انتهى إلى أن دورا أغلقت الباب بشجاعة فى وجه الرجل وتحصنت فى مكان لم يصرح به، وإن كنت قد فهمت من تحرجه من ذكره أنه المرحاض .

"وظلت هناك حتى عادت سيدتها إلى المنزل". وصلت إلى ليتل فيرز قبل موعد الغداء ببضع دقائق . كانت جوانا تقف أمام النافذة بحجرة الرسم لا تفعل شيئًا على الإطلاق وإن كانت تبدو مشغولة البال إلى حدٍ كبير .

سألتها:"فيما تفكرين؟".

"آوه، لا أدرى، ليس شيئًا محددًا".

ذهبت إلى الشرفة فوجدت مقعدين حول منضدة معدنية وكوبى عصير فارغين، وعلى كرسى آخر كان هناك شىء نظرت إليه بذهول .

"ما هذا بحق السماء؟".

قالت جوانا:"أوه، أعتقد أنها صور لطحال مريض أو شىء من هذا القبيل . يبدو أن الدكتور جريفيث ظن أننى مهتمة برؤيتها".

نظرت إلى الصورة ببعض الاهتمام . فلكل رجل طريقته الخاصة للتعبير عن إعجابه بالمرأة . وأنا عن نفسى ما كنت لأختار صور طحال مريض، أو غير مريض، للتعبير عن إعجابى، ومع ذلك فإن جوانا هى التى طلبتها دون شك!

قلت:"إنها تبدو مثيرة للاشمئزاز".

وافقتنى جوانا على ذلك .

سألتها:"كيف كان حال جريفيث؟".

"بدا متعبًا وحزينًا جدًا . أعتقد أن هناك شيئًا يشغل باله".

"طحال لم يستجب للعلاج؟".

"لا تكن سخيفًا، فأنا أعنى أن هناك شيئًا حقيقيًا يشغله".

"أعتقد أن الرجل مشغول بك . وأتمنى أن تبتعدى عنه يا جوانا".

"أوه، اصمت، فأنا لم أفعل شيئًا".

"دائمًا ما تقول النساء ذلك".

هرعت جوانا إلى الغرفة غاضبة .

بدأت صورة الطحال المريض تتجعد نتيجة لتعرضها للشمس، لذا أمسكتها من إحدى زواياها وذهبت إلى حجرة الرسم . لم تكن ذات أهمية بالنسبة لى، ولكنى افترضت أنها أحد كنوز جريفيث .

انحنيت وسحبت كتابًا ثقيلاً من الرف السفلى للمكتبة حتى أضع الصورة بين دفتيه كى ترجع كما كانت بلا تجاعيد .

وبطريقة مفاجئة انفتح الكتاب فى يدى، وسرعان ما عرفت السبب . فهناك عدد من صفحاته قد انتزعت من منتصفه بإتقان .

6

تسمرت فى مكانى وأخذت أحدق النظر إليه . نظرت إلى الغلاف فوجدت أنه نشر عام 1840 .

لم أكن أشك على الإطلاق فى أن هذا هو الكتاب الذى كتبت الرسائل المجهولة من صفحاته . ولكن من الذى قطعها؟

حسنًا، ربما كانت إيميلى بارتون نفسها ؛ فهى مثار للشك من الأساس . أو لعلها بارتريدج . ولكن هناك احتمالات أخرى . فربما قطعت الأوراق عن طريق أى شخص جلس وحده فى هذه الحجرة، حيث يمكن أن يكون زائرًا كان فى انتظار الآنسة إيميلى مثلاً، أو حتى أى شخص كان يقوم بعمل ما هنا .

كلا، هذا الاحتمال غير مرجح إلى حدٍ كبير . فقد لاحظت أنه عندما جاء موظف البنك لزيارتى، أجلسته بارتريدج فى حجرة المكتب الصغيرة الواقعة فى مؤخرة المنزل . ويبدو أن هذا تقليد متبع فى هذا البيت .

أهو زائر إذن؟ شخص ذو مكانة اجتماعية وجيهة السيد باى؟ إيمى جريفيث؟ السيدة دين كالثروب؟

7

دق الجرس فذهبت لتناول الغداء . وبعد أن انتهينا من تناوله أطلعت جوانا على اكتشافى فى حجرة الرسم .

ناقشنا الأمر من جميع جوانبه، ثم أخذت الكتاب وتوجهت إلى قسم الشرطة .

فرحوا بالاكتشاف، وامتدحونى على ما كان مجرد حظ لا أكثر .

لم يكن جريفز هناك، ولكن ناش كان موجوداً، فاتصل بجريفز . وتقرر أن يقوما برفع بصمات الأصابع من على الكتاب، على الرغم من أن ناش كان غير متفائل بإمكانية التوصل لشىء، وهذا هو ما حدث بالفعل . فلم تكن عليه سوى بصماتى أنا وبارتريدج، مما يوضح أن بارتريدج كانت تراعى ضميرها عند قيامها بالتنظيف .

صاحبنى ناش فى رحلة عودتى . سألته كيف حال التحقيقات، فقال:"إننا نضيق نطاق البحث يا سيد بيرتون . وقد نحينا جانباً بعض الأشخاص البعيدين عن الشبهات".

قلت:"أوه، ومن تبقى لديكم إذن؟".

"الآنسة جينش، فقد كان من المقرر أن تزور أحد العملاء بمنزله عصر أمس . ولم يكن منزل هذا العميل بعيداً عن طريق كومبى أكر رود، وهو الطريق الذى يمر بمنزل سيمنجتون . لابد وأنها مرت بالمنزل فى الذهاب والعودة . وفى الأسبوع الماضى، وتحديداً فى اليوم الذى تلقت فيه السيدة سيمنجتون رسالة ثم انتحرت على إثرها، كان آخر يوم لها ـ بمكتب سيمنجتون . وقد كان السيد سيمنجتون يعتقد أنها لم تغادر عصر ذلك اليوم على الإطلاق . وقد كان معه السير لوشينجتون عصر ذلك اليوم واتصل بالآنسة جينش عدة مرات دون أن ترد عليه . ومع ذلك فقد اكتشفت أنها قد خرجت لشراء بعض طوابع البريد التى نفدت من عندهم؟ وكان من المفترض أن يشتريها ساعى المكتب، ولكن الآنسة جينش فضلت الذهاب بنفسها، بدعوى أنها تعانى من صداع وتريد استنشاق بعض الهواء النقى . ولم تغب طويلاً".

"ولكنها تغيبت لفترة كافية؟".

"نعم، غابت بما يكفى للهرولة إلى الناحية الأخرى من القرية وإلقاء الرسائل فى الصندوق والعودة مسرعة . ومع ذلك، يجب أن أعترف بأننى لا أستطيع إيجاد أحد يشهد بأنه رآها بالقرب من منزل سيمنجتون".

"أكان لينتبه أحد لذلك؟".

"ربما نعم وربما لا".

"ومن أيضاً فى جعبتك؟".

نظر ناش أمامه، وقال:

"سوف تعذرنا إن لم نستطع استثناء أحد ـ أى أحد على الإطلاق".

قلت:"بلى، إننى أتفهم ذلك".

قال بحزن:"بالأمس ذهبت الآنسة جريفيث إلى اجتماع فتيات الكشافة فى برينتون، ولكنها وصلت متأخرة".

"أنت لا تعتقد".

"كلا، لا أعتقد . ولكنى لا أعرف، فالآنسة جريفيث تبدو فى كامل قواها العقلية ـ ولكنى أقصد أننى لا أعرف".

"ماذا عن الأسبوع السابق؟ هل يمكن أن تكون هى من ألقى الرسالة فى الصندوق؟ ".

"يحتمل . فقد كانت تتسوق فى البلدة عصر ذلك اليوم". صمت ثم استطرد:"ونفس الشىء ينطبق على الآنسة إيميلى بارتون، فقد خرجت للتسوق مبكراً عصر أمس وذهبت سيراً على الأقدام لزيارة بعض الصديقات على الطريق المار بمنزل سيمنجتون فى الأسبوع الماضى".

هززت رأسى غير مصدق . كنت أعرف أن إيجاد هذا الكتاب مقطوع الصفحات فى ليتل فيرز من شأنه أن يوجه الانتباه إلى صاحبة المنزل، ولكن عندما تذكرت أن الآنسة إيميلى جاءت إلينا بالأمس متهللة الأسارير وسعيدة ومبتهجة ...

اللعنة ـ مبتهجة ... نعم، مبتهجة ـ متوردة الخدين ـ لامعة العينين ـ بالتأكيد ليس لأنها ـ ليس لأنها ـ .

قلت متثاقلاً:"إن هذا صعب على المرء! فهو يرى أشياء ـ أشياء".

"نعم، ليس من المبهج أن ينظر المرء إلى من يعرفهم ويقابلهم بصفة يومية على اعتبار أنهم ربما يكونون مجرمين مجانين".

صمت لبرهة ثم استطرد قائلاً:

"وهناك السيد باى ـ".

قلت بحدة:"إذن فقد وضعتموه فى قائمة المشتبه بهم؟".

ابتسم ناش .

"أوه، نعم، لقد فكرنا فيه بالفعل . فهو شخصية مثيرة للفضول ـ يمكننى القول إنه شخصية ليست لطيفة وليست لديه حجة غياب . وقد ادعى أنه كان فى حديقته وحده فى كلا اليومين".

"إذن، فأنتم لا تشكون فى النساء فقط؟".

"لا أعتقد أن رجلاً هو من كتب الرسائل ـ بل فى الحقيقة أنا متأكد من ذلك ـ وهكذا جريفز أيضًا يستثنى السيد باى، الذى تكتسى شخصيته ببعض الصفات الأنثوية بشكل شاذ . وقد تحرينا عن مكان تواجد الجميع عصر أمس، فهذه جريمة قتل كما تعرف، ولم نستثن أحدًا، بما فيهم أنت". ابتسم عندئذ، ثم أضاف:"وأيضًا أختك، والسيد سيمنجتون الذى لم يغادر مكتبه بعد وصوله إليه، والدكتور جريفيث الذى كان يزور بعض المرضى فى الناحية الأخرى من القرية، وقد تحريت عن زياراته هذه وتأكدت منها".

صمت، ثم ابتسم مرة أخرى، قائلاً:"إننا نتميز بالدقة فى عملنا كما ترى".

قلت ببطء:"إذن فقد انحصرت شكوكم فى هؤلاء الأربعة ـ الآنسة جينش والسيد باى والآنسة جريفيث والآنسة إيميلى بارتون؟".

"أوه، كلا، كلا، لدينا اثنان آخران ـ إلى جانب زوجة رجل الدين".

"هل فكرتم فيهما؟".

"لقد فكرنا فى الجميع، ولكن السيدة دين كالثروب تبدو غير طبيعية على الإطلاق، إذا فهمت قصدى ومع ذلك فربما تكون هى من فعلها . فقد قالت إنها كانت بالأمس فى الغابة تشاهد الطيور ـ ولن تستطيع الطيور تأكيد كلامها أو نفيه".

التفت بحدة عندما دخل أوين جريفيث قسم الشرطة .

"مرحبًا، ناش . لقد سمعت أنك طلبت حضورى هذا الصباح . أهناك شىء مهم؟".

"التحقيق يوم الجمعة، إذا كان هذا يناسبك يا دكتور جريفيث".

"حسنًا . سوف أقوم بتشريح الجثة أنا ومورسبى الليلة".

قال ناش:

"هناك شىء آخر يا أيها الطبيب جريفيث . كانت السيدة سيمنجتون تأخذ بعض العقاقير والأدوية التى وصفتها لها ـ".

صمت، فقال أوين جريفيث متسائلاً:

"نعم؟".

"أيمكن أن تكون جرعة زائدة من العقاقير قد أدت إلى الوفاة؟".

قالت جريفيث بجفاء:

"بالطبع لا، ليس إلا إذا أخذت خمسة وعشرين قرصًا تقريبًا!".

"ولكنك حذرتها ذات مرة من الإفراط فى الجرعة، هذا ما أخبرتنى به الآنسة هولاند".

"أوه، نعم . لقد كانت السيدة سيمنجتون من أولئك النساء اللاتى يفرطن فى تناول أى شىء يعطى لهن ـ متخيلة أن مضاعفة الجرعة المقررة سوف تضاعف فرص الشفاء، بينما ينبغى ألا يفرط أحد حتى فى تناول الفيناستين أو الإسبرين . ومع ذلك فليس هناك شك فى سبب الوفاة . فنحن متأكدون من أن السيانيد هو السبب".

"أوه، أعرف ذلك ـ إنك لم تفهم قصدى كل ما أفكر فيه هو أن من يريد الانتحار، فإنه يفضل أخذ جرعة زائدة من الحبوب المنومة بدلاً من تجرع حامض البروسيك".

"أوه، تماماً . ومن جانب آخر، فإن حامض البروسيك أكثر إثارة ومفعوله أكيد . أما فى حالة استخدام البربيتوريت، على سبيل المثال، فإن الضحية لن تلقى مصرعها إلا بعد فترة من الوقت".

"نعم، أتفهم ذلك . شكراً لك أيها الطبيب جريفيث".

غادر جريفيث، وودعت ناش . وعدت إلى المنزل صاعداً التل ببطء . بدا لى أن جوانا بالخارج ـ أو على الأقل ليس هناك ما يدل على وجودها هنا، وكانت هناك قصاصة من الورق على حامل الهاتف يفترض أنها موجهة لبارتريدج أو لى أنا شخصياً .

"إذا اتصل بى الدكتور جريفيث، فإننى لن أستطيع الذهاب معه يوم الثلاثاء، ولكن يمكننا الخروج يوم الأربعاء أو الخميس".

رفعت حاجبى بدهشة، وذهبت إلى غرفة الرسم، وجلست على أكثر المقاعد التى تبعث على الراحة (فلم يكن أى منها مريحاً، فظهورها جميعاً منتصبة وتذكرنى بالسيدة بارتون الراحلة) ـ ومددت ساقى وحاولت التفكير فى الأمر برمته .

وبانزعاج مفاجئ تذكرت أن مجىء أوين قد قطع حوارى مع المفتش، وأنه قد وضع شخصين آخرين موضع اشتباه .

تساءلت من يكونان .

بارتريدج، ربما كانت إحداهما، فالكتاب الذى قطع منه الورق قد وجد فى هذا المنزل على أية حال . وربما لقيت آجنس مصرعها على يد مرشدتها ومعلمتها التى لم تشك فيها على الإطلاق . نعم، لا يمكن استبعاد بارتريدج .

ولكن من الأخرى؟

ربما كانت شخصاً لا أعرفه؟ السيدة كليت؟ المشتبه بها فى المنطقة؟

أغلقت عينى، وفكرت فى أربعة أشخاص، والغريب أنهم كانوا غير متوقعين . إيميلى بارتون اللطيفة الرقيقة؟ ما الدلائل التى تقف ضدها؟ عقدة النقص؟ القهر والكبت فى

سن الطفولة؟ التضحيات الكثيرة المطلوبة منها؟ خوفها الشديد من مناقشة أى شىء"غير مهذب "؟ هل هذا مؤشر على تشبعها داخلياً بهذه الأفكار؟ هل أمسيت من أنصار مذهب فرويد بهذه الأفكار فى التحليل النفسى إلى هذا الحد المزعج؟ لقد تذكرت طبيباً أخبرنى ذات مرة بأن هلوسة السيدات العوانس تحت تأثير البنج تكشف أشياء مذهلة ."لن تصدق أنهن كن يعرفن مثل هذه الكلمات!".

إيمى جريفيث

بالتأكيد إنها لن تعانى من الكبت أو"أنها قد حرمت"من شىء . فهى منطلقة وناجحة، وحياتها حافلة بأشياء كثيرة . غير أن السيدة كالثروب قالت عنها:"إنها فتاة مسكينة".

كما أن هناك شيئاً ـ شيئاً ـ آه! لقد تذكرت . كان أوين جريفيث يقول شيئاً، مثل:"كانت هناك موجة من الخطابات المجهولة فى الشمال حينما كنت أعمل هناك".

هل كانت إيمى جريفيث تمارس نشاطها فى كتابة الخطابات المجهولة هناك أيضاً؟ إن الأمر فظيع، أكثر من مجرد مصادفة . موجتان متشابهتان من الخطابات المجهولة .

توقفت للحظة، فقد تعقبوا كاتب تلك الرسائل وعرفوا أنها طالبة بالمدرسة .

مال الجو فجأة إلى البرودة ـ لابد أنه تيار هوائى آتٍ من النافذة . تململت على مقعدى . لماذا أحسست فجأة بالتعب والاستياء؟

واصلت التفكير ... إيمى جريفيث؟ ربما كانت إيمى جريفيث هى الفاعلة، وليست الفتاة الأخرى التى ذكرتها، ثم جاءت إيمى إلى هنا، واستأنفت نشاطها ولعل هذا هو السبب الذى يجعل أوين جريفيث يبدو حزيناً ومهموماً . لقد شك . نعم، لقد شك ...

السيد باى؟ إنه رجل قصيرٍ وغير لطيف إلى حدٍ ما . أستطيع تخيله سعيداً أثناء كتابته لهذه الرسائل ... ضاحكاً ....

تلك الرسالة التى وجدتها على حامل الهاتف فى الصالة ... لماذا لا أكف عن التفكير فيها؟ جريفيث وجوانا ـ لقد وقع فى حبها .. كلا، ليس هذا ما يقلقنى . إنه شىء آخر .

كانت أحاسيسى تسبح، النوم يداعب جفونى وأخذت أردد بعض العبارات فى ذهنى ببطء:"لا دخان بدون نار ... نعم ... الخيوط كلها تتشابك معاً".

ثم رأيت نفسى أسير فى الطريق مع ميجان ومرت بنا إلسى هولاند . كانت ترتدى ملابس عروس، والناس يتمتمون:

"أخيراً ستتزوج الطبيب جريفيث . بالطبع كانت مخطوبة له سراً منذ سنوات ...".

كنا فى دار العبادة والسيد دين كالثروب يتلو مراسم الزواج باللاتينية .

وفى منتصف الأحداث جاءت السيدة دين كالثروب فجأة وصاحت قائلة:

"يجب إيقاف ذلك . يجب إيقافه!".

لدقيقة أو دقيقتين لم أكن أدرى ما إذا كنت نائمًا أم مستيقظًا . ثم صفا ذهنى وأدركت أننى فى غرفة الرسم بليتل فيرز وأن السيدة دين كالثروب قد جاءت للتو عبر الشرفة وتقف أمامى وهى تقول: بعنف مشوب بالتوتر:

"يجب إيقاف ذلك".

نهضت واقفًا وقلت:"استميحك عذرًا . آسف فقد كنت نائمًا . ماذا قلت؟".

ضربت راحة يدها بقبضة يدها الأخرى .

"يجب وضع حد لما يحدث . تلك الرسائل! والقتل! لا يمكن للمرء تحمل قتل طفلة مسكينة بريئة مثل آجنس وودل!".

قلت:"إنك محقة تمامًا، ولكن ما الذى تقترحى فعله إزاء ذلك؟".

قالت السيدة دين كالثروب:

"يجب علينا فعل شىء! "

ابتسمت، ربما بطريقة متعالية .

"وما الذى تقترحى فعله؟ ".

"استيضاح الأمر برمته! كنت قد قلت إن هذا المكان خال من الشر، ولكن كنت مخطئة، فهو ملىء، ملىء بالشرور والآثام".

شعرت بالضيق، وقلت بطريقة تخلو من الأدب:

"نعم يا سيدتى العزيزة ولكن ما الذى ستفعلينه؟".

قالت السيدة دين كالثروب:"نضع حدًا لكل هذا بالطبع".

"إن الشرطة تبذل ما بوسعها".

"مع مقتل آجنس بالأمس، فإن ما بوسعها غير مجدٍ بما فيه الكافية".

"إذن فأنت تعرفين ما لا يعرفونه هم؟".

"كلا، أنا لا أعرف شيئًا على الإطلاق . ولهذا سأستدعى خبيرًا".

هززت رأسى .

"لا يمكنك فعل ذلك، فإن شرطة سكوتلاند يارد لا تتحرك إلا بناء على طلب من مسئول الشرطة المحلية . ثم إنهم قد أرسلوا جريفز بالفعل".

"لا أقصد ذلك النوع من الخبراء . وإنما أقصد شخصاً يعرف الناس . أتفهمنى؟ إننا نريد شخصاً يعرف الكثير عن الشر".

كانت وجهة غريبة . ولكنها كانت محفزة إلى حدٍ ما .

وقبل أن أقول أى شىء آخر، أومأت السيدة كالثروب إلىّ وقالت بلهجة سريعة تنم عن الثقة".

"سوف أتولى هذا الأمر فوراً".

ثم خرجت عبر الشرفة مرة أخرى .

الفصل العاشر

1

أعتقد أن الأسبوع التالى كان من أكثر الأسابيع غرابة فى حياتى . فقد كان كالحلم .

كان التحقيق قد بدأ فى مقتل آجنس وودل وحضره جميع الفضوليين بـ"لايمستوك"ولم تظهر حقائق جديدة وتكررت العبارة الوحيدة المألوفة"تقيد ضد مجهول أو مجهولين".

دفنت المسكينة آجنس وودل فى المقابر القديمة بالقرية واستمرت الحياة فى لايمستوك كما كانت فى السابق .

كلا، إن العبارة الأخيرة ليست صحيحة، فالحياة لم تعد كما كانت فى السابق ... فقد كانت هناك لمعة فى عيون الجميع تقريباً تنم عن الفزع والترقب فى آنٍ واحد . وأصبح الجار يخشى جاره . فقد اتضح شيء مهم فى التحقيق، وهو أنه من غير المحتمل أن يكون قاتل آجنس وودل شخصاً غريباً . فلم يلحظ أحد وجود مشردين أو رجال غير معروفين فى المنطقة . إذن فإن من ضرب المسكينة آجنس وودل على جمجمتها وغرس سيخاً حاداً فى رأسها هو شخص يسير فى شوارع لايمستوك ويتسوق ويمارس حياته بين الناس بشكل عادى .

ولا يعرف أحد هوية هذا الشخص .

وكما قلت، فإن الأيام مرت كالحلم . كنت أنظر إلى الجميع من منظور جديد، فقد كنت أنظر إلى كل فرد على أنه قاتل محتمل . ولم يكن ذلك بالشيء الجيد!

وفى المساء، وبعد إرخاء الستائر، كنت أجلس أنا وجوانا نتحدث ونتناقش حول الاحتمالات المختلفة التى لا تزال تبدو مدهشة وغريبة .

وقد تمسكت جوانا بنظريتها القائلة بأن السيد باى هو الجانى . وبعد قليل من النقاش عدت إلى الشخصية التى أشتبه فيها بشدة وهى الآنسة جينش . ولكننا عددنا الأسماء المحتملة مرة بعد أخرى .

السيد باى؟

الآنسة جينش؟

إيمى جريفيث؟

إيميلى بارتون؟

بارتريدج؟

كنا طوال الوقت ننظر بعصبية ونترقب حدوث شىء ما .

ولكن لم يحدث شىء . فلم يتلق أى شخص رسالة أخرى، على حد علمنا . وكان ناش يظهر بصفة دورية فى البلدة، ولكن لم يكن لدىّ فكرة عما يفعله ولا عن الفخاخ التى تنصبها الشرطة . وقد غادر جريفز مرة أخرى .

جاءت إيميلى بارتون لتناول الشاى . وجاءت ميجان لتناول الغداء . واستمر أوين جريفيث فى زياراته للمرضى . وقد ذهبنا ذات مرة لتناول الشاى مع السيد باى، ثم مع السيد كالثروب .

فرحت عندما وجدت السيدة دين كالثروب غير عنيفة كما كانت فى آخر لقاء . أعتقد أنها نسيت الأمر .

بدت الآن مهتمة بمطاردة الفراش الأبيض حتى لا تضر بالقنبيط والكرنب .

كان الوقت الذى أمضيناه فى منزل السيد كالثروب من أهدأ فتراتنا هنا . فقد كان منزلاً جذاباً وقديماً وكانت حجرة الضيوف به كبيرة وبها أثاث مريح وجميل مزين بنقوش وردية . كانت عندهما ضيفة، وهى سيدة عجوز لطيفة تطرز شيئًا بصوف أبيض . كنا نتناول كعكة ساخنة لذيذة، عندما دخل السيد كالثروب وابتسم إلينا بينما بدأ حديثه اللطيف الدال على غزارة علمه ومعرفته . لقد كان حديثًا مشوقًا بحق .

لا أعنى أننا قد ابتعدنا عن موضوع القتل، لأننا لم نبتعد عنه فعلاً .

كانت الآنسة ماربل، الضيفة، تشعر بالإثارة تجاه هذه المسألة . وقالت كالمعتذرة:"ليس لدينا الكثير لنتحدث عنه فى الريف! "، كانت تتصور أن الفتاة القتيلة لابد أنها تشبه خادمتها إيديث .

"إنها خادمة لطيفة ومتعاونة، ولكنها أحيانًا تبدو بطيئة الفهم قليلاً".

كان ابن عم الآنسة ماربل أيضًا لديه بنت أخت قد عانت كثيرًا من الرسائل المجهولة، لذا فإن الرسائل المجهولة تشكل أهمية كبيرة فى حياة السيدة العجوز الخلابة .

قالت موجهة حديثها إلى السيدة دين كالثروب:"ما الذى يقوله سكان القرية ـ أقصد سكان البلدة؟ ما الذى يعتقدونه؟".

قالت جوانا:"أعتقد أنهم لا يزالون يتهمون الآنسة كليت".

قالت السيدة دين كالثروب:"أوه، كلا، ليس الآن".

سألت الآنسة ماربل عمن تكون السيدة كليت .

قالت جوانا إنها ساحرة القرية .

"هذا صحيح، أليس كذلك سيدة كالثروب؟".

تمتم السيد كالثروب بعبارة لاتينية طويلة عن القوى الشريرة للساحرات ـ على ما أعتقد ـ والتى استمعنا لها بإجلال ودون أن نفهم منها شيئًا .

قالت زوجته:"إنها امرأة سخيفة جداً تحب الاستعراض، حيث تخرج لجمع الأعشاب وأشياء أخرى عندما يصير القمر بدراً وتحرص على أن يراها جميع من بالمكان".

قالت الآنسة ماربل:"وأعتقد أن الفتيات الحمقاوات يذهبن إليها لطلب مشورتها".

رأيت السيد دين كالثروب يستعد لإمطارنا بوابل جديد من الكلمات اللاتينية فسارعت بسؤالهم:"ولكن لماذا لا يشتبه الناس الآن فى أنها القاتلة؟ فلطالما اعتقدوا أن الرسائل من صنيعها؟".

قالت الآنسة ماربل:"أوه! ولكن الفتاة قد قُتلت بواسطة سيخ حديدى، كما سمعت ـ (ويا له من جرم فظيع)، وهذا بالطبع يبعد الشكوك عن السيدة كليت، لأنها تستطيع ؛ كما تعرف، أن تستخدم سحرها وتصيبها بمرض فتموت ميتة طبيعية".

قال السيد دين كالثروب:"إننى أستغرب من رسوخ هذه المعتقدات فى أذهان الناس حتى الآن، فالنفع والضرر بيد الله لا بيد أحد من البشر أو الجن مهما بلغت قوته".

قالت السيدة دين كالثروب:"يجب علينا الآن التعامل مع الحقائق وليس الخرافات".

قلت:"الحقائق الفظيعة".

قالت الآنسة ماربل:"هى كما تقول يا سيد بيرتون . والآن ـ معذرة على تدخلى فى الأمور الشخصية ـ فأنت غريب هنا ولديك معرفة عن العالم وأوجه الحياة المتعددة . ويبدو لى أنك تستطيع إيجاد حل لتلك المشكلة الكريهة".

ابتسمت، قائلاً:"إن أفضل حل تراءى لى كان مجرد حلم . ففى منامى كانت الخيوط تتجمع أمامى وبشكل متناغم متناسق . ولكن للأسف عندما استيقظت بدا لى أن كل ذلك محض هراء!".

"ومع ذلك، فإن هذا أمر مثير . هلا أخبرتنى عن هذا الهراء؟".

"أوه، لقد بدأ الأمر معى بعبارة سخيفة تقول (لا دخان بدون نار) . كان الناس يرددون هذه العبارة بشكل لا يطاق، ثم خلطتها أنا بمصطلحات الحروب . الساتر

الدخانى، قصاصة ورق، ورسالة على هاتف ـ كلا، لقد كان هذا فى حلم آخر".

"هلا حكيت لى عن هذا الحلم؟ ".

كانت الآنسة العجوز متحمسة جداً لهذا الموضوع، حتى إننى شعرت بأنها قد قرأت كتاب تفسير الأحلام الذي كان لا يفارق مربيتى العجوز .

"أوه! كل ما هنالك أننى رأيت الآنسة إليسى هولاند ـ المربية بمنزل السيد سيمنجتون ـ تُزف إلى الطبيب جريفيث والسيد دين كالثروب يقوم بتزويجهما ـ (تمتمت السيدة دين كالثروب لزوجها:"هذا مناسب جداً يا عزيزى") ـ ثم نهضت السيدة دين كالثروب وطالبت بعدم إتمام هذه الزيجة وقالت إنه يجب إيقاف ذلك!".

أضفت بابتسامة:"ولكن هذا الجزء كان حقيقياً، فقد استيقظت ووجدتك تقفين أمامى وأنت ترددينها".

"وقد كنت محقة تماماً "، قالتها السيدة دين كالثروب بهدوء وقد سعدت لنبرة صوتها الهادئة .

"ولكن ما حكاية الرسالة الموجودة على الهاتف؟"هكذا سألت الآنسة ماربل وهى عاقدة حاجبيها .

"آسف، أظن أننى لم أكن ذكياً بما فيه الكفاية . فتلك الجزئية لم تكن حلماً ؛ وإنما كانت قبل الحلم . فقد دخلت الردهة ولفت انتباهى رسالة كتبتها جوانا وطلبت منا إبلاغ أحدهم بفحواها فى حالة اتصاله ...".

مالت الآنسة ماربل للأمام . وكانت هناك بقعة قرمزية على كل من خديها."هل ستعتبرنى متطفلة ووقحة جداً إذا طلبت معرفة فحوى تلك الرسالة؟"ثم نظرت إلى جوانا، مضيفة:"أرجو التماس المعذرة يا عزيزتى".

ومع ذلك، كانت جوانا تشعر بالمتعة وطمأنت الآنسة العجوز، قائلة:"أوه، لا عليك . فأنا شخصياً لا أستطيع تذكر كلماتها، ولكن ربما كان جيرى لا يزال يذكرها، لابد أنها كانت عن شىء تافه".

كررت كلمات الرسالة بقدر ما أسعفتنى الذاكرة، وأبدت الآنسة العجوز اهتماماً شديداً بما أقول مما حثنى على بذل أكبر جهد ممكن للتذكر .

وكنت أخشى أن تُخيب كلمات الرسالة آمالها، ولكن ربما كانت تظن أن هناك قصة غرامية وراءها، لأنها أومأت وابتسمت وبدت مسرورة .

قالت:"حسناً، لقد كنت أعتقد أنها شىء من هذا القبيل".

قالت السيدة دين كالثروب بحدة:"شىء مثل ماذا يا جين؟".

قالت الآنسة ماربل:"شىء عادى جداً".

نظرت إلىّ بإمعان لدقيقة أو دقيقتين، ثم قالت فجأة:

"أرى أنك شاب ذكى جداً ـ ولكن تنقصك الثقة بنفسك . ينبغى عليك أن تثق فى نفسك!".

أطلقت جوانا تنهيدة طويلة .

"بالله عليك لا تشجعيه على ذلك، فيكفى ما به من غرور".

قلت:"اصمتى يا جوانا، فالآنسة ماربل تفهمنى جيداً".

استأنفت الآنسة ماربل الحياكة، وقالت بأسى:"أتعرف، إن ارتكاب جريمة قتل ناجحة يشبه عمل حيلة سحرية إلى حدٍ كبير!".

"أتقصدين أن خفة اليد تخدع العين؟".

"ليس هذا فحسب، بل يجب أيضاً أن تجعل الآخرين ينظرون إلى شىء آخر وإلى المكان الخاطئ، وهو ما يسمونه التشتيت، على ما أعتقد".

قلت معلقاً على كلامها:"حسناً، إذن يبدو أن الجميع قد نظروا إلى المكان الخاطئ بحثاً عن قاتلنا المجنون".

قالت الآنسة ماربل:"أنا شخصياً أميل إلى البحث عن شخص عاقل جداً".

قلت متفكراً:"نعم، هذا ما قاله ناش . أتذكر أنه شدد على جزئية الاحترام أيضاً".

قالت الآنسة ماربل موافقة:"نعم، فهذا فى غاية الأهمية".

وافقناها جميعاً الرأى .

قلت موجهاً حديثى إلى السيدة كالثروب:"يعتقد ناش أنه ستكون هناك المزيد من الرسائل المجهولة، فما رأيك؟".

قالت ببطء:"أعتقد أنه ربما سيكون هناك المزيد منها".

قالت الآنسة ماربل:"إذا كانت الشرطة تعتقد ذلك، فلابد أن يحدث دون شك".

قلت بإصرار للسيدة كالثروب:"هل مازلت تأسفين على الكاتب؟".

احمر وجهها وقالت:"ولِمَ لا؟".

قالت الآنسة ماربل:"لا أعتقد أننى أوافقك الرأى يا عزيزتى، ليس فى هذه القضية".

قلت بحرارة:"لقد دفعت تلك الرسائل امرأة للانتحار وتسببت فى كوارث وشقاء وآلام عائلة".

سألت الآنسة ماربل جوانا:"هل تلقيت واحدة منها آنسة بيرتون؟ ".

ضحكت جوانا وقالت:"أوه، نعم! لقد كانت تحتوى على أكثر الأشياء فظاعة".

قالت الآنسة ماربل:"أخشى أن الشابات الجميلات هن من يتعقبهن الكاتب".

قلت:"وهذا ما يجعلنى أتعجب من عدم استلام إليسى هولاند لأى منها".

قالت الآنسة ماربل:"أهذه هى المربية التى تعمل بمنزل سيمنجتون ـ تلك التى حلمت بها يا سيد بيرتون؟".

"نعم".

قالت جوانا:"ربما تلقت واحدة ولكنها لم تفصح عنها".

قلت:"كلا، إننى أصدقها، وكذلك ناش يصدقها أيضًا".

قالت الآنسة ماربل:"عزيزى، هذا مهم جداً . إنه أكثر الأشياء التى سمعتها أهمية".

2

فى طريق عودتنا إلى المنزل أخبرتنى جوانا بأنه كان علىّ ألا أذكر شيئًا بخصوص ما قاله ناش عن إمكانية تلقى المزيد من الرسائل .

"ولِمَ لا؟".

"لأنه ربما تكون السيدة كالثروب هى كاتبة الرسائل".

"أنت لا تعتقدين ذلك حقًا!".

"لست متأكدة، فهى امرأة غريبة".

استأنفنا نقاشنا عن الاحتمالات مرة أخرى . بعد ليلتين كنت عائداً بالسيارة من إكزامبتون . كنت مدعواً على العشاء هناك . وعندما بدأت العودة كان الظلام قد خيم على لايمستوك بالفعل .

وحدث عطل بكشافات السيارة، وبعد أن هدأت السرعة نزلت لأرى ما يمكننى فعله، وظللت أعبث بها لبعض الوقت، ولكنى استطعت إصلاحها أخيراً .

كان الطريق خالياً من المارة تماماً . فلا أحد يخرج فى لايمستوك بعد حلول الظلام . كان أول البيوت على مرأى منى وبينها يقع المبنى القبيح لمؤسسة المرأة . كان يلوح فى ضوء النجوم الخافت، ودفعنى شىء ما للذهاب وإلقاء نظرة عليه . لا أدرى ما

إذا كنت قد لمحت شبح إنسان يتسلل إلى الداخل عبر البوابة ـ ولا أدرى إذا ما كان ذلك صحيحاً أم محض خيال، ولكننى شعرت فجأة بالفضول الشديد تجاه هذا المبنى .

كانت البوابة مفتوحة قليلاً، فقمت بفتحها أكثر ودلفت إلى الداخل . كان هناك ممر قصير وسلم من أربع درجات يؤدى إلى البوابة الداخلية .

وقفت هناك للحظة مترددًا . ما الذى أفعلة هنا حقًا؟ لم أكن أعرف، وفجأة سمعت صوت حفيف . بدا كما لو كان فستان امرأة . التفت بحدة وذهبت إلى ركن المبنى نحو المكان الذى سمعت الصوت عنده . لم أستطع رؤية أى شخص . فواصلت طريقى واستدرت مرة أخرى عند أحد الأركان، كنت حينئذ فى مؤخرة المبنى وفجأه رأيت نافذة مفتوحة على بعد قدمين منى .

زحفت إليها وأخذت أتنصت، ولم أسمع شيئًا، ولكنى كنت متأكدًا من وجود شخص بالداخل .

لم يكن ظهرى قد تعافى بالشكل الذى يؤهله لممارسة الألعاب الأكروباتية، ولكننى استطعت رفع نفسى عبر حافة النافذة والنزول بالداخل، وللأسف فقد أحدثت ضوضاء .

وقفت وراء النافذة متنصتًا، ثم سرت إلى الأمام وأنا أمد يدى أمامى متحسسًا الطريق، وعندئذ سمعت صوتًا خافتًا أمامى جهة اليمين .

كان معى بطارية فى جيبى فأشعلتها . فسمعت صوتًا يقول على الفور:"أطفئ هذا الشىء"فأطفأته فورًا، فقد أدركت أنة المفتش ناش .

شعرت به يأخذ ذراعى ويقودنى إلى الباب الداخلى ثم إلى ممر، حيث لم يكن هناك نوافذ تفضح وجودنا هنا، ثم أضاء مصباحًا ونظر إلىّ بأسى أكثر منه بغضب .

"ما كان يجب أن تقتحم المكان فى تلك اللحظة يا سيد بيرتون".

قلت معتذرًا:"آسف، ولكنى اعتقدت أن بوسعى التوصل إلى شىء ما".

"وربما كنت لتتوصل إليه . هل رأيت أى شخص؟"قلت مترددًا:"لست متأكدًا "، ثم قلت ببطء:"لقد كان يراودنى شعور غامض بأننى رأيت شخصًا يتسلل عبر البوابة الخارجية، ولكننى لم أر أحدًا فى الحقيقة . ثم سمعت صوت حفيف عند أحد جوانب المبنى".

أومأ ناش .

"هذا صحيح، فقد جاء أحدهم إلى المبنى قبلك، وقد وقف عند النافذة، ثم ذهب بسرعة، فقد سمعك على ما أعتقد".

اعتذرت مرة أخرى، ثم سألته:"ما رأيك فيما حدث؟".

قال ناش:

"إننى أعتقد أن كاتبة الرسائل المجهولة لا تستطيع التوقف عن كتابتها . لعلها تدرك أن ذلك يمثل خطراً عليها، ولكنها لا تستطيع التوقف، فقد تحول الأمر بالنسبة لها إلى شىء أشبة بإدمان المخدرات".

أومأت برأسى .

"وكما ترى يا سيد بيرتون، فإننى أتخيلها، أيًا كانت، ستحاول الحفاظ على شكل الرسائل كما هى قدر الإمكان . لقد حصلت على صفحات من ذلك الكتاب وتستطيع استخدام الحروف والكلمات المقصوصة منها . ولكن ذلك يمثل لها مشكلة، حيث سيتحتم عليها كتابتها على نفس الآلة الكاتبة . فهى لا تستطيع المخاطرة باستخدام آلة كاتبة أخرى أو خط يدها".

سألت متعجبًا:"أتعتقد حقًا أنها ستواصل اللعبة؟".

"نعم، أعتقد ذلك . وأراهنك ـ على أى شىء تريده ـ أنها شديدة الثقة بنفسها، فهؤلاء الناس يملؤهم الغرور! حسنًا، وعلى هذا فقد تصورت أنها، أيًا كانت، ستأتى إلى الجمعية بعد حلول الظلام كى تستخدم الآلة الكاتبة".

قلت:"الآنسة جينش".

"ربما".

"ألم تعرفها بعد؟".

"كلا لم أعرفها".

"ولكنك تشك؟".

"نعم، ولكنها امرأة شديدة الدهاء، امرأة تعرف كل حيل اللعبة يا سيد بيرتون".

استطعت تخيل بعض أجزاء الشبكة التى نصبها ناش . ولم يتسرب إلىّ الشك فى أن كل رسالة يكتبها أحد المشتبه بهم ويرسلها عبر البريد أو يسلمها باليد يتم فحصها فوراً . سيقع المجرم إن عاجلاً أو آجلاً بسبب عدم حرصه ولامبالاته .

وللمرة الثالثة اعتذرت عن اندفاعى ووجودى غير المرغوب فيه .

قال ناش بأسلوب متفلسف بعض الشىء:"أوه، حسنًا، لم يكن بوسع أحد تجنب ذلك . حظًا أفضل المرة القادمة".

خرجت فى الليل . وبدا لى شبح إنسان يقف بجانب سيارتى . ولدهشتى أدركت أنها ميجان .

قالت:"مرحبًا! لقد اعتقدت أنها سيارتك . ماذا كنت تفعل هنا؟".

"الأهم من هذا أن أسألك أنا ماذا تفعلين أنت؟".

"لقد خرجت لأتريض قليلاً، فأنا أحب أن أفعل ذلك بالليل، حيث لا أحد يستوقفنى ويقول لى أشياء سخيفة، كما أننى أحب رؤية النجوم، إضافة إلى أن النسائم تكون طيبة والأشياء غامضة وساحرة".

قلت:"أوافقك الرأى، ولكن القطط والساحرات هن فقط من يسرن فى الظلام . وسوف ينتابهم القلق عليك فى البيت".

"كلا، لن يفعلوا، فهم لا يهتمون أبداً بمعرفة مكانى أو ما أفعله".

سألتها:"كيف حالك؟".

"أعتقد أننى على ما يرام".

"هل تعتنى بك الآنسة هولاند؟".

"لا بأس بإليسى . فهى لا تستطيع إلا أن تكون حمقاء".

قلت:"هذا الأسلوب غير مهذب ـ ولكن ربما كان صحيحاً، هيا ادلفى إلى السيارة وسوف أصطحبك إلى المنزل".

لم تكن مسألة عدم الاهتمام بفقدان ميجان صحيحة تماماً .

فقد كان سيمنجتون يقف على عتبة الباب حينما وصلنا بالسيارة إلى هناك .

حدق إلىّ، قائلاً:"مرحباً، هل ميجان معك؟". قلت:"نعم، لقد أحضرتها إلى المنزل".

قال سيمنجتون بحدة:

"ليس من اللائق أن تخرجى هكذا دون أن تخبرينا يا ميجان . لقد كانت الآنسة هولاند قلقة جداً عليك".

تمتمت ميجان بشىء وهى تمر بجواره أثناء دخولها البيت، فتنهد سيمنجتون .

"إن الفتاة المراهقة مسئولية كبيرة وخاصة فى ظل عدم وجود أم تعتنى بها . وأعتقد أنها كبرت على المدرسة".

ثم نظر إلىّ بشك .

"هل أخذتها معك للتنزه بالسيارة؟".

فكرت أنه من الأفضل ترك السؤال هكذا .

الفصل الحادى عشر

1

فى اليوم التالى أصابنى الجنون، فكلما عاودت النظر إلى ما حدث به لا أجد سوى هذا التفسير .

كان قد حان موعد زيارتى الشهرية لـ"ماركوس كِنت"... وذهبت بالقطار . ولدهشتى الشديدة، فقد فضلت جوانا أن تبقى بالقرية، بالرغَم من أنها دائماً ما كانت تتلهف على المجىء معى، وعادة ما كنا نقيم فى لندن ليومين .

ومع ذلك، فقد اقترحتُ هذه المرة أن نعود فى نفس اليوم بقطار المساء . ولكننى دهشت من جوانا، فقد اكتفت بالقول ـ بطريقة غامضة ـ إن لديها الكثير لتفعله، ولماذا تقضى ساعات فى قطار مزدحم بغيض بينما كان اليوم جميلاً بالريف؟

هذا شىء لا يمكن إنكاره بالطبعِ، ولكنه بدا غريباً أن يصدر من جوانا . قالت إنها لا تريد ركوب السيارة، لذا كان علىَ أن أقودها حتى المحطة وأتركها هناك حتى عودتى .

كانت محطة لايمستوك ـ لسبب لا يعرفه سوى شركات السكك الحديدية فقط ـ تقع على بعد نصف ميل من لايمستوك نفسها . وفى منتصف الطريق إلى المحطة رأيت ميجان تسير دونما وجهة محددة، فتوقفت .

"مرحباً، ماذا تفعلين؟".

"أتريض فحسب".

"ولكننى أعتقد أن طريقتك فى المشى ليست من النوع الذى يطلق عليه السير برشاقة . إنك تزحفين كسرطان الماء البائس".

"حسناً، إننى لا أقصد وجهة محددة".

"إذن يجدر بك أن تأتى معى إلى محطة القطار وتودعينى". فتحت باب السيارة وقفزت ميجان بداخلها .

سألتنى:"إلى أين أنت ذاهب؟".

"إلى لندن، لأزور طبيبى".

"إن حالة ظهرك سيئة، أليس كذلك؟".

"كلا، لقد عاد إلى حالته الطبيعية، وأتوقع أن يُسر الطبيب عند فحصه لى هذه المرة".

أومأت ميجان .

وصلنا إلى المحطة، وتركت السيارة ودخلت وقطعت تذكرتى من مكتب الحجز . كان هناك قليل من الركاب على الرصيف ولم يكن من بينهم أحد أعرفه .

قالت ميجان:"هلا أقرضتنى بنسًا حتى أشترى به قطعة شيكولاته من عند آلة بيع الشيكولاته؟".

قلت وأنا أعطيها العملة فى يدها:"هاك البنس يا طفلتى".

ثم سألتها:"أمتأكدة أنك لا تريدين بعض العلكة أو أقراص النعناع؟".

قالت ميجان دونما التفات إلى نبرة التهكم:"إننى أفضل الشيكولاته على أى شىء آخر".

ثم ذهبت إلى آلة بيع الشيكولاته وتابعتها وأنا أشعر بالغيظ الشديد .

كانت تلبس حذاء مهترئًا وجوارب خشنة غير جذابة بالمرة، وبلوزة وتنورة لا شكل لهما . لا أعرف ما الذى يدعونى إلى الغيظ، ولكننى كنت مغتاظًا .

عندما عادت، قلت بغضب:

"لماذا تلبسين هذه الجوارب المقززة؟ ".

نظرت ميجان إليها بدهشة .

"ما العيب فيها؟ ".

"كلها عيوب، فهى ذات مظهر قبيح . ولماذا تلبسين هذا البلوفر الذى يبدو كالكرنبة الفاسدة؟".

"لا بأس به، أليس كذلك؟ إنه عندى منذ سنوات".

"هذا ما خمنته . لماذا ـ".

فى تلك اللحظة وصل القطار وقطع محاضرتى الغاضبة . دلفت فى عربة الدرجة الأولى الخالية من الركاب، وأنزلت النافذة، وأطللت برأسى منها لأكمل الحوار .

وقفت ميجان أسفل النافذة ووجهها لأعلى . سألتنى عن سبب غضبى الشديد .

قلت غير صادق:"إننى لست غاضبًا، ولكننى أغتاظ حينما أراك كسولة ولا تعتنين بمظهرك".

"لا أستطيع أن أبدو جميلة على أية حال، فما أهمية ذلك؟".

قلت:"يا إلهى! أود أن أراك بمظهر مناسب . أود أن آخذك إلى لندن وأغيرك من منبت رأسك إلى أخمص قدميك".

قالت ميجان:"أتمنى لو تفعل".

بدأ القطار يتحرك . نظرت أسفل منى إلى وجه ميجان المبتئس .

وعندئذ ـ وكما قلت ـ فقد اعترانى الجنون .

فتحت الباب وأمسكت بميجان بيد واحدة ورفعتها إلى داخل العربة بسرعة .

أطلق عامل القطار صرخة غضب، ولكن كل ما استطاع فعله هو إغلاق الباب مرة أخرى ببراعة . سألتنى وهى تمسح ركبتها:"ما الذى دهاك حتى تفعل ذلك؟".

قلت:"اصمتى، فسوف تأتين معى إلى لندن، وعندما أنتهى من تغييرك لن تعرفى نفسك . سوف أريك كيف كنت ستبدين لو حاولت الاهتمام بنفسك . لقد مللت من رؤيتك وأنت تتسكعين بملابس رثة بالية".

قالت ميجان بهمسة مشوبة بالنشوة:"أوه".

جاء محصل التذاكر واشتريت لـ"ميجان"تذكرة ذهاب وعودة . جلست على مقعدها وهى تنظر إلىّ باحترام بالغ .

قالت عندما غادر الرجل:"أعتقد أنك تتخذ قراراتك فجأة، أليس كذلك؟ ".

قلت:"نعم، فهذا طبع موروث فى عائلتنا".

كيف أشرح لـ"ميجان"الإحساس الذى اعترانى؟ لقد كانت تبدو ككلب بائس أهمله صاحبه . إنها ترتسم على وجهها الآن سعادة بالغة كتلك التى ترتسم على وجه الكلب الذى التقطه أحدهم من الطريق .

قلت لـ"ميجان ":"أظن أنك لا تعرفين لندن كثيراً".

قالت ميجان:"بلى، إننى أعرفها، فقد كنت أمر بها دائمًا وأنا ذاهبة إلى المدرسة . وقد ذهبت إلى طبيب الأسنان والمسرح هناك".

قلت:"هذه المرة ستبدو لك لندن مختلفة".

وصلنا إلى لندن قبل موعدى مع الطبيب بنصف ساعة .

استقللنا سيارة أجرة، وذهبنا مباشرة إلى ميروتين، وهو محل الأزياء الذى ترتاده

جوانا . كانت صاحبة محل ميروتين سيدة غير تقليدية ومرحة فى الخامسة والأربعين من عمرها، وتسمى مارى جراى . إنها سيدة ماهرة حلوة المعشر، ولطالما أحببتها .

قلت لـ"ميجان ":"أنت ابنة عمى".

"لماذا؟".

قلت:"لا تجادلينى".

كانت مارى جراى تتعامل بحزم مع فتاة بدينة تجرب فستان سهرة ضيقًا أزرق اللون . اقتربت منها وانتحيت بها جانبًا .

قلت:"أنصتى إلىّ، لقد أحضرت ابنة عمى الصغيرة . كانت جوانا ستأتى معنا ولكن عرض لها عارض . غير أنها قالت إننى أستطيع ترك الأمر لك . أترين كيف تبدو الفتاة الآن؟".

قالت مارى جراى بتأثر:"يا إلهى، إننى أراها".

"حسنًا، إننى أريدك أن تغيريها تمامًا من منبت شعرها حتى أخمص قدميها . ولك مطلق الحرية . الجوارب، الحذاء، الملابس الداخلية، كل شىء! بالمناسبة، مصفف شعر جوانا يقع بالقرب من هنا، أليس كذلك؟".

"أنتونى، إنه عند ناصية الشارع، سوف أتدبر أمره أيضًا".

"إنك امرأة رائعة".

"أوه، سوف أستمتع بالأمر ـ بغض النظر عن المال ـ وهذا أمر لا يستهان به هذه الأيام، فنصف زبائنى لا يدفعن فواتيرهن . ولكننى كما قلت لك، سوف أستمتع بالأمر". ثم ألقت نظرة خبيرة سريعة على ميجان التى كانت تقف بعيدًا عنا ."إن لها قوامًا جميلاً".

قلت:"لابد أن عينيك بهما أشعة إكس، فهى تبدو لى غير ذلك تمامًا".

ضحكت مارى جراى .

وقالت:"إنها تلك المدارس . يبدو أنها تتفاخر فى تحويل الفتيات إلى كائنات بشعة غير مهندمة بزعم أن الجمال فى البساطة . أحيانًا تحتاج الواحدة منهن إلى سنة كاملة حتى تواتيها الشجاعة وتصلح من ملبسها . لا تقلق، دع الأمر لى".

قلت:"اتفقنا، سوف أعود وآخذها فى الساعة السادسة تقريبًا".

كان"ماركوس كنت"مسروراً مما وصلت إليه حالتى الصحية، وقد أخبرنى بأننى تجاوزت أفضل توقعاته .

ثم قال:"لابد أن لك بنية فيل حتى تستعيد صحتك بهذه السرعة . ياله من رائع ذلك التأثير الذى يتركه على المرء هواء الريف وعدم التأخر فى السهر أو التعرض لانفعالات ... إن استماع المرء الالتزام بذلك".

قلت:"أوافقك على أول اثنين، ولكن لا تحسب أن الريف يخلو من الانفعالات ؛ فلدينا الكثير منها فى منطقتنا".

"أى نوع من الانفعالات؟".

"جرائم قتل مثلاً".

ضم ماركوس كنت شفتيه وأطلق صفيراً وقال:"أهى مأساة حب ريفية؟ صبى مزارع قتل حبيبته مثلاً؟".

"أبداً، بل قاتل مخادع مجنون".

"لم أقرأ عن ذلك شيئًا . متى تم اعتقاله؟".

"لم يعتقل، كما أنها أنثى!".

"أوه! لست واثقًا أن لايمستوك هى المكان المناسب لك أيها الفتى".

قلت بصلابة:"بل هى كذلك، ولن تستطيع إخراجى منها".

"هكذا إذن! أو قد وجدت لك إحدى الحسناوات الفاتنات هناك؟".

قلت وأنا أفكر بإلسى هولاند بشىء من الشعور بالذنب:"إطلاقًا، كل ما فى الأمر أن سيكولوجية الجريمة تثير اهتمامى".

"أوه، لا بأس . من المؤكد أنها لم تؤذك حتى الآن، ولكن تأكد فقط من أن مجرمتك المجنونة لن تقتلك أنت".

"لا خوف من هذا".

"ما رأيك بالعشاء معى الليلة؟ يمكنك أن تخبرنى بكل شىء عن جريمتك تلك".

"آسف ؛ إننى على موعد".

"موعد مع سيدة؟ نعم، أنت تتقدم بالتأكيد".

قلت وقد أعجبنى تخيل ميجان وهى تقوم بذلك الدور:"أحسب أن بوسعك أن تسميها هكذا".

وصلت إلى محل ميروتين الساعة السادسة، وهو موعد الإغلاق الرسمى للمحل . وجاءت مارى جراى لاستقبالى عند أعلى الدرج خارج غرفة العرض، وقالت وقد وضعت إصبعها على شفتيها:"ستصاب بالصدمة! لو صح أن أقول ذلك عن نفسى لقلت إننى قمت بعمل رائع".

ذهبت إلى غرفة العرض الكبيرة . كانت ميجان تنظر إلى نفسها فى مرآة طويلة، وأصدقكم القول بأننى لم أكد أعرفها ؛ فقد أدهشنى منظرها لحظات! طويلة ونحيفة بملابس أنيقة وجوارب حريرية وحذاء جميل ... كان التميز فى كل مظهر من مظاهرها، وقد تم تشذيب شعرها وتصفيفه ليناسب رأسها، وكان يلمع كحبة الكستناء، ولقد كان لهم من الذوق ما جعلهم يتركون وجهها على حاله، بلا مساحيق أو أحمر شفاه .

علاوة على هذا كان هناك شىء فيها لم أكن لاحظته من قبل وهو مظهر جيدها الذى كان به شموخ وهيبة . وأخذت تنظر لى وعلى وجهها ابتسامة خجلة .

قالت لى:

"إننى رائعة، أليس كذلك؟".

"رائعة! إن كلمة رائعة لا تكفى لوصفك! تعالى نذهب إلى العشاء وسوف أندهش إن لم يلتفت إليك كل الرجال .... ستقهرين كل الفتيات!".

لم تكن ميجان جميلة، ولكنها كانت ذات مظهر آسر وغير عادى ؛ كانت لها شخصية مميزة . سارت أمامى إلى المطعم، وأسرع النادل إلينا يدعونا للجلوس على مائدة مناسبة . شعرت بذات الانفعال والفخر الطفوليين اللذين يشعر بهما الرجل عندما يمر بتجربة غير اعتيادية . وبعد أن تناولنا العشاء قالت ميجان:"أليس هذا الطعام رائعاً؟ وكل شىء رائع كذلك!".

"بالطبع يا عزيزتى".

ثم تنهدت مسرورة، فقلت:"نفس شعورى بالضبط".

كانت أمسية جميلة، وفجأة قالت ميجان بارتياب:"ألا يجب أن تعود إلى البيت؟".

فتحت فمى فى دهشة . نعم، كنت مستغرقًا تمامًا بحيث نسيت كل شىء . صحت:"يا إلهى!"؛ فقد أدركت أن آخر قطار قد غادر .

قلت:"ابقى هنا، أنا ذاهب للاتصال بالهاتف".

اتصلت بشركة للوين لتأجير السيارات وطلبت منهم أن يرسلوا لنا أكبر وأسرع سيارة عندهم وفى أسرع وقت ممكن، ثم عدت إلى ميجان وقلت لها:"لقد غادر آخر القطارات لهذا اليوم، ولذلك سنعود إلى البيت بالسيارة".

"أحقًا؟ يالها من متعة!".

كم كانت طفلة لطيفة .... يسرها كل شىء، وتقبل كل اقتراحاتى دون ضجة أو تذمر . وصلت السيارة، وكانت كبيرة وسريعة، ومع ذلك لم تصل إلى لايمستوك إلا فى وقت متأخر جداً . قلت وقد شعرت فجأة بتأنيب الضمير:"لابد أنهم أرسلوا فرق تفتيش للبحث عنك!".

لكن ميجان بدت فى مزاج هادئ . وقالت على نحو غامض:"أوه، لا أظن ذلك ؛ فأنا غالبًا ما أخرج ولا أعود إلى البيت على الغداء".

"نعم يا عزيزتى، ولكنك غبت طوال النهار وتخلفت عن العشاء أيضًا".

حالف الحظ ميجان، فقد كان البيت مظلمًا وساكنًا . وبناء على نصيحتها دُرنا خلف البيت وألقينا حصاة على نافذة غرفة روز .

وأخيراً أطلت روز من النافذة، وبعد الكثير من تعابير الدهشة المكبوتة والانفعال، نزلت لتدخلنا إلى البيت قائلة:"ها أنت الآن، وأنا التى قلتُ إنك نائمة فى فراشك . لقد خرج سيدى مع الآنسة هولاند (مع إبداء ازدرائها عند ذكر الآنسة هولاند) وتناولا العشاء مبكراً وذهبا فى نزهة بالسيارة، وقد قلت لهما إننى سأهتم بأمر الولدين . ظننت أننى سمعتك تدخلين عندما كنتُ فى غرفة الأطفال لإسكات كولين الذى كان يلعب فى الغرفة، ولكنك لم تكونى موجودة عندما نزلت، ولذلك ظننت أنك ذهبت إلى فراشك، وهذا ما قلته عندما جاء سيدى وسأل عنك".

قمت باختصار هذه المحادثة لأقول إن من الأفضل لميجان أن تذهب إلى فراشها الآن . قالت ميجان:"طابت ليلتك، وأشكرك شكراً لا حدود له ... كان هذا أروع يوم فى حياتى".

عدت بالسيارة إلى البيت وأنا مازلت أشعر بالسعادة، ودفعت للسائق أجرة كبيرة وعرضت عليه أن ينام عندى إن شاء، لكنه فضل أن يعود إلى لندن فى الليل .

كان باب الصالة قد انفتح أثناء حديثنا، وعندما انطلق بسيارته أطلت جوانا وقالت:"إذن فقد عدت أخيراً؟".

دخلت وأغلقت الباب خلفى وقلت:"هل قلقت علىّ؟".

ذهبت جوانا إلى غرفة الاستقبال وتبعتها . كان إبريق القهوة موضوعًا على الطاولة، صبت جوانا فنجانين من القهوة لى ولها ثم قالت:

"قلقتُ عليك؟ كلا بالطبع . ظننت أنك قررت البقاء فى المدينة وقضاء سهرة صاخبة".

"لقد قضيت سهرة صاخبة ... نوعًا ما".

ابتسمت ثم بدأت أضحك . سألتنى جوانا عن سبب ضحكى فأخبرتها بما حدث، فقالت، ولكن ... لابد أنك كنت وقتها مجنونًا تمامًا!".

"أظننى كنت كذلك".

"ولكنك يا طفلى العزيز لا تستطيع فعل أشياء كهذه ... ليس فى مثل هذا المكان! سينتشر الخبر فى كل أنحاء لايمستوك غدًا".

"أظنه سينتشر بالفعل، ولكن ميجان مجرد طفلة فى نهاية الأمر".

"ليست طفلة ؛ إنها فى العشرين من عمرها . لا يمكنك أن تأخذ فتاة فى العشرين إلى لندن وتشترى لها ملابس دون إحداث فضيحة كبيرة . يا إلهى، ربما اضطررت للزواج بالفتاة!".

كانت جوانا تخلط الجد بالهزل . وفى تلك اللحظة وصلت إلى اكتشاف مهم جدًا، فقد قلت:"تبًا لذلك كله! أنا لن أمانع فى الزواج بها، بل إننى فى الحقيقة ... سأحب ذلك".

ظهرت على وجه جوانا ملامح غريبة جدًا . نهضت وقالت بشىء من الغلظة وهى تتجه نحو الباب:"نعم، لقد كنت أعرف هذا منذ بعض الوقت ...".

تركتنى وفنجانى بيدى واقفًا مشدوهًا باكتشافى الجديد .

الفصل الثانى عشر

1

لا أعلم ما هى ردود الأفعال المعتادة لرجل يذهب من أجل التقدم الزواج .

فى الروايات يصورنه كرجل يشعر بجفاف فى حلقه، وبأن ياقة قميصه ضيقة للغاية، ويكون على درجة كبيرة من التوتر .

ولكننى لم أشعر بشىء من هذا القبيل . لقد كان ما يراودنى فكرة طيبة، وكل ما أردته إنهاء الأمر فى أسرع وقت ممكن . ولم أر أى داع للشعور بالحرج .

ذهبت إلى منزل أسرة سيمنجتون فى نحو الحادية عشرة . وقد قرعت الجرس، وعندما أتت روز سألتها عن الآنسة ميجان . وقد كانت نظرة روز إلىّ ـ تلك النظرة التى توحى بمعرفتها بالأمر ـ هى ما جعلنى أشعر بقليل من الخجل .

وقد قادتنى إلى غرفة صغيرة، وبينما كنت أنتظر هناك، تمنيت ألا يكونوا قد أثاروا ضيق ميجان .

وعندما فتح الباب والتفت نحوه شعرت بالارتياح على التو . فلم يكن باديًا على ميجان الخجل أو أمارات الضيق مطلقًا . كان رأسها لا يزال مرفوعًا ويكسوه ذلك الشعر الكستنائى اللامع، وقد بدا عليها ذلك الشعور بالفخر واحترام الذات التى حظيت بهما بالأمس .

وكانت ترتدى ملابسها القديمة مرة أخرى، ولكنها نجحت فى أن تجعل ملابسها تبدو مختلفة . فكم كان من الرائع أن تعرف الفتاة مدى ما تتمتع به من جاذبية . وقد أدركت فجأة أن ميجان قد أصبحت ناضجة .

أعتقد أننى كنت أشعر بدرجة من التوتر، وإلا لما كنت فتحت الحوار قائلاً:"مرحبًا أيتها الشقية! "، فلم تكن تلك بالتحية المناسبة فى ظروف كهذه من رجل محب لمحبوبته .

ولكن يبدو أن تحيتى كانت تروق لميجان فابتسمت ابتسامة واسعة وردت التحية قائلة:"مرحبًا!".

قلت:"انظرى هنا، آمل ألا تكونى قد غضبت بشأن ما حدث بالأمس".

قالت مؤكدة:"أوه، كلا"ثم بعد ذلك غمزت إلىّ وقالت بأسلوب غامض:"نعم لقد غضبت، أعنى، أنهم قالوا الكثير من الأشياء وبدا وكأنهم يعتقدون أن الأمر فى شدة الغرابة، ولكنك فى النهاية تعلم طبيعة البشر والجلبة التى يصنعونها من لا شىء".

شعرت بالارتياح عندما وجدت أن عدم الاستحسان قد زال من جانب ميجان .

قلت:"لقد أتيت إليك هذا الصباح لأننى وددت أن أقدم لكى اقتراحاً ما . فكما تعلمين، فأنت تروقين لى كثيراً، وأعتقد أننى أروق لك أنا الآخر ـــــ".

ردت ميجان بحماس يشوبه القلق:"بدرجة كبيرة".

"ونحن أيضاً متفاهمان للغاية، لذا فإننى أعتقد أنه سيكون من الملائم لو تزوجنا".

قالت ميجان:"أوه".

بدا عليها الاندهاش . لا شىء أكثر من ذلك . لم تكن مشدوهة أو مصدومة . بدت فقط مندهشة قليلاً .

سألتنى بأسلوب شخص يعرف تماماً جواب ما يسأل عنه:"هل تعنى أنك ترغب حقاً فى الزواج بى؟".

قلت وأنا أعنى ما أقول:"أكثر من أى شىء آخر فى العالم".

"هل تعنى أنك تحبنى؟".

"نعم إننى أحبك".

كانت عيناها ثابتتين وعميقتين وهى تقول:"أعتقد أنك ألطف شخص فى العالم ولكنى لا أحبك".

"سأجعلك تقعين فى حبى".

"إن هذا لن يجدى، فأنا لا أرغب فى أن يجعلنى شخص أحبه، إننى أرغب فى أن أحبه من تلقاء نفسى".

توقفت ثم قالت بوضوح:"إننى لست المرأة التى تصلح زوجة لك . إننى أستطيع أن أكره أكثر مما أحب".

قالتها بإصرار غريب .

فقلت:» إن الكره لا يدوم . أما الحب فلا نهاية له".

"هل هذا حقيقى؟".

"هذا ما أؤمن به".

خيم الصمت من جديد، ثم قلت لها:

"إذن فجوابك هو الرفض، أليس كذلك؟".

"نعم، إننى أرفض طلبك".

"وهل هناك أمل فى أن يتغير هذا الرفض؟".

"وماذا ستكون فائدة ذلك؟".

اتفقت معها قائلاً:"لن يكون لذلك فائدة، ولكنى فى واقع الأمر سأعيش على ذلك الأمل سواء أخبرتنى بهذا أم لا".

2

حسنًا، هذا كل ما حدث . انصرفت من المنزل شاعراً بدوار بسيط . ولكنى شعرت بالسخط من نظرة روز الشغوفة التى تبعتنى .

وقد كان لدى روز الكثير لتفضى لى به قبل أن أتمكن من الهرب منها .

إنها لم تعد أبداً لطبيعتها منذ ذلك اليوم، ولم تكن لتستمر فى عملها لولا أنها تشعر بالأسى من أجل السيد سيمنجتون المسكين . ولم تكن لترحل إلا إذا عثروا على خادمة أخرى . وهذا، على الأرجح، لن يحدث بسبب وجود جريمة قتل فى المنزل! ومن الرائع حقاً أن الآنسة هولاند ستبقى وتقوم بالأعمال المنزلية فى الوقت ذاته . كم كانت لطيفة ومطيعة ـ ولكنها كانت تتخيل نفسها بأنها ستكون سيدة المنزل فى يوم من الأيام . السيد سيمنجتون، ذلك الرجل المسكين يعرف شيئاً عن خططها، ولكن المرء يعرف كيف هو حال الرجل الأرمل، إنه كائن مسكين لا حول له يقع بسهولة فريسة فى براثن امرأة خططت لإيقاعه فى شراكها . فقد بدت فى الحال رغبتها فى أن تحل محل سيدة المنزل المتوفاة!

كنت أتفق معها فى كل ما تقول، كنت أتوق إلى الانصراف ولكنى لم أتمكن من ذلك لأن روز كانت تقبض بإحكام على قبعتى بينما كانت تمطرنى بوابل ضغائنها .

وتساءلت فى نفسى عما إذا كان هناك أى صدق فيما قالته، هل حلمت إلسى هولاند حقاً بإمكانية أن تصبح زوجة السيد سيمنجتون الثانية؟ أم أنها كانت مجرد فتاة رقيقة طيبة القلب تبذل أفضل ما لديها لتعتنى بأفراد المنزل المكلومين؟

من الأرجح أن تكون النتيجة واحدة فى كلتا الحالتين . ولم لا؟ فأبناء سيمنجتون

الصغار فى حاجة إلى أم ترعاهم، وإلسى لها روح رقيقة حلوة، كما أنها تتمتع بالجمال حتى لو كان ذلك بشكل غير مباشر، الأمر الذى قد يقدره أى رجل، حتى لو كان رجلاً على سجيته مثل سيمنجتون!

كنت أعلم أننى فكرت فى كل ذلك لأننى أردت أن أصرف ذهنى عن التفكير فى ميجان .

ربما تعتقد أننى طلبت من ميجان الزواج بشكل عقلانى فج للغاية وأننى أستحق ما نلت منها، ولكن الأمر لم يكن حقاً كذلك . فقد فعلت ذلك لأننى كنت على يقين، وإيمان بالغ بأن ميجان تنتمى إلىّ ـ إنها ملك لى ـ وأن العناية بها وإسعادها وحمايتها من أى سوء قد يصدمها هو حقى الطبيعى فى الحياة، وقد توقعت هذا منها، وأنها تعتقد أن كلاً منا يخص الآخر .

ولكنى لم أكن لأستسلم . فإن ميجان هى فتاتى وسوف أظفر بها فى النهاية .

وبعد دقيقة من التفكير، ذهبت إلى مكتب سيمنجتون . فربما لم تنتبه ميجان إلى الضوابط والقيود على تصرفاتها، وإننى أود أن أضع الأمور فى نصابها الصحيح .

أخبرونى هناك بأن السيد سيمنجتون لم يعد مشغولاً، وقادنى أحدهم إلى مكتبه الخاص . ومن زمه لشفتيه وأسلوبه الجاف أدركت أننى ربما لم آت فى الوقت المناسب .

فقلت:» صباح الخير، أخشى أن زيارتى ليست رسمية ولكنها زيارة شخصية . سأدخل فى الأمر مباشرة . أعتقد أنك قد لاحظت أننى أحب ميجان . وقد طلبت منها الزواج ولكنها رفضت طلبى، ولكنى لا أعتقد أن هذا هو نهاية الأمر".

رأيت أن تعبيرات سيمنجتون قد تغيرت، وقرأت أفكاره بسهولة شديدة . فقد كانت ميجان شخصاً لا ينتمى لمنزله، ومع أننى كنت على يقين من ذلك، فإننى كنت أراه رجلاً عادلاً وعطوفاً، ولا شك فى أنه كان يرغب فى توفير مسكن لابنة زوجته الراحلة . ولكن زواجها منى سيمثل له راحة كبيرة بكل تأكيد . وأخيراً ذاب الجيد عنه وكشف وجهه عن ابتسامة واهنة حذرة .

"بصراحة، وكما تعلم يا بيرتون، لم تكن لدىّ أى فكرة عما تقول . أعلم أنك تهتم بميجان كثيراً، ولكننا جميعاً كنا نعتبرها طفلة".

قلت:"إنها ليست طفلة".

"كلا، كلا ليست طفلة فى عمرها".

قلت وكنت مازلت أشعر بقليل من الغضب:"يمكن أن تنضج وتصبح فى عمرها الحقيقى فى أى وقت يُسمح لها فيه بذلك، أعلم أنها لم تبلغ الحادية والعشرين بعد، ولكنى سأبلغك بكل المعلومات التى ترغبها عنى . إن سمعتى طيبة وعشت حياة نظيفة .

سوف أعتنى بها وأفعل ما فى وسعى لأجعلها سعيدة .

"حسنًا . حسنًا، ولكن لا يزال الأمر فى يدى ميجان".

"سوف تغير رأيها فى الوقت المناسب، ولكنى أردت أن أبحث الأمر معك".

قال إنه يقدر ذلك، وانصرفنا وبيننا مشاعر ودودة .

3

هرعت إلى الآنسة إيميلى بارتون بالخارج وكانت تحمل فى يدها حقيبة تسوق .

"صباح الخير يا سيد بيرتون، لقد تناهى إلى مسامعى أنك ذهبت إلى لندن بالأمس".

نعم، لقد سمعت الآنسة إيميلى بالأمر . وقد وجدت أن فى عينيها نظرة عطف، ولكنها فى الوقت ذاته يغمرها الفضول .

قلت لها:"لقد ذهبت لزيارة طبيبى".

ابتسمت الآنسة إيميلى .

كانت ابتسامتها تشبه قليلاً ابتسامة ماركوس كنت، وغمغمت:"لقد سمعت أن ميجان كاد يفوتها القطار، لقد قفزت بداخله بينما كان يسير".

قلت لها:"لقد ساعدتها على الصعود بداخله".

"كم كانت محظوظة لأنك كنت هناك . وإلا لكانت وقعت لها حادثة".

كم هو غير عادى ذلك الشعور بالحماقة الذى يمكن لامرأة فضولية عجوز أن تجعل الرجل يشعر به!

ولقد زادت معاناتى عند ظهور السيدة دين كالثروب حيث قالت:"صباح الخير، لقد تناهى إلى مسامعى أنك جعلت ميجان تشترى لنفسها بعض الملابس اللطيفة، إنه شىء لطيف منك، فليس من السهل على الرجل أن يفكر فى شىء عملى كهذا . لقد كنت أشعر بالقلق بشأن تلك الفتاة منذ وقت طويل، فمثل هؤلاء الفتيات ممن يفكرن كثيراً من المحتمل للغاية أن يصيبهن الجنون، أليس كذلك؟ ".

ومع عبارتها تلك دخلت إلى متجر السمك .

قالت الآنسة ماربل وهى تقف إلى يسارى بعد أن طرفت بعينيها قليلاً:

"إن السيدة دين كالثروب امرأة مميزة حقًا، فإنها دائمًا ما تكون على صواب فى أغلب

الأوقات".

قلت لها:"هذا يجعلها مزعجة".

قالت الآنسة ماربل:"ربما يكون لقول الصدق هذا التأثير".

خرجت السيدة داين كالثروب من متجر السمك مرة أخرى وانضمت إلينا . كانت تحمل فى يدها سرطانًا بحريًا أحمر عملاقًا .

وقالت:"هل رأيت شيئًا مثل هذا من قبل يا سيد باى، إنه رائع، أليس كذلك؟ ".

4

شعرت بقليل من التوتر قبل لقاء جوانا، ولكنى وجدت بعد ذلك أنه لم يكن هناك داع للشعور بالقلق . فقد وجدت أنها قد خرجت ولم تعد حتى موعد الغداء . الأمر الذى أثار ضيق بارتريدج لدرجة كبيرة والتى قالت بأسى بينما تضع أمامى وعاءين من اللحم على الطاولة:"لقد أكدت الآنسة بيرتون أنها ستأتى إلى هنا على موعد الغداء".

تناولت كلا الوعاءين محاولة منى لصرف ذهنى عن التفكير فى غياب جوانا .

ولكننى تساءلت إلى أين ذهبت شقيقتى؟ لقد أصبح الكثير من الغموض يكتنف تصرفاتها مؤخرًا .

كانت الساعة الثالثة والنصف عندما هرعت جوانا إلى غرفة الاستقبال . وكنت قد سمعت صوت سيارة توقفت بالخارج وتوقعت على غير يقين أن يكون هذا جريفيث، ولكن توقفت السيارة وأتت جوانا بمفردها .

كان وجهها شديد الحمرة وبدا عليها الضيق، وقد توقعت أن يكون هناك خطب ما .

سألتها:"ما الخطب؟ ".

فغرت جوانا فاها ثم أطبقته مرة أخرى، تنهدت، ثم جلست على أحد المقاعد وحملقت أمامها فى الفراغ .

وقالت:"لقد مررت بأسوأ يوم على الإطلاق".

"ماذا حدث؟".

"لقد فعلت ما لا يمكن تصديقه . لقد كان شيئًا مريعًا".

"ولكن ماذا؟".

"لقد ذهبت لأتريض قليلاً . صعدت أعلى التل ومنه إلى مستنقع، ثم سرت لعدة أميال، هذا ما قمت به . وبعدها نزلت إلى واد، وقد كانت هناك مزرعة، مزرعة بعيدة منعزلة . وقد شعرت بالعطش ففكرت أننى ربما أجد بعض اللبن أو الماء لأشربه هناك . ولذا تجولت فى فناء المزرعة ثم انفتح الباب وظهر عنده أوين جريفيث".

"ثم".

"لقد ظن أنه ربما تكون هذه هى ممرضة المقاطعة قد وصلت لتوها . فقد كانت هناك امرأة فى حالة وضع، وكان ينتظر قدوم الممرضة، فإن الأمور كانت تسوء".

"وماذا حدث بعد ذلك؟".

"قال لى، هيا تعالى سوف تقومين بالأمر، وهذا أفضل من عدم وجود شخص على الإطلاق، فقلت له إننى لن أستطيع فعل ذلك، ولكنه سألنى عما أعنى بذلك؟ فقلت له إننى لم يسبق لى فعل شىء كهذا من قبل، وإننى لا أعرف أى شىء عن التمريض".

"فقال لى وما الذى يهم فى ذلك؟ وبعد ذلك بدأ يتصرف معى بشدة، لقد كان مريعاً حقاً، فقد خاطبنى بعنف وقال:"إنك امرأة، أليس كذلك؟ وأعتقد أنه يمكنك فعل شىء إنسانى لمساعدة امرأة أخرى، أليس كذلك؟ وقد استمر يقول إننى قد ذكرت ذات مرة اهتمامى بالتمريض وأننى تمنيت لو كنت ممرضة . وقال: كان ذلك مجرد كلام فى اعتقادى! إنك لم تعنى أى شىء منه، أما الأمر الآن فهو موقف حقيقى، وسوف تتصرفين كإنسان وديع عاقل وليس كشخص أحمق لا قيمة له".

"لقد فعل أشياء لا يمكن تصديقها يا جيرى . لقد تناولت أدوات طبية وقمت بتعقيمها وكنت أناوله إياها أثناء الجراحة . إننى متعبة للغاية وأستطيع الوقوف بالكاد على قدمى . لقد كان أمراً مريعاً . لكنه أنقذ حياتها وأنقذ المولود أيضاً . لقد ولد حياً . لم يعتقد للحظة أنه سيتمكن من إنقاذ الطفل . أوه يا إلهى".

غطت جوانا وجهها بكلتا يديها .

ولقد وجدت أن جوانا تشعر بقدر من السعادة، وأثنيت فى نفسى بشدة على تصرف جريفيث هذا . فلقد نجح فى أن يخرج جوانا إلى عالم الواقع ولو لمرة واحدة .

فقلت لها:"هناك خطاب لك فى الردهة، إنه من باول على ما أعتقد".

"ماذا؟"ثم توقفت لدقيقة ثم أردفت:"ليس لدىّ أدنى فكرة عما يجب على الأطباء فعله يا جيرى؟ إنهم يتمتعون بأعصاب قوية حقاً".

ذهبت إلى الردهة وأحضرت خطاب جوانا . فتحته ونظرت إلى محتواه ثم ألقته .

"لقد كان رائعاً حقاً فى الطريقة التى تصرف بها . لقد كان مصراً على ألا يُهزم! وأن ينقذها، لقد كان جافاً معى وغليظاً، ولكنه كان رائعاً".

نظرت إلى خطابِ باول الملقى بإهمال وأنا أشعر بالسعادة . فمن الواضح أن جوانا قد شفيت من باول تماماً .

الفصل الثالث عشر

1

لا تحدث الأشياء أبداً عندما ننتظر وقوعها .

لقد كنت مستغرقًا للغاية فى أمر جوانا وفى أمورى الشخصية، ولقد كنت شارد الذهن قليلاً فى صباح اليوم التالى عندما أتانى صوت ناش عبر الهاتف قائلاً:"لقد وصلنا إليها يا سيد بيرتون".

لقد كنت مشدوها وأسقطت سماعة الهاتف من يدى تقريبًا .

"هل تعنى ال- ...".

قاطعنى قائلاً:

"هل يمكن لأحد الاستماع لما تقول حيث أنت؟".

"كلا، لا أعتقد ذلك - حسنًا ربما يكون ذلك".

فقد بدا لى أن الباب المفضى إلى المطبخ قد انفتح قليلاً .

"أعتقد أنك ستهتم بالقدوم إلى مركز الشرطة؟".

"سوف أفعل فى الحال".

لم يستغرق وصولى إلى مركز الشرطة المجاور لنا أى وقت تقريبًا . وفى غرفة داخلية كان كل من ناش والشرطى باركينز يجلسان معًا . وكان ناش يبتسم ابتسامة عريضة .

قال:"لقد كانت مطاردة طويلة، ولكننا وصلنا فى النهاية".

ألقى بخطاب على الطاولة . وهذه المرة كان الخطاب بأكمله مكتوبًا بواسطة الآلة الكاتبة .

"ليس هناك

فائدة من محاولتك لتحلى محل السيدة الراحلة . فالبلدة كلها تسخر

منك . ارحلى الآن . ارحلى قبل أن يفوت الأوان . هذا تحذير .

تذكرى ما حدث للفتاة الأخرى ارحلى ولا تعودى".

وقد انتهى الخطاب ببعض العبارات البذيئة .

قال ناش:"لقد وصل هذا الخطاب للآنسة هولاند هذا الصباح".

قال المحقق باركينز:"من المضحك أنها لم تتلق خطاباً مثل ذلك من قبل".

سألته:"من الذى كتبه؟".

زال بعض من الابتهاج المرتسم على وجه ناش .

فقد بدا قلقًا . وقال بحزن:

"إننى حزين بشأن ذلك لأنه سوف يؤلم رجلاً وديعًا، ولكن هذا هو الأمر . وربما كانت تساوره بعض الشكوك بالفعل".

سألت:"من الذى كتبه؟".

"الآنسة إيمى جريفيث".

2

توجه ناش وباركينز إلى منزل جريفيث هذا المساء .

وقد دعانى ناش إلى الذهاب معهما وفعلت .

وقال:"إن الطبيب معجب بك، وإن لديه الكثير من الأصدقاء هنا وأعتقد يا سيد بيرتون أنه سيكون عليك إذا لم يكن الأمر سيسبب لك ألمًا، أن تقف إلى جوار الرجل وتساعده على الخروج من محنته وتجاوز صدمته".

فقلت لهم إننى سأرافقهم إلى هناك . لم ترق لى المهمة ولكنى اعتقدت أننى ربما أكون ذا نفع .

قرعنا الجرس، وسألنا عن الآنسة جريفيث وقادتنا الخادمة إلى غرفة الاستقبال . ووجدنا هناك إلسى هولاند وميجان وسيمنجتون يحتسون الشاى .

تصرف ناش بأسلوب حذر وواعٍ للغاية .

سأل إيمى عما إذا كان بمقدروه التحدث معها قليلاً على انفراد .

نهضت ثم تقدمت نحونا . واعتقدت أننى لمحت نظرة شخص مطارد فى عينيها . ولكن اختفت هذه النظرة . لقد كانت إيمى فى حالتها الطبيعية تماماً وكانت مرحة .

"هل ترغب فى التحدث إلىّ؟ آمل ألا تكون المشكلة متعلقة بأضواء سيارتى مرة أخرى؟".

شقت طريقها خارج غرفة الاستقبال وذهبت عبر الردهة، ودلفت إلى حجرة مكتب صغيرة .

وبينما كنت أغلق باب حجرة الاستقبال، رأيت سيمنجتون قد رفع رأسه بشدة . أعتقد أن التدريبات القانونية التى تلقاها جعلته على دراية بقضايا الشرطة، الأمر الذى جعله يدرك شيئًا فى سلوك ناش . وقد كان يمد رأسه للأمام محاولاً أن يستشف ما يدور .

هذا كل ما رأيته قبل إغلاقى للباب ولحاقى بالآخرين .

كان ناش يتحدث بدوره، وقد كان هادئًا هدوءًا شديدًا ومتزنًا .

قام بتحذيرها وأخبرها بأن عليها أن تصحبه، فقد كان معه إذن بإلقاء القبض عليها، وقرأ عليها نص الاتهام .

لقد نسيت الآن المصطلح القانونى لذلك . ولكن كان اتهامها محصوراً فى كتابة الخطابات وليس جريمة القتل بعد .

رفعت إيمى جريفيث رأسها وانفجرت فى الضحك وقالت:"ما هذه السخافات! كيف لك أن تتخيل أن أكتب أشياء قذرة مثل هذه، لابد أنك قد أصابك الجنون، إننى لم أكتب كلمة من هذا مطلقًا".

أخرج ناش الخطاب الموجه إلى إلسى هولاند وقال:"هل تنكرين أنك من قام بكتابة هذا الخطاب يا آنسة جريفيث؟".

إن كانت ترددت فإن ذلك لم يتعد جزءًا من الثانية .

"بالطبع أنكر ذلك . إننى لم أر هذا الخطاب من قبل".

قال ناش بهدوء:"لابد أن أخبرك يا آنسة جريفيث أنك قد شوهدت وأنت تكتبين هذا الخطاب على الآلة الكاتبة فى معهد"ويمن انستتيوت"بين الساعة الحادية عشرة والحادية عشرة والثلث مساءً وكان ذلك ليلة أول أمس . وقد ذهبت إلى مكتب البريد بالأمس . وفى يدك مجموعة من الخطابات".

"ولكنى لم أرسل ذلك الخطاب قط".

"نعم إنك لم ترسليه، فبينما كنت تنتظرين الحصول على الطوابع قمت بإلقاء

الخطاب فى مكان ظاهر على الأرض، حتى يعثر عليه أحدهم، ويقوم بإرساله دون أن يشك فى الأمر .

"لم أفعل ابدأ".

انفتح الباب ودلف سيمنجتون . قال بحدة:"ماذا يحدث هنا؟ إيمى، إذا كان هناك من يستجوبك، فيجب أن يكون هناك من ينوب عنك من الناحية القانونية، إذا أردت أن أقوم أنا".

انهارت حينها . وغطت وجهها بيدها وجلست على أحد المقاعد قائلة:

"انصرف يا ديك، انصرف ليس أنت، ليس أنت".

"إنك فى حاجة إلى محامٍ يا فتاتى العزيزة".

"ليس أنت ـ إنى لا أستطيع تحمل ذلك، لا أريدك أن تعرف بشأن كل هذا".

ربما تفهم الأمر حينها، قال بهدوء:

"سوف أتصل بميلدماى من اكزامبتون . هل سيجدى ذلك؟".

أومأت بالإيجاب . وكانت الآن تبكى .

غادر سيمنجتون الغرفة، وفى الممر تقابل مع أوين جريفيث .

قال أوين بعنف:"ماذا يحدث هنا؟ شقيقتى ـ".

"آسف أيها الطبيب جريفيث، إنى فى غاية الأسف ولكن ليس هناك بديل آخر".

"هل تعتقد أنها ـ المسئولة عن هذه الخطابات؟".

قال ناش وهو يستدير نحو إيمى:"أخشى أنه لاشك فى ذلك يا سيدى . لابد أن تأتى معنا الآن من فضلك يا آنسة جريفيث ـ سوف نقدم لك كل التسهيلات لتوكيل محام".

صرخ أوين:"إيمى؟".

عبرت بجانبه دون أن تنظر إليه .

قالت:"لا تخاطبنى، لا تقل أى شىء . وبالله عليك لا تنظر إلىّ".

انصرفوا . وتسمر أوين فى مكانه .

انتظرت قليلاً ثم ذهبت إليه .

"إذا كان هناك ما يمكننى فعله يا جريفيث أخبرنى".

قال وكأنه فى حلم:

"إيمى؟ لا أصدق هذا".

قلت على غير اقتناع:"ربما يكون هناك خطأ ما".

قال ببطء:"ما كانت لتتعامل مع الموقف على هذا النحو إذا كان هناك خطأ ما، ولكنى لم أكن لأصدق هذا مطلقاً . لا أستطيع تصديق ذلك".

وغاص فى أحد المقاعد . وقد وجدت شيئًا مفيدًا لأفعله بإحضارى شرابًا مهدئًا له ـ احتساه وبدا أنه هدأ من روعه .

قال:"لم يكن بمقدورى استيعاب الأمر فى البداية، إننى على ما يرام الآن، شكرًا لك يا بيرتون ولكن ليس هناك ما يمكنك فعله . ليس هناك أى شىء يمكننا فعله".

انفتح الباب ودلفت جوانا وكان وجهها شاحبًا للغاية .

اقتربت من أوين ونظرت إلىّ .

وقالت:"انصرف يا جيرى فهذه مهمتى".

وبينما كنت متجهًا نحو الباب رأيتها وهى تجثو على ركبتها إلى جوار مقعده .

3

لا أستطيع إخباركم بالأحداث التى وقعت فى الأربع والعشرين ساعة التالية بشكل مرتب، فقد وقعت أحداث مختلفة، ليس لها علاقة ببعضها البعض .

أذكر قدوم جوانا إلى البيت وكان وجهها ممتقعًا، وبدت ذابلة ومذهولة، وكيف أننى حاولت إسعادها ورسم الابتسامة على شفتيها فسألتها:"والآن من الملاك الحارس؟ ".

وكيف أنها ابتسمت ابتسامة حزينة ذابلة وقالت:"إنه يقول إنه لا يريدنى يا جيرى، إنه فى غاية العجرفة والصلابة!".

فقلت لها:"وكذلك فتاتى لا تريدنى ...".

جلسنا هناك صامتين لدقيقة، وقالت جوانا أخيرًا:"إن عائلة بيرتون ليست مرغوبة فى الوقت الحالى!".

فقلت لها:"لا عليك يا عزيزتى، فمازلنا مع بعضنا البعض "، فقالت جوانا:"بشكل أو بآخر يا جيرى إن هذا لا يمثل لى راحة فى الوقت الحالى".

4

أتى أوين فى اليوم التالى وأخذ يتحدث فى إسهاب عن جوانا . وكيف أنها كانت رائعة وجميلة! الطريقة التى أتت بها إليه وكيف أنها رغبت فى الزواج منه ـ فى الحال إذا رغب هو . ولكنه لم يكن ليدعها تفعل ذلك . كلا فإنها فتاة أطيب وأرق من أن يرتبط اسمها بالقاذورات التى ستنتشر على ألسنة الناس بمجرد أن تنشر الصحف أخبار أخته .

فقد كنت أحب جوانا وأعرف أنها من ذلك النمط الذى يقف بجوار غيره فى وقت الأزمات ويتفانى فى ذلك، ولكنى شعرت بالملل من المثاليات المبالغ فيها وقلت لأوين ألا يكون بهذه الدرجة من النبل والمثالية .

ذهبت إلى الشارع الرئيسى، ووجدت أن ألسن الجميع تثرثر ويتناقلون الأخبار ويزيدون عليها . وقد ذكرت إيميلى بارتون أنها لم تثق أبداً من قبل فى إيمى جريفيث . وقالت زوجة البقال بحماس إنها دائماً ما كانت ترى أن هناك نظرة غريبة فى عينى إيمى جريفيث .

وعلمت من ناش أن رجال الشرطة أكملوا اتهاماتهم ضد إيمى . وقد أسفر تفتيش المنزل عن العثور على صفحات مقصوصة من كتاب إيميلى بارتون ـ وقد وجدت هذه الصفحات داخل الخزانة أسفل الدرج وملفوفة داخل لفافة قديمة من ورق الحائط .

قال ناش بإعجاب:"لقد كان مخبأ بشكل جيد، لقد كانت الخزانة مليئة بكرات التنس القديمة من العام الماضى ولفافات ورق حائط قديمة ولم يكن ليفتحها أحد أبداً إلا بغرض إلقاء شىء آخر بها".

قلت:"ويبدو أن السيدة كان لديها ولع بهذا المخبأ تحديداً".

"نعم، فنادراً ما يتمتع العقل الإجرامى بالتنوع . بالمناسبة، وفيما يتعلق بالفتاة القتيلة، فقد وصلنا إلى بعض الحقائق التى يمكن تتبعها . فهناك أداة حديدية ثقيلة وكبيرة فقدت من صيدلية الطبيب . وأراهن على أن هذه هى الأداة التى ضربت بها القتيلة".

فقلت معترضاً:"ولكنها أداة من الصعب على المرء أن يحملها معه".

"ليس بالنسبة للآنسة جريفيث . فقد كانت ذاهبة إلى معسكر الكشافة مساء ذلك اليوم، وكانت أيضاً ستترك بعض الزهور والخضراوات فى الجمعية الخيرية فى طريقها، ولذلك كانت تحمل معها سلة كبيرة للغاية".

"ألم تجد السيخ؟".

"كلا، ولن أجده . فتلك الشيطانة المسكينة ربما تكون قد جن جنونها، ولكنها لم يبلغ بها الجنون الحد الذى يجعلها تترك سيخًا ملطخًا بالدماء فى منزلها حتى يسهل علينا إدانتها بالجريمة فى الوقت الذى يمكنها فيه ببساطة أن تغسل السيخ وتعيده إلى درج المطبخ".

فوافقته قائلاً:"أعتقد أنه ليس فى مقدور المرء الحصول على كل شىء".

كان منزل راعى دار العبادة آخر مكان يسمع فيه الخبر . ولقد حزنت الآنسة ماربل العجوز كثيراً عندما سمعت به . ولقد حدثتنى بفضول واهتمام شديدين قائلة:

"هذا ليس صحيحًا يا سيد بيرتون، إننى واثقة من أن ذلك ليس صحيحًا".

"أخشى أن الأمر صحيح، فقد كانوا يتربصون لها وقد رأوها بالفعل وهى تكتب ذلك الخطاب".

"صحيح . صحيح . ربما كانوا قد رأوها بالفعل، نعم يمكننى أن أفهم ذلك".

"وكذلك فقد وجدوا الصفحات المطبوعة التى أخذت منها حروف الخطاب، وقد تم العثور عليها حيث خبأتها فى منزلها".

حملقت الآنسة ماربل فىّ، ثم قالت فى صوت خفيض للغاية:"ولكن هذا مريع، إنه عمل شرير حقًا".

أتت السيدة دين كالثروب فى عجلة وانضمت إلينا وقالت:"ما الخطب يا جين؟".

غمغمت الآنسة ماربل فى يأس:

"أوه يا عزيزتى، ماذا عسانا أن نفعل؟".

"ما الذى يسبب لك الضيق يا جين؟".

قالت الآنسة ماربل:"لابد وأن هناك شيئًا ما، ولكنى عجوز للغاية، وأخشى أيضًا أن أكون حمقاء ولا أعى شيئًا".

شعرت بقليل من الحرج، وفرحت عندما أتت السيدة دين كالثروب لتأخذ صديقتها وتنصرف .

ورغم ذلك، فقد قابلت الآنسة ماربل مرة أخرى هذا المساء وكان ذلك فى وقت متأخر، حيث كنت فى طريق عودتى إلى المنزل .

كانت تقف بجوار الجسر الصغير فى نهاية القرية بالقرب من كوخ السيدة كليت، وكانت تتحدث مع ميجان .

كنت أرغب فى رؤية ميجان . فقد كنت أشتاق لرؤيتها طوال اليوم، سارعت خطاى ولكن ما إن وصلت إليهما حتى استدارت ميجان وذهبت فى الاتجاه الآخر .

وقد أغضبنى ذلك وكنت سألحق بها ولكن الآنسة ماربل اعترضت طريقى .

وقالت:"أردت التحدث إليك . لا، لا تذهب إلى ميجان الآن، ليس ذلك بالتصرف الحكيم".

وكنت سأرد عليها بحدة لولا أنها لحقتنى بقولها:"هذه الفتاة شجاعة للغاية، شجاعة للغاية حقًا".

وكنت لا أزال أرغب فى اللحاق بميجان ولكن الآنسة ماربل قالت:"لا تحاول رؤيتها الآن، إننى أعرف ما أتحدث عنه، عليها أن تحتفظ بشجاعتها".

لقد كان هناك شىء فى إصرار تلك الآنسة العجوز أصابنى بالقشعريرة . فبدا لى أنها تعرف شيئًا لا أعرفه .

كنت أشعر بالخوف ولكنى لا أدرى السبب وراء شعورى بالخوف .

لم أذهب إلى المنزل . عدت مرة أخرى إلى الشارع الرئيسى ورحت جيئة وذهابًا دون هدف . لم أكن أعلم ما الذى أنتظره، أو ما الذى كنت أفكر فيه ...

ولقد أمسكنى ذلك العجوز الممل المدعو أبلتون . سأل عن أختى الجميلة كالمعتاد ثم أردف بعدها:

"ما كل هذا الحديث عن شقيقة جريفيث، لقد انتشر القيل والقال عنها؟ إنهم يقولون إنها المسئولة عن الخطاب المجهول الذى كان مصدر إزعاج للآخرين؟ لم أصدق الأمر فى البداية ولكنهم يقولون إن الأمر صحيح".

فقلت له:"نعم، إن الأمر صحيح".

"لابد أن أعترف بأن الشرطة تتمتع بكفاءة فى المجمل . فكل ما يحتاجون إليه هو الوقت، أعطهم الوقت الكافى وسوف يحققون كل شىء . كم كان مضحكًا أمر الرسائل تلك، لقد كان الأمر محل اهتمام تلك السيدات العجائز، على الرغم من أن الآنسة جريفيث لم تكن قبيحة المظهر حتى مع طول أسنانها قليلاً . ليس هناك فتاة جميلة المظهر فى هذه المنطقة ـ فيما عدا تلك الفتاة المربية فى منزل سيمنجتون . إنها تستحق النظر إليها . إنها فتاة لطيفة أيضًا . وتعرب عن امتنانها لأى خدمة صغيرة يؤديها لها المرء . لقد قابلتها عندما كانت فى نزهة خلوية أو شىء من هذا القبيل مع الصغيرين، ولم يكن ذلك من مدة طويلة، وكان الصغيران يلعبان على العشب، بينما كانت هى تقوم بحياكة شىء من الصوف . وقد كانت منزعجة لأن الصوف قد نفد فقلت لها:"حسنًا، هل تريدين أن أقوم بتوصيلك إلى لايمستوك؟ سوف أذهب لأخذ عصاتى من هناك، لن يستغرق الأمر سوى عشر دقائق للحصول عليها وسوف أقوم بتوصيلها مرة أخرى إلى هنا". كانت مترددة قليلاً بشأن ترك الصبيين، ولكننى قلت لها:"سوف يكونان على ما يرام، من الذى يمكن أن يؤذيهما؟ لا تخافى فلن نتركهما

طويلاً". وهكذا اصطحبتها معى بالسيارة، وقمت بتوصيلها إلى متجر الصوف، ثم عدت وأخذتها مرة أخرى وهكذا انتهى الأمر . وقد شكرتنى كثيراً . وقد كانت ممتنة للغاية، إنها فتاة لطيفة".

تمكنت من الفرار منه .

وبعد ذلك لمحت الآنسة ماربل للمرة الثالثة . وقد كانت فى طريقها للخروج من قسم الشرطة .

من أين تأتى المخاوف التى تصيب المرء، أين تتشكل هذه المخاوف، وأين تكون مختبئة قبل أن تخرج على الملأ؟

مجرد عبارة واحدة قصيرة، تم سماعها وتسجيلها ولم يتم تجنبها أبداً:"أرجوك أن تأخذنى بعيداً، إن البقاء هنا أمر فظيع، أشعر بأن الشر يحيط بى من كل مكان ...".

لماذا قالت ميجان هذا، ولماذا عساها تشعر بالشر؟ لم تكن وفاة السيدة سيمنجتون أمراً يجعل ميجان تشعر بالشر .

لماذا شعرت الفتاة بالشر؟ لماذا؟ لماذا؟

أيمكن أن يكون ذلك لأنها تشعر بمسئوليتها تجاه ما حدث لوالدتها .

ميجان؟ مستحيل! لا يمكن أن تكون لميجان أية علاقة بتلك الرسائل ... تلك الرسائل القذرة البذيئة، ولكن . كان أوين جريفيث يعرف حالة مماثلة ... كانت حالة طالبة فى المدرسة .

ما الذى قاله المفتش جريفز؟

شىء عن عقل مراهق ... سيدات فى متوسط العمر على طاولة العمليات الجراحية يهذين بكلمات لا يكدن يعرفنها ... صبية صغار يكتبون أشياء على الجدران .

كلا، كلا ... ليس ميجان .

هل يمكن أن يكون السبب العامل الوراثى السيئ؟ وراثة لسلوك غير طبيعى؟ أيكون سوء الحظ؟ إن الخطأ ليس خطأها، إنها لعنة لحقت بها من جيل مضى .

لماذا قالت:"لست من النوع الذى يصلح زوجة لك إننى أصلح للكراهية لا للحب؟".

أوه، ميجان طفلتى الصغيرة . لا يمكن أن يكون الأمر كذلك! كل شىء إلا هذا . وتلك العانس العجوز تلاحقك، إنها تشك فيك . تقول إنك شجاعة . شجاعة للقيام بماذا؟

كانت نوبة جنون عابرة مرت، ولكنى أردت رؤية ميجان، كنت بحاجة شديدة لرؤيتها .

تركت المنزل الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة وذهبت إلى البلدة، ومن هناك إلى بيت سيمنجتون .

وعندها خطرت ببالى فكرة جديدة تماماً ...

امرأة لم تخطر ببال أحد لحظة واحدة ...

أم أن ناش فكر بها؟ كان ذلك مستبعداً جداً، غير محتمل إطلاقاً، وكنت ـ حتى هذا اليوم ـ أعتبر ذلك مستحيلاً . ولكن الأمر لم يكن كذلك، كلا، لم يكن مستحيلاً .

ضاعفت سرعتى، فقد أصبح من الضرورى الآن أن أرى ميجان على الفور .

عبرت بوابة منزل سيمنجتون وصعدت إلى البيت . كانت الليلة مظلمة ملبدة بالغيوم، وبدأ المطر يتساقط، ولم تكن الرؤية واضحة .

لمحت شعاعاً من الضوء من إحدى النوافذ . أهى الغرفة الصغيرة التى كنا فيها فى الصباح؟

ترددت قليلاً، ثم انعطفت، وبدلاً من أن أتجه نحو الباب الأمامى، زحفت بهدوء إلى أن صعدت إلى النافذة متسلقاً غصناً ضخماً، وبقيت هناك خافضاً رأسى .

كان الضوء يخرج من فتحة الستارة التى لم تكن مسدلة جيداً، كان من السهل النظر منها ورؤية ما بداخل الغرفة، وقد كان المنظر من الداخل عائلياً هادئاً، سيمنجتون يجلس على كرسى كبير، وإلسى هولاند مشغولة بحياكة قميص أحد الأبناء .

كنت أستطيع أن أسمع ما يدور بالداخل بجانب رؤيتى لأن النافذة كانت مفتوحة من أعلى . كانت إلسى هولاند تقول:"ولكنى أظن فعلاً يا سيد سيمنجتون أن الولدين قد كبرا بما فيه الكفاية، ويمكنهما الذهاب إلى مدرسة داخلية، وهذا لا يعنى أننى لا أكره غيابهما عنى، بل سأكره ذلك فعلاً، فأنا أحبهما كثيراً".

قال سيمنجتون:"أعتقد أنك على حق بشأن برايان يا آنسة هولاند . لقد قررت إرساله ليبدأ الفصل القادم فى مدرسة ويناهز . مدرستى الابتدائية القديمة، ولكن كولين لا يزال صغيراً . وأرى أنه من الأفضل أن ينتظر سنة أخرى . إننى أفهم ما تعنينه بالطبع، كما أن كولين ربما كان صغيراً قليلاً بالنسبة لعمره".

حديث عائلى عادى . ومشهد منزلى هادئ . وفتاة لها شعر ذهبى تعمل على حياكة قميص، ثم فُتح الباب ودلفت ميجان، وقفت عند مدخل الباب منتصبة القامة، ولاحظت فوراً أنها تشعر بشىء من التوتر . كان وجهها صارماً، وعيناها لامعتين فيهما حزم واضح، لم يبد عليها هذه الليلة حياء أو تردد أو طفولية . قالت وهى تخاطب سيمنجتون باسمه المجرد ـ وفجأة فكرت بأننى لم أسمعها تناديه أبداً، هل كانت تخاطبه بأبى أم باسمه أم بماذا؟ قالت:"أود الحديث معك من فضلك، على انفراد".

بدا سيمنجتون مندهشاً وقطب جبينه، وتصورت أنه لم يكن مسروراً . لكن ميجان أصرت على كلامها بعزم لم يكن من عادتها .

التفتت إلى إلسى هولاند وقالت:"هل تمانعين يا إلسى تركنا على انفراد؟".

قفزت إلسى هولاند من مقعدها وقالت:"بالطبع لا"بدت مضطربة قليلاً واتجهت نحو الباب، ودلفت ميجان .

وللحظة فقط وقفت إلسى عند مدخل الباب جامدة تنظر وراءها .

كانت شفتاها مزمومتين، وقد وقفت جامدة دون حركة وإحدى يديها ممدودة بينما أمسكت الأخرى بالقميص الذى كانت تحيك تعمل فيه، وقد احتبست أنفاسى من فرط جمال إلسى .

إننى كلما أراها أو أفكر فيها يأخذنى جمالها الرائع شديد البهاء الذى يشبه جمال الإغريق، ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها .

قال سيمنجتون بشىء من الغضب:"ما الأمر يا ميجان؟".

كانت ميجان قد سارت باتجاه المكتب ووقفت هناك تحدق إلى سيمنجتون، وقد انتابتنى الدهشة إزاء التصميم المرتسم على وجهها، ولشىء آخر، لصلابتها وجرأتها اللتين لم أكن أعرفهما من قبل .

وأخيراً قالت شيئًا جعلنى أزداد اندهاشاً:"أريد بعض المال!".

لم يرق هذا المطلب لـ"سيمنجتون"فقال بحدة:"ألم يكن بإمكانك الانتظار حتى صباح الغد؟ ماذا حدث؟ أترين أن مصروفك لا يكفى؟".

قالت ميجان:"أريد مبلغًا كبيراً من المال؟ ".

اعتدل سيمنجتون فى جلسته وقال بفتور:"ستبلغين السن القانونية بعد بضعة أشهر، وعندها سيحيل لك الوصى العام الأموال التى تركتها لك جدتك".

قالت ميجان:"أنت لا تفهمنى . أريد مالاً منك".

ثم أخذت تتحدث بسرعة أكبر:"لم يكلمنى أحد كثيراً عن والدى، لا يريدوننى أن أعرف عنه شيئًا ؛ ولكنى أعرف أنه دخل السجن، وأعرف السبب . كان ذلك بسبب الابتزاز!".

صمتت قليلاً ثم قالت:"حسنًا، وأنا ابنته، وربما أشبهه على أية حال، لذا أطلب منك مالاً، لأنك إن لم تفعل ...". وصمتت مرة أخرى ثم أكملت بكل هدوء وبطء:

"إن لم تفعل،

فسوف

أكشف ما رأيتك تفعله بتلك الكبسولة فى غرفة والدتى ذلك

اليوم".

ساد شيء من الصمت، ثم تحدث سيمنجتون بصوت يخلو من أية عاطفة:"لا أعرف ما تقصدينه".

"بل أظنك تعرف كل شيء".

ثم ابتسمت، ولم تكن ابتسامة لطيفة . نهض سيمنجتون، وذهب إلى طاولة المكتب وأحضر منها دفتر الشيكات، ووقع شيكًا، وقعه بحرص شديد ثم عاد فقدمه لها وقال:"أنت فتاة بالغة الآن وأعلم أنك قد تريدين شراء شيء خاص كالملابس وغيرها . لا أعرف ما الذى كنت تتحدثين عنه . ولكن إليك هذا الشيك".

نظرت ميجان إلى الشيك وقالت:"شكرًا، هذا يكفى "، واستدارت وغادرت الغرفة، وحدق سيمنجتون بها وهى خارجة وبالباب المغلق، ثم التفت . وعندها رأيت وجهه، تقدمت إلى الأمام بحركة سريعة لكنى وجدت ما يعوق حركتى .

فالغصن الكبير الذى لاحظته قرب الحائط لم يعد غصنًا .

أحاطت بى ذراع المفتش"ناش"وهمس فى إذنى:"اهدأ يا بيرتون . اهدأ بالله عليك". ثم تراجع للوراء بحذر شديد وهو يمسك بى حتى أصحبه . وعند جانب البيت انتصب واقفًا ومسح جبينه وقال:"لا مفر من تطفلك بالطبع!".

قلت بإلحاح:"تلك الفتاة ليست فى أمان، هل رأيت وجهه؟ يجب أن تخرجها من هنا".

قبض ناش على ذراعى بقوة وقال:"اسمعنى الآن يا سيد بيرتون، يجب أن تصغى إلىّ جيدًا".

6

حسنًا، أخذت أنصت إليه .

وعلى الرغم من أن ذلك لم يرق لى إلا أننى أذعنت .

ولكنى أصررت على البقاء وأقسمت أن أطيعه طاعة عمياء .

وبهذه الطريقة دلفت أنا وناش وباركينز إلى المنزل من الباب الخلفى الذى كان غير مقفل بالفعل .

وانتظرت مع ناش على أعلى درجات السلم خلف الستائر التى تغطى النافذة حتى دقت

الساعة الثانية، وانفتح حينها باب سيمنجتون الذى خرج واتجه نحو غرفة ميجان .

ولم أتحرك حركة واحدة لأننى كنت أعلم أن المحقق باركينز كان بداخل الغرفة خلف الباب المفتوح، وكنت أعلم كذلك أن باركينز رجل على درجة عالية من الكفاءة ويعرف عمله جيداً، وكنت أعلم أننى لم أكن واثقاً من قدرتى على الحفاظ على هدوئى .

كنت أنتظر وقلبى يخفق بين ضلوعى . ورأيت سيمنجتون يخرج من الغرفة حاملاً ميجان بين ذراعيه نازلاً بها عبر السلم، وقد تبعته أنا وناش محافظين على مسافة بيننا وبينه .

سار بها عبر المطبخ، ووضعها بشكل مريح، ووضع رأسها فى الموقد وفتح صمام الغاز، وحينها دخلت أنا وناش المطبخ وأضأنا النور .

وكانت هذه هى نهاية ريتشارد سيمنجتون، فقد خر منهاراً وأنا أبعد ميجان وأغلق صمام الغاز . ولم يحاول حتى المقاومة . فقد كان مدركاً أنه لعب وخسر اللعبة .

فى الطابق العلوى، وقفت منتظراً بجوار فراش ميجان حتى تستعيد وعيها وكنت ألعن ناش بين الحين والآخر .

قلت له:"كيف تعرف أنها ستكون على ما يرام، لقد كانت تلك مجازفة كبيرة".

كان ناش يحاول تهدئتى وقال:

"لقد وضع لها فى اللبن بضع حبوب منومة من تلك التى تضعها دائماً بجوار فراشها . لا شىء أكثر من ذلك . فهذا أمر منطقى، فإنه لن يغامر بأن يضع لها سماً . فقد انتهى الأمر بالنسبة له باعتقال الآنسة جريفيث، ولن يستطيع تحمل وقوع جريمة قتل غريبة أخرى، لا عنف ولا سموم . ولكن إذا ما اعتملت فى نفس فتاة مكتئبة فكرة انتحار والدتها لفترة طويلة، وذهبت فى النهاية لتضع رأسها فى الموقد . فسوف يعتقد الناس أنها لم تكن فتاة طبيعية وأن صدمة فقدان والدتها قد أثرت عليها وجعلتها تقدم على الانتحار".

قلت وأنا أراقب ميجان:

"إنها لم تسترد وعيها بعد".

"ألم تسمع ما قاله دكتور جريفيث، فالقلب والنبض طبيعيان تماماً ـ إنها فقط نائمة وسوف تستيقظ من تلقاء نفسها، وقال إنه يعطى هذه المادة للكثير من مرضاه".

تقلبت ميجان فى الفراش وغمغمت بشىء ما .

غادر المفتش ناش الغرفة دون تطفل، ثم فتحت ميجان عينيها وقالت:"جيرى".

"مرحبًا يا قطتى الصغيرة".

"هل نجحت فى الأمر؟".

"وكأن الابتزاز كان مهنتك منذ أن كنت فى المهد". أغلقت ميجان عينيها مرة أخرى . ثم غمغمت:"الليلة الماضية كنت أكتب إليك فى حالة إذا لم تسر الأمور على ما يرام . ولكنى شعرت بنعاس شديد ولم أستطع إكمال رسالتى ـ إنها هناك".

ذهبت إلى الطاولة . وقد كان هناك دفتر صغير ووجدت فيه رسالة ميجان غير المكتملة .

بدأت الرسالة بشكل رسمى:"عزيزى جيرى".

"لقد كنت أقرأ أيام المدرسة أعمال شكسبير والقصيدة التى تبدأ بـ

أنت لأفكارى مثل الطعام للحياة

أو كالأمطار العذبة التى تروى

الأرض .

وقد أدركت أننى أحبك رغم كل شىء، لأن هذه هى مشاعرى ...

الفصل الرابع عشر

1

قالت السيدة دين كالثروب:» وهكذا رأيت أننى كنت على حق فى أمر استدعاء خبير".

حملقت فيها . كنا جميعاً فى بيت راعى دار العبادة وكانت الأمطار تهطل فى الخارج، والنيران موقدة للتدفئة، وكانت السيدة دين كالثروب تتجول فى الغرفة وتلكم الوسادة التى فوق الأريكة وتقوم بوضعها على سطح البيانو الضخم لسبب لا يعلمه إلا هى .

قلت مندهشًا:" ولكن هل استدعيت أحداً بالفعل؟ من هو؟ وماذا فعل؟" .

قالت السيدة دين كالثروب:" لم يكن هو" .

وأشارت حينها بإيماءة تبجيل إلى الآنسة ماربل . كانت الآنسة ماربل قد انتهت من الحياكة وشغلت نفسها الآن بإبرة كروشيه وبكرة من القطن .

قالت السيدة دين كالثروب:" تلك هى خبيرتى، جين ماربل، انظر إليها جيداً . إن هذه السيدة تعرف بشأن الشرور الإنسانية أكثر من أى شخص آخر .

تمتمت الآنسة ماربل:" لا أعتقد أنه عليك وصفى على هذا النحو" .

" ولكنك كذلك حقًا" .

قالت الآنسة ماربل فى هدوء:" إن المرء يرى الكثير من الطبيعة البشرية بسبب بقائه فى القرية طوال العام" .

وبعدها ـ ويبدو أنها شعرت بأن عليها فعل ذلك ـ قامت بوضع الشىء الذى كانت تقوم بحياكته جانباً وبدأت فى إلقاء خطبة لطيفة قديمة عن أسلوب جرائم القتل .

" أهم شىء فى هذه القضايا هو أن تبقى ذهنك متفتحاً، فكل الجرائم التى تقابلها بسيطة للغاية فى واقع الأمر . ولقد كانت هذه القضية من هذا النوع . بديهية للغاية وواضحة ويمكن فهم أبعادها بسهولة، ولكن بطريقة كريهة بالطبع" .

" كريهة للغاية" .

" لقد كانت الحقيقة واضحة للغاية، ولقد عرفتها أنت يا سيد بيرتون" .

" فى الواقع لم أتمكن من معرفتها" .

" ولكنك عرفتها بالفعل . وقد أوحيت لى بالأمر . فلقد توصلت تمامًا للعلاقة بين شىء وآخر، ولكنك لم تتمتع بثقة كافية بالنفس لتعرف معنى المشاعر التى كانت تختلج بداخلك . لنبدأ بتلك العبارة المملة:" لا يوجد دخان بدون نار"، كانت هذه العبارة تزعجك، ولكنك تقدمت على نحو صحيح لتسمى هذه العبارة بالتالى: ساتر دخانى، أى تضليل فى الاتجاه الآخر ـ حتى ينظر الناس جميعًا إلى الاتجاه الخاطئ، ذلك الخطاب المجهول، ولكن الفكرة كلها تكمن فى أنه لم يكن هناك أية رسائل مجهولة" .

ولكن يا عزيزتى ماربل يمكننى أن أؤكد لك أنه كانت هناك رسائل مجهولة، فقد تلقيت واحدة" .

" نعم صحيح ولكنها لم تكن رسائل حقيقية بالمرة . العزيزة مود توصلت إلى ذلك دون وعى منها . حتى فى بلدة لايمستوك المسالمة توجد الكثير من الفضائح، وأؤكد لك أنه من شأن أى امرأة أن تعرف هذه الفضائح وتستغلها . ولكن الرجل كما يقولون لا يهتم بالفضائح والثرثرة بنفس طريقة النساء، خاصة إذا كان رجل منطقيًا ويبتعد عن مثل تلك الأمور مثل السيد سيمنجتون . فلو كان كاتب الرسائل امرأة حقيقية لكانت جعلت رسائلها أكثر دقة وفى لب الموضوع" .

" وهكذا فأنت ترين يا آنسة ماربل أنك إن تجاهلت الدخان وذهبت مباشرة إلى النيران فستعرفين مكانك الصحيح . سوف تصلين إلى الحقائق الفعلية لما حدث، وإذا نحينا الرسائل جانبًا، فإن شيئًا واحدًا قد حدث وهو وفاة السيدة سيمنجتون" .

وهكذا إذن من الطبيعى أن يفكر المرء فى الشخص المستفيد من وفاة السيدة سيمنجتون، وبالطبع فإن أول شخص يمكن التفكير فيه فى هذه الحالة للأسف هو الزوج . والمرء حينها يسأل نفسه هل هناك سبب لذلك؟ هل هناك أى دافع؟ على سبيل المثال هل هناك امرأة أخرى فى حياته؟" .

" ولكن أول ما تناهى إلى مسامعى هو وجود مربية أطفال جذابة للغاية فى المنزل، الأمر فى غاية الوضوح، أليس كذلك؟ السيد سيمنجتون، ذلك الرجل الجاف المكبوت غير العاطفى المتزوج من امرأة كئيبة عصبية، تظهر فى حياته فجأة شابة مثل هذه" .

" وأخشى كما تعلمون أن الرجال الذين يقعون فى الحب فى مثل هذه السن يكون الأمر صعبًا عليهم للغاية . فتنتابهم حالة من الجنون . والسيد سيمنجتون على حد معلوماتى واستنتاجاتى لم يكن أبدًا رجلاً صالحًا، لم يكن عطوفًا أو ودودًا ـ كانت صفاته فى مجموعها سلبية ـ لذا لم يكن لديه من القوة ما يمكنه من محاربة ذلك الحب أو ذلك الجنون . وفى مكان مثل هذا يكون موت زوجته هو السبيل الوحيد لحل المشكلة . فقد أراد أن يتزوج الفتاة كما تعلمون، وهى فتاة محل احترام وكذلك هو .

وإلى جانب ذلك، فهو محب جداً لأطفاله ولا يرغب فى التخلى عنهم . فقد أراد كل شىء: بيته وأبناءه والحفاظ على احترامه، وكذلك إلسى أيضاً . والثمن الذى كان عليه دفعه للحصول على كل ذلك هو القتل" .

" وقد اختار حسب اعتقادى طريقة ماهرة للغاية، فقد كان يعرف جيداً من خلال خبرته فى القضايا الجنائية أن الزوج يكون أول المشتبه بهم فى حالة وفاة الزوجة فجأة، بالإضافة إلى احتمال تشريح الجثة فى حالة التسمم . لذا فقد رتب الوفاة لتبدو نتيجة عرضية لشىء آخر . لذا فقد اختلق أمر كاتبة غير موجودة لرسائل مجهولة . والشىء الذكى فى هذا الأمر أن رجال الشرطة كانوا متيقنين من أن المشتبه به كان امرأة ـ وقد كانوا محقين تماماً بطريقة ما . فقد كانت الرسائل جميعاً رسائل امرأة بالفعل، وقد نسخها بمهارة من إحدى القضايا فى العام الماضى ومن قضية أخرى أخبره بها الطبيب جريفث . ولا أعنى أنه كان مغفلاً بحيث ينقل الخطابات حرفياً، ولكنه أخذ عبارات وتعبيرات منها ودمجها ببعضها البعض وكانت النتيجة النهائية أن الرسائل المرسلة جميعها جاءت بأسلوب نسائى ـ امرأة مكبوتة نصف مجنونة" .

" وكان على دراية بكل ألاعيب الشرطة، بالتحرى عن خط اليد والآلة الكاتبة وغيرهما . وقد أعد لهذه القضية منذ وقت طويل، ولذلك فقد قام بطبع جميع المظاريف قبل أن يهدى الآلة الكاتبة إلى جمعية المرأة، وربما قام بقطع الصفحات من الكتاب فى ليتل فيرز منذ وقت طويل، وذلك عندما كان ينتظر فى غرفة الاستقبال . إن الناس لا يقرءون فى كتب المواعظ كثيراً ..." .

" وفى نهاية الأمر، وبعد أن نشر سموم قلمه فى كل مكان بالقرية، بدأ فى تنفيذ خطته الحقيقية . وذلك فى وقت لطيف بعد الظهيرة عندما كانت المربية والأولاد وابنة زوجته خارج المنزل، والخدم فى عطلتهم المعتادة . لم يستطع التنبؤ بأن الخادمة الصغيرة آجنس ستتشاجر مع خطيبها وتعود إلى المنزل ثانية" .

سألت جوانا:

" ولكن ماذا رأت؟ هل علمت بما رأت؟"

" لا أدرى عن يقين، ولكن يمكننى التخمين، وعلى حد اعتقادى أنها لم تر أى شىء" .

" أى أن ذلك كان وهماً؟" .

" لا، لا يا عزيزتى . أقصد أنها وقفت عند نافذة غرفة الخزين طيلة العصر تنتظر مجىء خطيبها ... وهى لم تر شيئاً بالمعنى الحرفى للكلمة . أى أنه لم يأت إلى البيت، لا ساعى البريد ولا أى شخص آخر" .

" ولأنها بطيئة الفهم، لم تكن لتدرك أنه كان أمراً غريباً للغاية أن تتلقى السيدة سيمنجتون يومها خطاباً مجهولاً، حيث إنه لم يأت أحد للمنزل" .

سألتها متحيراً:" ولكن ألم تتلق رسالة؟" .

" كلا بالطبع، فكما ذكرت لكم أن هذه الجريمة بسيطة للغاية . فإن زوجها قد وضع لها السيانيد فى كبسولة الدواء التى كانت ستتناولها بعد ظهر ذلك اليوم بعد تناول وجبة الغداء كعادتها . كل ما كان على سيمنجتون عمله هو العودة إلى المنزل قبل عودة إلسى هولاند أو العودة معها فى نفس الوقت، ثم ينادى على زوجته، ولا ترد عليه، فيصعد إلى غرفتها، ويضع قطرة من السيانيد فى كأس الماء الذى اعتادت أن تشربه مع قرص الدواء، ثم يلقى بالرسالة التى قام بإعدادها مسبقًا أمام الموقد، ويضع بجوار يدها قصاصة من الورق كتب عليها:" لا يمكننى أن أستمر" .

التفتت الآنسة ماربل نحوى وقالت:" وقد كنت أنت أيضًا محقًا تمامًا يا سيد بيرتون فى تلك النقطة، حيث إن قصاصة الورق لم تكن طبيعية تمامًا . فالناس عندما يعزمون على الانتحار لا يتركون رسالة فى قصاصة ورق صغيرة ممزقة مثل تلك . فإنهم يستخدمون لذلك ورقة كاملة ـ وغالبًا ما يضعون رسالتهم فى مظروف . نعم فقصاصة الورق لم تكن طبيعية وقد أدركت ذلك" .

قلت لها:" أنت تبالغين فى مديحى، فإننى لم أدرك شيئًا" .

" ولكنك فعلت ذلك حقًا يا سيد بيرتون، وإلا لماذا أثرت فيك الرسالة التى كتبتها شقيقتك على عجل وتركتها إلى جوار الهاتف؟!" .

فكررت ما ورد فى الرسالة:" لا يمكننى الاستمرار يوم الجمعة، فهمت، لا يمكننى الاستمرار" .

ابتسمت الآنسة ماربل وقالت:" تمامًا، لقد عثر السيد سيمنجتون على رسالة مشابهة لتلك وقد أدرك ما تنطوى عليه كلماتها من معانٍ واحتمالات فقطع الكلمات التى أرادها حتى يستخدمها عندما يحين الوقت لذلك، وقد كانت الرسالة بخط زوجته الحقيقى" .

سألت الآنسة ماربل:" وهل كان هناك أى لمحات ذكاء أخرى من جانبى" .

غمزت إلىّ الآنسة ماربل:

" لقد وضعتنى على الطريق الصحيح . فقد قمت بجمع الحقائق على نحو متسلسل، وعلى رأس تلك الحقائق ما ذكرته بشأن عدم تلقى إلسى أى رسائل مجهولة مطلقًا" .

فقلت لها:" أتعلمين أننى قد فكرت الليلة الماضية فى أنها قد تكون هى صاحبة الرسائل المجهولة، وذلك هو سبب عدم تلقيها أى رسائل" .

" أوه يا عزيزى . كلا ... فالشخص الذى يكتب رسائل مجهولة دائمًا ما يرسل لنفسه رسائل هو الآخر . هذا جزء من الإثارة على حد اعتقادى . ولكن كلا، لقد أثارت هذه الحقيقة اهتمامى لسبب آخر . فقد كانت حقًا نقطة ضعف للسيد سيمنجتون . فهو لم يستطع إرغام نفسه على كتابة رسالة للفتاة التى يحبها . فهذا جانب مثير حقًا فى

الطبيعة البشرية ـ وربما تكون فى صالحه بطريقة ما، ولكنها نفس الشىء الذى كشفه" .

قالت جوانا:" وهل هو من قتل آجنس؟ ولكن هذا بالطبع لم يكن ضرورياً؟" .

" ربما كان ذلك، ولكن ما لا تدركينه يا عزيزتى (إذا لم تقتلى أحداً) هو أن قدرة المجرم على الحكم تتشتت ويبدو له كل شىء مبالغاً فيه، ولا شك أنه سمع مكالمة الفتاة إلى بارتريدج والتى أعربت فيه عن شعورها بالقلق منذ وفاة السيدة سيمنجتون، وأن هناك شيئاً لا تستطيع فهمه . لم يستطع المجازفة، فتلك الفتاة الغبية الحمقاء لابد وأنها رأت شيئاً أو تعرف شيئاً، لكن من الواضح أنه كان فى مكتبة طيلة فترة الظهيرة" .

" أعتقد أنه قام بقتلها قبل ذهابه إلى المكتب . فقد كانت الآنسة هولاند فى غرفة تناول الطعام . وقد ذهب هو إلى الردهة وفتح الباب الأمامى وأغلقه وكأنه انصرف، ثم بعد ذلك دخل إلى غرفة الملابس الصغيرة عند الباب الأمامى، وكانت آجنس بمفردها فى المنزل، وربما قام بقرع جرس الباب الأمامى، وعندما ذهبت لكى تفتح تسلل من خلفها وقام بضربها على رأسها، وثم بعد أن حشر الجثة فى الخزانة هرع إلى مكتبه، ووصل بعد ذلك إلى المنزل متأخراً قليلاً عن موعده المعتاد إذا لاحظ أحدهم ذلك، ولكنهم تقريباً لم يلاحظوا الأمر . فكما تعلمون فلم يشك أحد فى أن يكون القاتل رجلاً" .

قالت السيدة دين كالثروب ." ياله من وحش بغيض" .

سألتها:" ألست آسفة من أجله يا سيدة دين؟" .

" مطلقاً، لماذا؟" .

" أسعدنى سماع ذلك . هذا كل ما فى الأمر" .

قالت جوانا:

" ولكن لماذا إيمى جريفيث، أعرف أن الشرطة قد اكتشفت أن الأداة الحديدية قد اختفت من صيدلية أوين ... وكذلك السيخ . لا أعتقد أنه من السهل على رجل أن يعيد أشياء إلى أدراج المطبخ لقد أخبرنى المفتش ناش منذ قليل عندما التقيت به وأنا فى طريقى إلى هنا أن أداة الجريمة كانت فى أحد الصناديق القديمة فى مكتبه . فى الصندوق الذى يضم وثائق عقارات الراحل السيد جاسبر هارينجتون وست"،

قالت السيدة دين كالثروب:" السيد جاسبر المسكين، لقد كان ابن عمى . لو علم بما حدث حينئذٍ لأصيب بنوبة قلبية" .

سألت:" ألم يكن من الجنون الاحتفاظ بها؟" .

قالت السيدة دين كالثروب:" ربما سيكون أكثر جنونًا لو تخلص منها، فلم يكن هناك أحد يشك فى سيمنجتون مطلقًا" .

قالت جوانا:" كانت هناك أيضًا كرة حديدية، وكان عليها آثار شعر ودماء . يعتقدون أنه سرق أداة الجريمة فى اليوم الذى تم فيه إلقاء القبض على إيمى، وقد قام بإخفاء صفحات الكتاب فى منزلها . وهذا يعيدنى إلى سؤالى الأصلى: ماذا عن إيمى جريفيث؟ فقد رأتها الشرطة وهى تكتب تلك الرسالة بالفعل" .

قالت الآنسة ماربل:" نعم، بالطبع لقد كتبت هذه الرسالة" .

" ولكن لماذا؟" .

" أوه يا عزيزتى، لابد أنك لاحظت ذلك، فالآنسة جريفيث كانت تحب سيمنجتون طيلة حياتها" .

قالت السيدة دين كالثروب بحزن:" يالها من مسكينة، لقد كانا دائمًا صديقين حميمين، وأعتقد أنها رأت بعد وفاة السيدة سيمنجتون أنها ربما تستطيع فى يوم من الأيام أن ..."، ثم تنحنحت الآنسة ماربل قبل أن تردف:" ثم بعد ذلك انتشرت الشائعات حول إلسى هولاند، وأعتقد أن ذلك أثار ضيق الآنسة جريفيث كثيرًا . وقد رأت أن تلك الفتاة امرأة لعوب تخطط لإيقاع سيمنجتون فى شباكها وأنها غير جديرة به مطلقًا . وأعتقد أنها انقادت وراء هذا الإغراء: لماذا لا تكتب للفتاة رسالة مجهولة أخرى واحدة لتثير رعبها وترغمها على ترك المنزل؟ لقد بدا لها أن الأمر آمن تمامًا وقد اعتقدت أنها أخذت كل الاحتياطات .

قالت جوانا:" وبعد ذلك؟ أكملى القصة" .

قالت الآنسة ماربل ببطء:" يخيل لى أنه عندما عرضت الآنسة هولاند الرسالة على سيمنجتون عرف على الفور هوية كاتبتها، وقد رأى أن هناك فرصة بذلك لإنهاء القضية تمامًا . وأن يجعل نفسه فى مأمن . بالطبع لم يكن ذلك أمرًا لطيفًا بالمرة ولكنه كان خائفًا . فالشرطة لن تهدأ حتى تعثر على كاتبة الرسائل المجهولة . وعندما أخذ الرسالة إلى الشرطة ووجد أنهم قد رأوا إيمى بالفعل وهى تكتبها، شعر بأن أمامه فرصة عظيمة لإنهاء الأمر برمته" .

" وهكذا فقد أخذ أسرته لتتناول الشاى هناك عصر ذلك اليوم، وكان من السهل جدًا وهو عائد من مكتبه ومعه حقيبته أن يحضر بداخلها الصفحات التى قصها من الكتاب لكى يخفيها أسفل الدرج ويحسم القضية . وقد كان إخفاؤه للورق تحت الدرج لمسة رائعة، لأنه بذلك ذكر الجميع بالطريقة التى أخفيت بها جثة آجنس، وقد كان ذلك سهلاً عليه للغاية من الناحية العملية، وعندما لحق بإيمى فى الردهة كانت دقيقة واحدة أو دقيقتن تكفيان بالنسبة له لإنجاز ذلك" .

قلت:" ولكن هناك شيئًا واحدًا لا أستطيع أن أسامحك عليه يا آنسة ماربل، ألا وهو

إقناعك ميجان بالمشاركة فى ذلك" .

وضعت الآنسة ماربل خيط الكروشيه الذى كان فى يدها جانبًا ونظرت إلىّ من خلال نظارتها نظرة صارمة وقالت:" يا عزيزى الشاب، كان يجب فعل شىء، فلم يكن هناك دليل واحد ضد ذلك الرجل العجوز الماهر . وأردت أن يساعدنى أحد، شخص يتمتع بشجاعة كبيرة وذكاء . وقد وجدت الشخص" .

" لقد كان هناك خطر يحدق بها" .

" نعم، لقد كان خطراً، ولكننا لم نخلق فى هذا العالم يا سيد بيرتون للهرب عندما تكون حياة شخص آخر برىء مهددة . هل تفهمنى؟" .

وقد فهمتها .

الفصل الخامس عشر

1

فى الصباح فى الشارع الرئيسى .

خرجت الآنسة إيميلى بارتون من المتجر حاملة حقيبة التسوق فى يدها . وكانت وجنتاها متوردتين وعيناها مليئتين بالإثارة .

" أوه عزيزى سيد بيرتون، إننى أشعر حقاً بالإثارة وأنا أفكر بالذهاب فى رحلة أخيراً" .

" آمل أن تستمتعى بها" .

" أوه . إنى على يقين، من ذلك . لم أكن أجرؤ على الذهاب بمفردى . لابد أن الأمور قد انتهت على هذا النحو بفضل العناية الإلهية . لقد شعرت منذ وقت طويل بضرورة مغادرة منزل ليتل فيرز، وكنت أعرف أن إمكاناتى المالية ضعيفة، ولم أكن أستطيع تحمل فكرة دخول غرباء إلى المنزل . ولكن الآن وبعدما اشتريته وسوف تعيش فيه مع ميجان فالأمر مختلف تماماً . والآن بالنسبة لإيمى بعد معاناتها القاسية فهى لا تعرف ماذا تفعل خاصة أن أخاها سيتزوج، وقد وافقت على المجىء معى . سوف نرحل لوقت طويل . وربما أيضاً ..." ـ ثم خفضت صوتها وهى تقول:" سنذهب فى جولة حول العالم . إن إيمى رائعة وعملية للغاية وإننى أرى أن كل شىء سوف ينتهى نهاية سعيدة . أليس كذلك؟" .

فكرت للحظة عابرة فى السيدة سيمنجتون وآجنس فى قبريهما وتساءلت ما إذا كانتا ستوافقان على حديث إيميلى بشأن النهاية السعيدة . ثم تذكرت أن صديق آجنس لم يكن يحبها كثيراً، وأن السيدة سيمنجتون لم تكن لطيفة مع ميجان، فلابد أن نموت جميعاً يوماً ما، ووافقت الآنسة إيميلى السعيدة فى أن كل شىء كان فى أفضل حال .

ذهبت عبر الشارع الرئيسى ثم إلى بوابة منزل سيمنجتون، وقد خرجت ميجان لمقابلتى . لم يكن لقاءً رومانسياً لأن هناك كلباً إنجليزياً ضخماً خرج مع ميجان وكاد يوقعنى .

قالت ميجان:" أليس رائعاً؟" .

" ولكنه مبالغ فى ذلك . هو ملك لنا" .

" نعم . إنه هدية الزواج من جوانا . لقد تلقينا هدايا زواج لطيفة، أليس كذلك؟ قطعة الصوف تلك التى أرسلتها الآنسة ماربل والتى لا نعرف فيم تستخدم، وطقم الشاى الجميل من السيد باى، وكذلك أرسلت لنا إلسى حاملة توست ..." .

قلت مقاطعاً لها:" إنها هدية تمثل صاحبتها" .

" كما أنها قد حصلت على عمل عند طبيب الأسنان وهى سعيدة بذلك ... ماذا كنت أقول؟" .

" تقومين بإحصاء هدايا الزواج الرائعة . لا تنسى إذا غيرت رأيك بشأن الزواج أن تعيدى الهدايا لأصحابها" .

" لن أغير رأيى، ماذا لدينا أيضاً؟ أوه، نعم فقد أرسلت السيدة دين كالثروب تحفة على شكل خنفساء مصرية" .

قلت:" إنها تحب الأصالة" .

" أوه، ولكنك لم تعرف بعد بأمر أفضل هدية . فقد أرسلت لى بارتريدج هدية، إنها أبشع منشفة أطباق يمكن أن تراها فى حياتك . ولكن لابد أنها تحبنى الآن لأنها ذكرت أنها غزلت المنشفة بنفسها" .

" أعتقد أنها طرزتها بعناقيد حصرم وأشواك!" .

" كلا، بل بصورة قلب كرمز للحب" .

قلت:" عزيزتى، إن بارتريدج تتطور" .

جذبتنى ميجان إلى داخل المنزل وقالت:" هناك شىء واحد لا أفهمه، فمع الطوق والحبل اللذين أرسلتهما جوانا مع الكلب، هناك طوق وحبل إضافيان . لماذا أرسلتهما فى اعتقادك؟" .

قلت:" إنها مزحة صغيرة من جوانا" .

جدول المحتويات

الفصل الأول
الفصل الثانى
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادى عشر
الفصل الثانى عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر